

حصار وسقوط الخرطوم

مهمونة ميرغني حمزة

— دار التأليف والترجمة والنشر —



إخراج إلكتروني / ابوبكر خيرى

حصار وسقوط الخرطوم

يناير ١٨٨٤ - ١٨٨٥

القسم الأول
إلى استقلال دون دماء

حصار وسقوط الخرطوم

يناير ١٨٨٤ - ١٨٨٥

ميمونة ميرغني حمزة

حقوق الطبع محفوظة

الناشرون : دار التأليف والترجمة والنشر

جامعة الخرطوم

ص.ب : ٣٢١

الخرطوم

962.42

مجموعه

199574

الطابعون

دار الطباعة

دار التأليف والترجمة والنشر

جامعة الخرطوم

الناشرون : دار التأليف والترجمة والنشر

جامعة الخرطوم

ص.ب : ٣٢١

الخرطوم

إخراج إلكتروني : ابوبكر خيرى

962.42

مجموعته

رقم المكتبة	
رقم التصنيف	
رقم الرف	

199574

تاريخ الاستدعاء	
رقم الاستدعاء	

الطابعون

دار الطباعة

دار التأليف والترجمة والنشر

جامعة الخرطوم

المحتويات

رقم الصفحة

٧	كلمة شكر وتقدير
٩	رموز المصادر
١١	قائمة بالملاحق
١٣	— تقييم المصادر الأساسية
١٩	— الرسائل ..

الفصل الأول

٣٧	تمهيد : نبذة في تاريخ مدينة الخرطوم
٤٣	المهدى من أبا إلى الخرطوم ..

الفصل الثاني

٤٧	مهمة غوردون وخطته الأساسية
----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	----------------------------

الفصل الثالث

٦٧	مخططات غوردون والمهدى للسيطرة على الخرطوم
----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	---

الفصل الرابع

٩٧	مشاكل الحصار
----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	--------------

الفصل الخامس

١٢٥	عوامل حاسمة في تقرير نتيجة الحصار ..
-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	--------------------------------------

الفصل السادس

١٥٩	من عمليات الحصار إلى سقوط الخرطوم
١٨٥	الخاتمة
١٨٩	— المصادر ..

— خريطة منطقة الخرطوم

كلمة شكر وتقدير

الآن وقد فرغت من كتابة هذا البحث أجد من واجبي ان أقدم بكلمة شكر وعرفان بالجميل لكل الذين قدموا لي العون الصادق والمساعدة المقدرة. وأخص بالشكر من هؤلاء السيد الدكتور يوسف فضل حسن أستاذ التاريخ بكلية الآداب ومدير شعبة أبحاث السودان بجامعة الخرطوم لتكريمه بالإشراف عليه . فكانت توجيهاته ومقترحاته القيمة خير عون لي في إبراز هذا البحث بالصورة التي هو عليها الآن .

وبالشكر والامتنان أقدم أيضا إلى البروفسير مكي شبيكة الذي ساعدتني مقترحاته في إنجاز أجزاء من هذا البحث كما مكنتني لإرشاداته من الحصول والاطلاع على بعض الوثائق التي تعالج الفترة قيد الدراسة .

وأقدم بشكري أيضا إلى المسترد . هل الذي لم يدخر وسعا أثناء وجوده في مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة درهام لمعاونتي في الاطلاع على كل الوثائق المحفوظة لديه .

وبكثير من التقدير أتوجه إلى البروفسير إحسان عباس الأستاذ بالجامعة الأميركية ببيروت الذي تفضل مشكورا ، رغم كل مشاغله ، فقام بمراجعة هذا البحث فصحيح وقويم ما أعرج من قواعد اللغة .

لهؤلاء العلماء الاجلاء ولكل من قدم لي مساعدة مكنتني من إعداد هذا البحث عظيم شكري وفائق إمتناني .

« المؤلف »

رموز المصادر

الطريقة التي إتبعناها في الهوامش بالنسبة للمصادر كثيرة التكرار هي طريقة المصادر المختصر : وقد أثبت أدناه المصدر بالكامل مع إختصاره المستعمل .

وإخترت لإسم المؤلف ، ليرمز إلى المصدر بإستثناء حالات ثلاث :

أ - المصادر التي اشتهرت بعنوانيها أكثر من أسماء مؤلفيها ، أثرت الرمز إليها بالأولى كما هو الحال بالنسبة للفيوضات الوهبية لصاحب الخلافة المصطفية .

ب - في حالة الاستفادة من أكثر من مصدر واحد لنفس المؤلف إضطررت إلى الرمز إليها بعنوانيها كما هو الحال في منشورات المهدي .

ج - أثرت عدم تطبيق القاعدة (ب) على مؤلفات محمد نصحي باشا . فقد اشتهر تقرير مجلس الضباط باسمه فرمزت به إليه وأبقيت عنوان تقرير شندي « جورنال الحوادث » كما هو .

ابراهيم البورديني

حصار الخرطوم وسقوطه

أبراهيم البورديني

ابراهيم فوزي

السودان بين يدي كشنر وغوردون

أبراهيم فوزي

أحمد العوام

نصيحة العوام للخاص والعام

أحمد العوام

اسماعيل بن عبد القادر

سعادة المستهدي في سيرة الإمام المهدي

إسماعيل بن عبد القادر

بابكر بدرى

تاريخ حياتي

بابكر بدرى

عبد الرحمن النجومي
مخطوط النجومي
عوض الكريم على المسلمي
الفيوضات الوهبية لصاحب الخلافة المصطفية
محمد المهدي المنتظر
محمد أحمد المهدي

— منشورات الإمام المهدي الجزء الأول
— منشورات الإمام المهدي الجزء الثاني
— الأحكام والآداب

محمد خالد زقل

مخطوط محمد خالد زقل

محمد عبد الرحيم

النداء في دفع الإفتاء

محمد فصحي باشا

جورنال الحوادث

نعم شقير

جغرافية السودان وتاريخه

يوسف ميخائيل

تاريخ حياتي

Cuzzi, G., 15 Years Prisoner of the False Prophet Cuzzi

Gordon, C. G., Journals of Gordon, At Khartoum, Journals of Gordon

Nushi Pasha, & Native Officers, Life of Gordon Pasha, in Khartoum
Nushi Pasha.

Ohrawlder, J. Ten Years Captivity Ohrawlder in the Mahdist Camp
1882-1892.

Slatin, R., Fire and Sword in the Sudan,
Sudan Notes and Records

Slatin

SNR

Dictionary of National Biographies

DNB

الملاحق

أ	عبد القادر إبراهيم إلى غوردون ١٨ ذو القعدة ١٣٠١
أ	غوردون إلى عبد القادر إبراهيم (بلا تاريخ)
ب	عبد لقادر إبراهيم إلى غوردون ٣٠ ذو القعدة ١٣٠١
ب	غوردون إلى عبد القادر إبراهيم ٣٠ ذو القعدة ١٣٠١
ج	عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور إلى غوردون ٢١ ذو القعدة ١٣٠١
ج	غوردون إلى عبد الرحمن النجومي ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١
د	عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور إلى غوردون ٢ ذو الحجة ١٣٠١
د	غوردون إلى عبد الرحمن النجومي ٢ ذو الحجة ١٣٠١
هـ	عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور إلى غوردون (بلا تاريخ)
و	المهدي إلى غوردون ٢ محرم ١٣٠٢
ز	عبد الله محمد جباره إلى غوردون

أحمد المصطفى الأمين إلى أدك خشم الموس

١٩ ذو القعدة ١٣٠١

أحمد المصطفى الأمين إلى عثمان بك

٢٣ ذو الحجة ١٣٠١

الصديق الطاهر وحامد ولد ادريس الشيب إلى عثمان بك

٢٣ ذو الحجة ١٣٠١

صورة التغراف اصادر من غوردون إلى فرج الله بك

٣ محرم ١٣٠٢

صورة جواب من العلماء إلى شيخ عبد القادر وولد النجومى

٢٣ ذو القعدة ١٣٠١

خريطة الخرطوم

قائمة بالاسماء التى وردت خطأ فى بويات غوردون مع تصحيحها

تقييم المصادر الأساسية

كانت الخرطوم في حالة حرب في الفترة ما بين مارس ١٨٨٤ إلى يناير ١٨٨٥ : ولقد فقد كان لا بد أن تتعرض بعض الوثائق التي تعالج تلك الفترة سواء كن من جانب المحاصرين أو المحاصرين إلى الضياع غير المتعمد أو الإلتلاف المقصود . كان غوردون (C. G. Gordon) يواظب على إرسال تقاريره إلى مصر منذ أن وطئت قدمه أرض السودان ، إلا أن الأنصار لم يجهلوه طويلاً ، فقد قامت مجموعته منهم برع أعمدة سلك التلغراف وقطعت نائلي أنجع وسائله في الإتصال بمصر (١) إستعان بعد ذلك بالجواسيس ولعن قليلاً من . سائله التي بعثها عبر هذا الطريق قد وصلت إلى وجهتها ولا بد أن كثيراً منها قد تعرض للضياع . بالإضافة إلى هذا هناك مجموعة من الوثائق ذات قيمة تاريخية من الدرجة الأولى ، تلك هي الرسائل التي حملها ستيوارت (J.D.H. Stewart) معه عند مغادرته الخرطوم في ٩ سبتمبر ١٨٨٤ وقد شملت هذه مجموعة من رسائل وجهها غوردون إلى الجندي

(١) غوردون بشاء شارس جورج (١٨٢٢ - ١٨٨٥) اسكتلندي ، انضم إلى المهتمين بالملكين (Koya. Engineers) في عام ١٨٥٢ وفي عام ١٨٦٠ غادر بلاده ليشارك في حرب (القرم Crimea) وعند انتهائها أوفد الصين حيث قام بسور بارز في القضاء على ثورة (Tai-Ping) التي دشت هناك ما بين ١٨٦٣ - ٥٤ . مات مئته بالسودان حينما قابله بوياو باندا يونغوس في انقسطنطينيه وقبل عرساً منه بالانضمام في خدمة الجندي كحاكم للمدوية الإستوائية ، وقد عمل أثناء ولايته تلك بشاغل لتوسيع رقعة الأراضي المصرية كما أنشأ عدة محطات على النيل الأبيض في محاولة لإيقاف تجارة الرقيق استثنى من منصبه عام ١٨٧٦ إلا أنه عاد مرة أخرى في ١٨٧٧ كحاكم عام للسودان وقد اشتهر خلال هذه الفترة بكثرة تجواله في أنحاء متفرقة من البلاد . ثم أنهى خدمته عام ١٨٨٠ أثر اقالة الجندي اسماعيل بيك في عدة مناطق من آسيا وأفريق

عدم باشورة امهده أثناء وجوده في زيارة خاصة لفلسطين وعند عودته لبلاده قبل عرساً تقبعت به الحكومة الإنجليزية ليوم مهمة رسمية في السودان

Lord Elton, General, Gordon, pp. 13-39 E. Allen, Gordon And The Sudan pp 1-170

ويرنج (E Baring) (١) عن الحالة في المدينة . وبومبيات ستورت
التي بدأ في تسجيلها منذ أول أيام وصوله . ومن المرجح أن تكون هذه
الوثائق هي ضمن الأوراق التي أحدها جماعة سليمان نعمان ود قمر من
البحيرة « العباس » وأرسلوها إلى دبر حيث تم نقلها إلى المهدي وكاد في
ذلك البحر قد وصل إلى مشارف الخرطوم . كانت فكرة المهدي في بادئ
الأمر هي إرجاع الرسائل بكمها إلى غوردون إلا أنه عدل عن هذا وكتب
إليه رسالة مطولة ضمنها مقتطفات من المكاتبات التي وقعت في يديه بهدف
تأكيد الواقعة لغوردون . وجاء في خطاب المهدي إشارة إلى رسائل بالغة
الإنجليزية توضح « كمية حصار الخرطوم و كمية صناعة الواحورات ومقدار
مها من أسلحة ودلاء سلاح والمذابح وعن الحركات العسكرية وانهزام
جماعتكم وطسكم الإسعاف بالأمدادية وبو نفرة (٢) » ولعل هذه
هي مذكرات ستورت . وسواء ضاعت تلك الرسائل عند سقوط المدينة
أو فيما بعد أو أن المهدي قام بإعدامها في وقت إستلامها خشية تسريبها بوسيلة
ما لسفارج فهو أمر يقع في دائرة التكهنات حتى اللحظة .

هناك أيضا مذكرات مفقودة « تحصى دكتور نكولا الاغريقى » الذي عيه
غوردون إثر وصوله لخرطوم مفتشاً صيلاً ، وبقي هناك حتى سقوط المدينة
وربما ضاعت مذكرته تلك فيما بعد .

(١) بيرنج ، أنير . نورد كرومر لأول (٨٤ ١٩١٧) 1st Earl of Cromer
تخرج عام ١٨٥٥ من مدرسة دولويك البحرية وشغل أول منصب له في جزر ايوليا
(Ionian Islands) بدأ عمله الدبلوماسي في كورفو (Corfu) وفي عام ١٨٧٢ رافق
نورث بروك (Northbrook) إلى الهند كسكرتير خاص له . وفي عام ١٨٧٧ عين
نظراً لبريطانيا في (Caissa de la Delta) وبعد الاحتلال البريطاني لمصر أوكلت له
مهمة « جهاز الإصلاح الساحل في سبتمبر ١٨٨٢ وأصبح منذ ذلك الحين المسئول الفعلي
عن السياسة المصرية فقد يدير رئيس في معالجة مشكلة السودان بعد هزيمة مكسي
بك في نوفمبر ١٨٨٣ شغل منصب مشرب بريطانيا في مصر حتى عام ١٩٠٧ .
Cromer, Modern Egypt

(٢) المهدي إلى غوردون ٢ محرم ١٣٠٢ .

أما المصادر المعروفة حالياً فهي أسما تقارير ورسائل لأفراد الذين حاصروا تلك الأحداث وماتى فى مقدمة هؤلاء غوردون والمهدى . فمن ناحية المحاصرين هناك التقارير الرسمية وشبه الرسمية التى بعث بها كل من غوردون وسيبورت إلى بيرنج قبل إنقطاع خط التلغراف . بالإضافة إلى رسائل ف بور (F. Power) التى نشرتها صحيفة « التايمز » للمدينة . ورغم أن هذه تعتبر مصدراً أساسياً فى كشف وجهة النظر الرسمية ، إلا أنها تشمل فترة أقل من شهرين ، وهى لفترة لى لم يكن الحصار قد بوشر نجاحاً بصورة فعيلة

أما بالنسبة للحقبة لى أعقبت إنقطاع الخط التلغرافى . فمصادرنا هى معلومات مستفادة من التقارير التى كتبها الأشخاص الذين عاشو فى المدينة أثناء الحصار . وتختلف هذه التقارير عن بعضها البعض فى عدة نواح من حيث الحجم والزمن الذى سجلت فيه ، ومكانة الكاتب ودوره فى الأحداث ، ففى حين جاءت يوميات غوردون مثلاً فى محلد من ستة أجزاء إقتصرت على فادات لجنود والمدنيين على بضعة أسطر .

ورغم أن هذه المجموعة الأخيرة تحوى معلومات ذات قيمة تاريخية إلا أنها تعاني من عدة نقائص ، فهى شديدة الإختصار . جاء معظمها رداً على إستشمار بعينه أو حادثة محددة بالإضافة إلى أنها بلا إستشاء قد كتبت من لذاكرة فقط بعد سنوات من الحصار .

وسأحاول فى الصفحات التالية إلقاء مزيد من الضوء على تلك التقارير وبعض المصادر الأخرى لى عالجت الفترة قيد البحث .

١- يوميات غوردون :

بدأ غوردون فى تسجيلها فى ١٠ سبتمبر ١٨٨٤ أى بعد مغادرة سبورت مباشرة - وأنتهى منها فى ١٤ ديسمبر من نفس العام .

وتعتبر اليوميات مصدرا أساسيا لتوثيق هذه الفترة، إذ أن مؤلفها هو الرجل الذي كان يجلس على قمة جهاز المسؤولية في الخرطوم . ولقد سجل الأحداث المدنية اليومية طوال فترة ثلاثة أشهر ، فجاءت إنطباعاته وخواطره بمثابة الرأي الرسمي . كما أن بعض الرسائل التي ألحقها باليوميات تكشف لنا عن عدة جوانب للحصار، وهي في ذات الوقت النسخ الوحيدة التي وجدت حتى الآن .

إنه عورثون أثناء تسجيل اليوميات إتجاهين ، فهو يدون الأحداث اليومية المتعلقة بالأسعادات العسكرية . والأمور المالية والإدارية ، وموقف النعميين، ونشاط الأهالي ويشمل من ناحية أخرى ، خواطر وآراء متعلقة بالسياسة العامة فهو يتعرض لتطور الأحداث في البلاد منذ مجيئه وبمبدأ الصفحات بنقد مركز لسياسة كل من مصر وبريطانيا . وقد شغلت حملة الإنقاذ جزءا كبيرا من تفكيره ، فأسهب في تقديم لمقترحات عما يجب عليها تنفيذه . ولا بد للمراء أن يلاحظ أن هذا الاتجاه قد تغلب على الاتجاه الأول وجاء ذكره لأحداث المدينة عذرا متقطعا .

ولعن الهاريء يجد له عدرا فقد كان يعيش فترة حرجية تأكد له خلالها أن حصار الخرطوم بواسطة جموع الأنصار قد أصبح حقيقة واقعة ، وجاء فشل مهمة ستيورت بقطع أمله الأخير في الإتصال بالخارج . ولقد اكتشف في أكتوبر أن مجموعة من أعيان المدينة ومن أعوانه كانت تنص سرا بالمهدى وتقدم له العون المادي والمعنوي . هذا في الوقت الذي اشتدت فيه وطأة أزمة الغذاء . كما شهدت تلك الفترة أعنف المعارك ضد الأنصار فقد فيها خيرة رجاله . لم يكن غورثون يرى في هذا الجو الخائف مخرجا سوى عون عسكري من الخارج ، ومن ثم فقد أسهب في شرح أهمية هذا العون مضمنا التفاصيل عن قوته ، وطريق التي يجب سلكها ، على أمل أن تصل هذه المعلومات إلى السلطات ، فيعجلوا بالتنفيذ . ولا بد أن تكون هذه التفاصيل ذات قيمة

حقيقية لمراسلة حوث نب أخرى من تاريخ تلك الحقبة . إلا أنها لا تفيد كثيراً
في محاولة البحث عن حقيقة اوضع داخل الخرطوم خلال فترة الحصار
اليوميات لا تتحدث كثيراً عن مشاكل غوردون الإدارية ، والعسكرية
والغذائية ، بل أنها تجميع منها خصوصاً عريضة وغذائية من مصادر أخرى .

تعالى اليوميات أيضاً من ضعف آخر ، فهي لا تتناول إلا أحداث
ثلاثة أشهر فقط من العشرة أشهر التي قضتها المدينة تحت الحصار ، وبما أن
سجاليها قد بدأ بعد ستة أشهر من وضع الحصار فهي تشير إلى قضايا لا يحد
لقارئ نفسه ملماً تمام بجورها وبدايتها . ولعل طبيعة تسجيل اليوميات لا
تساعد كاتبها في التعرض لمشأ لقضية . قبل الحوض في تطورها كما
هي الحال في كدبة استفاير . يوميات غوردون هي في الواقع حو طر
ومقارحات ومجموعة أفكار تحتل مركز أوليا في دراسة شخصية له ولكنها
لا تمش بالنسبة لموضوع قيد البحث مصدراً غنيا بالمعلومات ، التي يمكن أن
تبني عليها دراسة شاملة .

قام أجمونت هيك (Egmont Hake) بنشر اليوميات دون أن يتعرض
لمحورياتها بالتحقيق أو التصحيح إلا في حالات الأخطاء الإملائية . كتب
غوردون بعض أسماء الأعلام وأسماء الأماكن بطريقة غير مألوفة جعلت
ما ترمز إليه خاضع في أغلب الأحيان لتكهنات القارئ .

ولقد ضاعف هيك هذه مشكلة بتقله بعض الأسماء بطريقة مغايرة
لتلك التي ظهرت بها في اليوميات . وليس هذا بالأمر لشاد ، فقد كان كل من
المؤلف والمناشر عريبير عن عام الأسماء العربية بصفة عامة والسودانية بصفة
خاصة . ورغم زيرت غوردون المتكررة للسودان فلم يكن من السهل عليه
التمكن من اللفظ لصحيح للأسماء فدرج على كتابتها كما ينطقها . وهو
محق في هذا فلم تزل كتابة الأسماء العربية بعدت أخرى مشكله حتى
اليوم بعد مضي أكثر من نصف قرن من الزمان . أما أسماء الأماكن فقد

كانت ولم تزل نخاضعة لكثير من المعالطات بين الباحثين وبعض *Sudai* (*Gazetteer*) بواسطة مصلحة المساحة السودانية يساعد في إيجاد صيغة موحدة لكتابة هذه الأسماء .

ولقد قمت بمحاولة لتصحيح بعض لأسماء التي وردت في اليوميات ونشرت كما هي ، وتلث لأسماء التي ظهرت صحيحة في الأصل ونشرت محرقة . (ملحق ن) .

إخراج إلكتروني / ابوبكر خيرى

الرسائل المتبادلة بين غوردون وأمرء المهدي

وجدت مع يوميات غوردون مجموعة من الرسائل التي تبودلت بينه وبين أمرء المهدي أثناء فترة الحصار . ولقد أورد الناشر توجمة لبعض هذه الرسائل سأحاول في الصفحات التالية إثارة نقاط معينة بصدد ما والتعرض لبعض أجزائها

تتكون المجموعة من خطين من الشيخ عبد القادر إبراهيم (١) وثلاثة خطابات من عبد الرحمن السجومي وعبد الله نور (٢) . وخطاب من عبد الله ود جباره (٣) وخطاب من المهدي (٤) . وبلاحظ أن هذا هو الخطاب الوحيد من جملة خطابات المهدي لدى أرفقه غوردون مع اليوميات . ورغم أن بعض المصادر تشير إلى أنه تسلم خطابا بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٨٨٤ أي قبل أن ينتهي من كتابه اليوميات في ١٤ ديسمبر ، ولكنه لم يعثر عليه ضمن ملاحظته . هناك أيضا نسخة من رسالة العلماء التي بعث بها الشيخ عبد القادر إبراهيم وعبد الرحمن السجومي (٥) . وثلاثة خطابات من أمرء مهديين إلى قادة غوردون (٦) أما ردود غوردون فهي تشتمل على خطابين بعد القادر إبراهيم (٧) وخصيين لعبد الرحمن السجومي (٨) . وهناك أيضا نسخة من رساله برقية بعث بها غوردون إلى فرج الله بك قومندان طيبة أم درمان بتاريخ ٣ محرم ١٣٠٢ ، ٢٤ أكتوبر ١٨٨٤ (٩) .

(١) ملحق أ ب .

(٢) ملحق ج - د - هـ .

(٣) ملحق و .

(٤) ملحق ز .

(٥) ملحق ح .

(٦) ملحق ح - د - هـ - ي .

(٧) ملحق أ ب .

(٨) ملحق ج - د .

(٩) ملحق ك .

يحمل أول خطاب وصل غوردون من الأمراء تاريخ ١٨ ذو القعدة ١٣١١ هـ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) (١) ولم يتبين بعد بصورة قطعية ما إذا كان غوردون قد تسلم رسائل قبل هذه التاريخ، إلا أنه من الأرجح أن يكون هذا قد حدث . فنصحني باشا يقرر أن كلا من العباس العبيد والنور إبراهيم لجرى شأوى، وأنكى مضوى، قد بعثوا برسائل لغوردون قبل آخر مارس، كما أن الشيخ العبيد ود ندر قد بعث له بخطاب، وقد رد عليها جميعاً . وقد ذكر أكثر من مصدر أن محمد عثمان أبى فرجة قد كتب رسالة لغوردون حال وصوله خارج بوابات المدينة . ولأن هذه المجموعة قد وصله قبل أن يبدأ في تسجيل يومياته أى قبل مغادرة ستيرت للخرطوم فعنه قد أرفقها مع يوميات هذا الأخير كما اعتاد أن يفعل، ولا بد أنها فقدت بالمالى معها .

وم يعطى الناشر ترجمة حرفية لكل المجموعة، بل تردد بين الترجمة لكاملة لبعضها ولتختيصر لبعض آخر وإسقاط فئة ثالثة، ولم تأت الترجمة هي كن الحالات سليمة ، بل هناك عدة أمثلة لتعيرات سنحذت فى اللفظ أو المعنى . كما أن هناك حالات معينة تم فيها حذف أجزاء ذات أهمية

حاء فى أول رسالة من الشيخ عبدالقادر إى غوردون قوله : « لكن ثبوت حقيقة هذا الإمام المهيمى المنتظر عليه السلام عندما من إبتلى ظهوره منع لنا من قول مكاتكم والعودة اليكم » . وقد أورد المترجم العبارة الختامية بتعنى « الرد على خطاباتكم » (٢) ولا بد أن تحدث مش هذه الترجمة بعض البلبلة . فقد أثبت الوثائق المعروفة أن الشيخ عبدالقادر قد بعث بخطابات أخرى لغوردون فيما بعد، وهو يعنى بعبارة « العودة اليكم » أنه لن يعود الإقامة مرة أخرى فى الخرطوم حيث كان عند وصول غوردون إليها

(١) ملحقاً .

Journals of Gordon, pp. 279-81.

(٢)

درج المترجم أبيض على استعمال كلمة « المرادويش » (١) على لسان الشيخ عبد القادر في حين أن هذا التعبير لم يظهر في أية رسالة منه ، بل كان يدعوهم : « فقراء الأنصار » ولعل المترجم كان متأثراً بحدث التفتظ الشائع الذي كان يطلق على أتباع المهدي ، وكثير تداوله للرجح أن المهدي أصدر منشوراً يحرم فيه استعماله .

لم يترجم المترجم أيضاً الدقة في نقل الأسماء كما وردت في الأصل ، فهو يقول عبد القادر إبراهيم مرة وإبراهيم عبد القادر مرة أخرى (٢) .

جاءت نسخة العربية لرد غوردون على هذه رسالة ردئية اسخط . ضعيفة لأسلوب وبلا تاريخ (٣) ولقد وردت في ختامها العبارة التالية « وإذا كان . . . محمد أحمد المهدي فلماذا يفضل بعد الآن بالابيض من اللارم أن . . . كافة البلاد » . الإشارة هنا واضحة إلى مدينة الأبيض ولكن المترجم يقول إن لكاتب يعنى الليل الأبيض (٤) .

أما رد غوردون الثاني فهو يختلف عن سالفه من حيث الخط ولأسلوب ولا بد أنه قد حرر بواسطة كاتب آخر ، فجاء مقروء ومؤرجحاً ٣٠ ذو القعدة ١٣٠١ هـ (٢١ سبتمبر ١٨٨٤) (٥) ورد في النسخة العربية قوله « . . . فاحبروا وعد النجومى وأبو قرجة بأنهم يتوجهوا لكردفان وفيما بعد عند عمن توقييات نجعلهم سلاطين » وصح المترجم كلمة دنقلا مكان كردفان (٦) وهذا تغيير لم أجده له ما يبرره .

فقد كان غوردون يعنى كردفان وقد أشار إلى هذا الموضوع عند الرحمن النجومى وعبد الله النور في رسالة غوردون بالقول « . . . تله كرهوا

(١) Ibid 279 - 81.

(٢) Ibid, pp. 279-81, pp. 298-9 pp.299-391

(٣) غوردون إلى الشيخ عبد القادر ، مسج أ .

(٤) Journals of Gordon, pp. 281-2. . .

(٥) غوردون إلى الشيخ عبد القادر ملحق « ب » .

(٦) Journals of Gordon pp. 298-9.

له أنه يخبرنا نحن وأبو قريظة فتوجه لدار لغرب أولاً لما وعد عمل ترتيبات
تجعلونا سلاطين « (١)

حذف المرحوم من تلك الرسالة فقرة ذات أهمية فهي تكشف لنا أن
غوردون كان يحاول استعماله الشيخ عبدالقادر بكافة الوسائل؛ بعث له بهدية
أشار إليها بقوله « .. وأما أعرف أنه يزم بكم صابون لغسل و خهكم
فها هو مرس لكم صندوق صبر من عسيل وجهت » .

حسن أول خطاب من عبد الرحمن النجدي وعبد الله النور تاريخ
٢١ ذو القعدة ١٣٠١ هـ (١٣ سبتمبر ١٨٨٤) حذف المرحوم فقرة قد تساعد
في إحياء الحقيقة حول عدد الرسائل التي بعث بها غوردون إلى المهدي، فحتى
الآن لدينا نسخة من رسالة واحدة هي تلك المؤرخة ١٢ ربيع ثلث ١٣٠١ هـ
(١٠ فبراير ١٨٨٤) إلا أن بعض المصادر أشارت إلى أنه قد كتب رسائل
أخرى وأورد بعضها نصراً لتلك الشخصيات .

يقول الأميران في خطابهما « .. وحيث أنك أولاً بحال حضورك
بالخرطوم قد كاتبك الإمام المهدي عليه السلام بالتسليم لأمر الله ورسوله
وأعلمك بالحقيقة التي لا كذب فيها وأوعلك بعد هذا أن لم تسلم لأمر الله
ورسوله فإن حرب الله وأصل إليث ومزمل لك عما شذرت به خالقك
فاستدعيت ملك عباده مع أن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده الصالحين
ومع ذلك رددت لسيده رداً غير المقصود والمفهوم منه عدم الامتثال والإنقياد
لما أمرك به « (٢)

فهل تعني الإشارة هـ أن غوردون قد بعث للمهدي رسالة بعد أن
استلم رد المهدي على خطابه الأول ؟ .

لقد أورد نصيهاً ناشراً رسالة نقلها عنه نعيم شفير ولأنها مؤرخة ١٩

(١) عبد الرحمن النجدي ، عبد الله النور إلى غوردون يث منقح د .

(٢) عبد الرحمن النجدي ، عبد الله النور إلى غوردون يث ، ملحق ج .

نو فمبر ، فلا بد أن إشارة الأميرين هـ لخطاب آخر (١) ولعله ذلك الذي بعث به العلماء بالمهلى فهما يقولان في نفس المصدر « وخصيت سيد الجميع عليه السلام بعدم الامتثال مستدلاً بآيات قرآنية وأحاديث نبوية عن لسان كتابك وعلماؤك الصالحون » .

حسن رد غوردون إلى النجومى بتاريخ ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ هـ ، (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) . وقد حذف المترجم أجزاء طامدلو في الكشف عن دطوة غوردون واستخفافه بالمهلى . فهو يكتب « أما من جهة المدافع والصورايح الذى تريدوا ضربت بهم فمع أنه موجود عندنا مثاهم كثير كنا نقرأ فى الجوابات أن المهلى يهك بدون مدافع ولاصورايح فما هى الحقيقة » كما حذف فقرة أخرى تعكس مسألة غوردون فى مقدرة الساتية وعدم تفسيره لصحيح لأهمية التأييد الذى يسبغه عليه سكان المدينة ، فهو يقول « .. وكذلك لأهلى والعلماء الذين تقولوا إنهم مظاهرين معنا وباطنهم معكم ويوم ما يحصل القتال يتركونا ويهربوا عندكم فانا ليس حازمهم بطرفنا ولا ساهرهم من التوجه لطرفكم فتوجههم وعدمه على حد سوى ولماذا م يتوجهوا لمقابلتكم » (٢) .

وقد أرسل غوردون خطانا آخر لعبد الرحمن النجومى بتاريخ ٢ ذو الحجة ١٣٠١ هـ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) وتعاقب مع خطاب النجومى الذى يحسن نفس لتاريخ (٣) . أغفل المترجم الجزء الأول من هذه الرسالة رغم أهميتها فى تصوير أساليب غوردون لإرهاب حصنه وعطائه معلومات مبالغ فيها عن قوة حملة الإغناذ وعن معارك لم تحدث على الإطلاق أعقبها إحصارات وهمية . فهو يصف الحملة « .. للذين وصو من حبوش الأنجليز لجهة

(١) *Nasbi Pasha*, p. 182.

(٢) غوردون إلى عبد الرحمن النجومى ملحق د .

(٣) غوردون إلى عبد الرحمن النجومى ملحق د .

عبد الرحمن النجومى وعبدالله التور إلى غوردون باشا ملحق د

مروى عشرة آيات بيده وحياة وطوبجية والباقي خلفهم فى دنقلا وو دى
 حلقا وأن مدير دنقلا أجرى قتل الفكى الهسى و لشريف محمود .. وصار
 قطع حيوشهم عن آخرهم ومن إحصارية أخرى حضرت لى من مخصوص من
 جهة بربر تأن وابوراتا دخلوها ومستطرين حضور لىسكرة ..» (١).

أما خطابات الأمراء ، فهى تشتمل على خطاب من الصديق الطاهر ،
 وحمد ، ولد ادريس لشايب إلى عثمان بك فثم مقام صديقة أم دريس (٢) وخطبين
 من أحمد المصطفى الأمين ، أحدهما إلى عثمان بك ، والآخر لىخشم الموصى (٣)
 لم يرد عن غوردون أى مسح بلود على هذه الرسالة مع ليوميات ، ويبدو أن
 عدته لم يبعثوا بلود كما هو واضح من خطاب أحمد المصطفى ، فهو بعد طيبهم
 : أيها الأحباب لقد طال دعواكم إلى الله ورسوله ومهديه عليه السلام بلا
 أجوبة فلم كن تحضروا ولا ترسلوا لنا رسال من طرفكم كما طلبنا منكم
 ذلك » (٤) .

حمل خطاب الصديق الطاهر وحمد ولد ادريس لشايب قاريح ٢٢ ذى
 الحجة ١٣٠١ هـ (٥ أكتوبر ١٨٨٤) . أعطى المرحم ملخصا لهذه الرسالة
 ولكنه نقل اسم الصديق الطاهر « السيد الطاهر » (٥) . كذلك حمل خطاب
 أحمد المصطفى لىعثمان بك نفس التاريخ . فسر المرحم الإشارة إلى ابىاخرة
 انى حملت ستبورت لىغنى باخرة باسم « خرطومية » (٦) ولكن لم تكن بين
 أسهوى غوردون باخرة تحمل هذا الاسم . وعندما يقول الكاتب إن « ابوايور
 الخرطومية قبضت والفقرا أهلکوا من فيها » فلا بد أن يعنى الباخرة « نعباس ».

(١) غوردون إلى عبد الرحمن النجوى مطبق د

(٢) الصديق الطاهر : حمد ولد ادريس لشايب إلى عثمان بك ، ملحق بى

(٣) أحمد المصطفى إلى عثمان بك ، ملحق ج .

أحمد المصطفى إلى خشم الموصى ، مطبق ط

(٤) أحمد المصطفى إلى عثمان بك مطبق ج .

Journals of Gordon pp. 311-2. (٥)

Ibid, pp. 3.3-4. (٦)

في رمضان ١٣٠٣ (يونيو ١٨٨٦) وضع مجلس من العسكريين والمدنيين برئاسة محمد نصحي باشا تقريرا باللغة العربية عن حصار الخرطوم، منذ وصول غوردون إليها وحتى سقوطها تحت عنوان « حياة غوردون باشا في الخرطوم » (١) . إقتصرت عضوية المجلس على كل من السيد أمين أفندي الذي كان أثناء الحصار قائدا للفرقة الرابعة، وسجل مركزا من حط النار غرب دوانة الكلاكة ، وحسن أفندي عبد الله وكيل المديرية ، ومرزوق أفندي رزق ، وعبد القادر بك حسن ، وميخائيل أفندي داود . بيست هناك معلومات مؤكدة عما اذا كان هؤلاء قد أقاموا في الخرطوم طوال مدة الحصار ، وإلى أن سقطت المدينة ، ولكن يلاحظ أن أعضاء المجلس باستثناء نصحي باشا ومرزوق أفندي رزق قد قدموا شهود في محاكمة حسن بك هتساوي التي انعقدت في القاهرة (٢) .

ولا بد أنهم قد عاصروا لحصار وشهدوا السقوط . إلا أن نصحي باشا لم يكن هناك ، إذ غادر المدينة إلى شندي في ٣٠ سبتمبر ١٨٨٤ ، ولم يعد إليها مرة أخرى

(١) محمد نصحي باشا (١٨٢٨ - ١٩٠٣) تركي لاهن ، درس العلوم العسكرية في برلين ، وشترك في الحرب الروسية - التركية ٨٧٧ - ٠٨ ذهب إلى السودان وشهد اندلاع الثورة المهدية وساهم في حصار الخرطوم ، إلا أنه غادر المدينة بآخر سبتمبر ليقيم في الإسكندرية المكلف بانتظار حملة الإنقاذ في شندي . بعد سقوط الخرطوم ، جمع مع الحصة إلى مصر وفي نفس العام تمت ترقية إلى قوة بواء ، ولكنه تقاعد بعد ذلك بقليل .

H.I.I, *Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan* p. 241

(٢) كين حسن بك بهتساوي أثناء الحصار مسئول عن خط الدفاع لمتد من النيل لالبحر وحتى دوانة الكلاكة . ولقد نهم عند رجوعه إلى القاهرة بتبوه في صد هجوم الأنصار حشيه ٢٦ يناير ١٨٨٥ . عملت به محكمة عسكرية في أبريل ٨٨٧ وبعد الاستماع إلى عدد من الشهود قررت تبرأته .

Wingate, *Mahdism and the Egyptian Sudan*, pp 556-90.

ولم يذكر المؤلفون صراحة إذا كان تقريرهم قد كتب من الذاكرة أم أنهم استعانوا ببعض الوثائق التي سجلت أثناء الحصار .

من المرجح أن يكون نصحي باشا قد احتفظ بمثل هذه التسجيلات ، إذ أنه ترك لنا يوميات شاملة عرفت بـ « حور نال المحوادث » سجل فيها وقائع لفترة التي قصدها في شندي . ولعله قد فعل ذات الشيء أثناء وجوده في الخرطوم .

ويبدو أن التقرير قد كتب بمبادرة من الضباط أنفسهم في محاولة لتسجيل أحداث تلك الفترة من وجهة نظرهم . ولقد قام نعوم شقير بترجمته للإنجليزية . وإعتمد عليه في تأليف الجزء الخاص بحصار الخرطوم في كتابه « جغرافية وتاريخ السودان » . ولأن كل الذين تعرضوا لمعالجة تلك الفترة إعتمدوا في الأساس على نعوم شقير يبقى هذا التقرير المصدر الذي أعطى حصار الخرطوم صورته المعروفة حتى الآن في التاريخ .

كان ونحت على علم بوجود التقرير ، إلا أن محاولاته في الحصول عليه قبل إنجار كتابه (*Malidism and The Egyptian Sudan*) لم تنجح ، ولكنه علم فيما بعد أن الحديوي يحتفظ به في مكتبته الخاصة ، فاستأنده في الإطلاع عليه ، وقدم مخصصاً له في (*SNR XIII, 1930*) . وإعتمد ونحت هنا على ترجمة نعوم شقير وشرها كما هي ، اللهم إلا تعديلات طفيفة في الأسلوب وحذف بعض الفقرات التي رأى أنها ليست على أي قدر من الأهمية .

ويعتبر لتقرير الوثيقة الوحيدة المعروفة حتى الآن التي تعالج حصار الخرطوم منذ بدايته إلى نهايته وبصورة تفصيلية .

فهو يقع في حوالي ٢٨٠ صفحة فلسكاب كتبت بخط اليد . وقد ركز على الأحداث اليومية دون أن يسجل أي إنطباعات أو آراء سياسية . ولعل هذه هي ميرته الرئيسية على يوميات غوردون . فمما التقرير بمعلومات عن موضوعات شتى . متجهة لتذكير سكان المدينة وتعاونهم مع غوردون

وإستحابتهم لأجراءته وعلاقتهم بالأنصار . وأعطى تفصايل عن الأمور المالية، والإدارية، والعسكرية . ونطرق إلى مشكلة الغذاء ودورها في تصعد الأزمة والتعجيل بالسقوط . كشف لنا أيضا عما يتخذ من خطوات في سبيل تنفيذ الإخلاء كما أورد معلومات عن البعثة التي أودعها غوردون لإنتظار حملة الإنقاذ في شندي .

يصمم التقرير أيضا ملخصات لبعض الرسائل المتبادلة بين غوردون والأنصار، وبين هذه الرسائل رسالة من عبد القادر إبراهيم ورد غوردون عيها ، ورسالتان من المهدي ورد غوردون عليهما، ورسالة من علماء المدينة إلى المهدي، ورسالة من أبي قرجة، ورسالتان من اسجومي ورد غوردون عليهما.

وإذا ما قرن القارئ بالمصادر الأخرى ، فإنه قلما يجد تنقضا في الحقائق الأساسية، كما أن إبراهيم لبورديني ، وهو تاجر مصري أقام في الخرطوم ونقى حتى سقوطها ، قد كلف بقراءة التقرير وتسجيل ملاحظاته عليه . ورغم أنه أبدى بعض التحفظات ولكنه قد بصورة عامة

ويلمس القارئ بين سطور تعليق لبورديني أن نصحي باشا قد ألبس نفسه ثوبا أكبر مما يستحق، وأنه لم يكن بأى حال ذاك الرجل الذي صورته المؤلفون . وإذا استعنا بالمصادر الأخرى ثبت بالفعل أن نصحي باشا قد اضطلع أثناء لحصار بعض المهام ذات المسؤولية والأهمية فقداد بعض الحملات العسكرية لاجحة ضد الأنصار .

كما أن بعثته إلى ستار عدت محمية بالأغذية . وأنعم عليه غوردون بنقب الباشوية . ثم عمّد إليه لواء قيادة إسطول شندي .

ولكن يبدو أن تلك الثقة لم تكن مطعنة، وربما كان إرساله لشندي محاولة لإبعاده ، خاصة . أن غوردون سبق أن طلب منه مفادته البلاد مع ايجود المصريين ، كما يلاحظ من يوميات غوردون وجورنال الحوادث أنه درج على محاطة نصحي باشا بلهجة عنيفة طوال مدة نقائه في شندي .

بالإضافة إلى هذا فقد . فع توصية عن طريق يومياته لقائد حملة الإنقاذ طابا
منه نالا يعود بأي من « الحدود البيضاء » المتمركزين في إسطول شدي
مرة أخرى للخرطوم . ومن ثم لا بد أن يمثل القاريء
إلى الاعتقاد بأن نصحي باشا قد جنح إلى المبالغة في تصوير نشاطه أثناء
الحصار . ولعله كان يهدف من وراء ذلك للحصول على أكبر قدر من
الإنعامات المادية والمعنوية من الحكومة المصرية .

ومن ناحية أخرى . علينا أن تأخذ بعين الاعتبار ، إذ لا يبدو
أنه نخل من الغرض . فقد كتب هو تقريراً مفصلاً وصور نفسه تاحراً
شار إليه بالبيان ، وساعد غوردون الأيم الذي كثيراً ما أقمه من الأزمات
المالية والإدارية . إلا أن مؤلفي التقرير تجاهروا تماماً ولم يذكروا اسمه إلا في
مناسبتين لم يكن الحديث فيهما من مصلحته . وكانت المناسبة الأولى تتعلق
بعادة الناحر الإعرابي الذي يحدث مخبراً ماصفة مع البورديني . وقد أتهم هذا
التاجر بإخفاء للرة حتى يتمكن من بيعها بسعر عال عند اشتداد الحصار .
ورغم أن الاتهام لم يوجه للبورديني إلا أن الإشارة كانت كافية لإثارة شك
حول شخصه . أما المناسبة الثانية فتشير إلى أن البورديني كان يدل أحماً
سليحان عند سقوط المدينة على الجميلات من النساء ولأثرياء من الأهالي .
وقد أنكر البورديني التهمة الأولى ولكنه اعترف بالثانية وبررها بأنها كانت
ضرورة لحماية أمواله الخاصة . ولعل مستماتة لبورديني في الدفاع عن
نفسه هنا كانت مرتبطة بخشيته من أن يتهم بالتعاون مع الأتصار ، وتتغير
عليه بالتالي إسترداد أي مبالغ محتمل أن يكون قد أقترضها لغوردون مقابل
أوراق البون أثناء الحصار . فرمما جاء إذن تشككه في الدور الذي لعبه
نصحي باشا كرد فعل لتجاهل المؤلفين له .

ولقد أورد التقرير ترجمة خطابين بعث بهما غوردون إلى المهدي
أولهما بعث به بعد إستلامه لرد المهدي على خطابه لأول ، والثاني أرسله له بعد

وصوله إلى أم درمان (١) ولم تذكر أي مصدر أخرى شيء عن هذه الحطافات سوى نعوم شقير (٢) وقد حزم البورديني أن عوردون لم يبعث للمهدي سوى رسالة واحدة تلك التي تحمل تاريخ ١٠ فبراير ١٨٨٤ .

نقل التقرير أيضا ترجمة بخطابات التي بعث بها الأمراء بعوردون ، إلا أن أجراء من هذه تحريف لإخلاقا كبيرا عن الأصل كما يلاحظ ، القاريء هي بعض الحالات وجود هـ رت لم يرد على الإطلاق ، مما يدل على أنهم كانوا يكتبون عن هذه لرسائل من معلومات سماعية ، أو لأنهم قد قرأوها في وقتها ولكنهم نسوا محتوياتها عند كتابة التقرير

وهي ترجمة لحطاب من عبد الرحمن النجومي ذكر المؤلفون على لسانه « أنا أمير أمراء قوات المهدي ، فأنح كردفان وبجل قدير الملقب بالسيف المشهور » (٣) لم ترد هذه العبارة في أي من خطابات النجومي وعن النفرة التي سمع بها المؤلفون هي قوله (إن المهدي) « قد عبنا نحن لعاميين المذكورين بهما وأمدنا برجال ثقات من أصحابه يحبون الموت كحبكم للحياة » (٤) .

ولقد تعرض رد عوردون للتحريف أيضا ، ولعلهم كانوا يسعون إلى تصويره كالبطل انقسام الذي لا يهاب مخاطبة خصمه بلهجة مثل « عليكم أن تتأكدوا أنني بن أمر سيدكم المزييف المهدي إهتماما وسترون عما قرب جيشكم منهارا كما حدث لقوت أبو قرجة ، وجيش ابن عمكم في لحماية فأمسكوا ألسنتكم وكنوا عن هذا الأمر » (٥) .

(١) Nush Pasha, p 74, p. 182.

(٢) نعوم شقير ص ٨٤٧ .

(٣) Nush Pasha, p. 113.

(٤) عبد الرحمن النجومي رعدة لله الدور إلى عوردون ، د ش ، ملحق ، ج

(٥) Nush Pasha, p. 113-4.

اختلفت المصادر حول الكيفية التي استسلم بها صالح الملك عندما كان محاصراً في جزيرة فنداسي من قبل أعوان محمد الطيب لبصير . ذكر التقرير أن هذا به نتيجة لعدده من أبي فرجة واعيد بدر اللذين أوهما صالح الملك بأن الخرطوم قد سقطت . فما كان منه إلا أن رمى عدته وعناده الحربي في النهر واستسلم وهو مكتسب (١) وقد ذكر التقرير أن أبا فرجة اخترع هذه الحيلة بعد أن ذهب إلى الخرطوم ، وتأكد له أنه لن يتمكن من إقتحام بواباتها بالقوة التي لديه . فسار إلى فنداسي على أمل أن يجبر صالح الملك على التسليم ويغزر جيشه بجود الشايكية وأسلحتهم . ولكن إسماعيل ابن عبد القادر يورد رواية مختلفة يذكر فيها أن صالح الملك قد استسلم من تلقاء نفسه ، وكتب رسالة للمهدي يعلن فيها اعتذاره عما إقترفه سابقاً في حق الانتصار ، ويسأله أن يبعث بأحد قذاته ليتم التسليم على يده . وأنه كان متحرفاً من التسليم لـ محمد الطيب لبصير خشية من أن يتعرض هو ورحاله إلى بعض الإجراءات الانتقامية . فاستجاب المهدي لطلبه وبعث محمد عثمان أبي فرجة الذي سار من توه لفنداسي وتوجه منها إلى الخرطوم ، حيث شرع في وضع الحصار . ولقد أيد أراهم فوزي هذه الرواية .

وذكر التقرير أيضاً حادثة في هذا الشأن نجعل القارىء يشكك في صدق رواية المؤلفين . فهو يقول : إن عوردون كان على علم بوابا أبي فرجة ، فبعث برسول لصالح الملك يحذره الإيعير أي أباء بقلها له أبو فرجة الانتقام (٢) وقد تأكد تبين تلك الرسالة لصالح الملك فإذا كان الأمر كذلك ، لماذا استسلم وهو يعلم سلفاً أن رواية سقوط المدينة إنما هي محض إختلاق .

Ibid, p. 63

(١)

Nushi Pasha, pp. 40-1

(٢)

٣ - تقرير ابراهيم البورديني

كان ابراهيم البورديني يعمل بالتجارة في الخرطوم وبقي فيها حتى وصول غوردون . ولقد عاصر فترة الحصار حتى سقوط المدينة . ثم سافر إلى بربر فيما بعد . وتمكن من الفرار إلى سواكن في يونيو ١٨٨٧ ومنها وصل إلى القاهرة . ولقد كتب تقريراً بعنوان (حصار الخرطوم وسقوطه) (دو اسجعة ١٣٠٤) . وهو يقع في حوالي ٢٠ صفحة تشمل الفترة منذ وصول غوردون إلى ما بعد سقوط المدينة .

ويعالج البورديني في الأساس الجانب العسكري فهو يصف المعارك التي جرت بين قوات الحكومة والانتصار ، ويركز على المرحلة الأخيرة من الحصار .

وذكر لتقرير أن المهدي أرسل لغوردون « كسوة لرهاد » مع خصاص بعد وصوله إلى ديم أبي سعد ، ولكن هنا قد تم قبل مجيء المهدي بحوالي خمسة أشهر حسماً كان مقيماً بالرهاد . ودعم أن البورديني قد جرم في معرض تعليقه على تقرير بصحى باشا أن غوردون لم يرسل للمهدي سوى رسالة واحدة إلا أنه يعود ويذكر في تقريره أن غوردون قد كلف ابراهيم بك رشدي ليكتب خطاباً للمهدي يحذره من الانتصار به مرة أخرى . وقد جاءت هذه الرسالة بعد تسميه الخطاب المهدي الذي يرفض فيه سلطته كردفان .

نصيحة العوام للخاص والعام

كان أحمد العوام كاتباً لعرايى دشا ونفى إلى الخرطوم بعد معركة النيل الكبير ، وقد أبى تعاطفاً مع المهدي وبذل محاولات لإقناع الأهلى بدعوته . فكان يحطب علانية في التجمعات مدداً بعود غوردون ، ومشيد بانتصارات المهدي . حاول غوردون انتماهم معه فعينه كاتباً ، ويتمان إنه حرر بعض الخطابات التي بعث بها غوردون للأهراء . ولكن ما أن وصل المهدي

إلى أم درمان حتى عاود سيرته القديمة . ولذكرت بعض المصادر أنه كان يقوم بكل ما من شأنه أن يغضب الحكومة، وفي النهاية أوعر لأحدى النساء إصرام النار بمخزن الدخيرة، فاكشف أمره وقرر غوردون الحكم عليه بالإعدام ونفذ فوراً .

ولقد كتب العوم نصيحته في ٢٠ رمضان ١٣٠١هـ، وصنرها بقوله « هذه الرسالة المسماة بنصيحة العوام للخاص والعام من إخوانه أهل الإيمان والإسلام في وجوب إتحادهم وإثلاف قلوبهم يتبع سيدنا أمام الزمان محمد المهدي المنتظر عليه السلام » . وهي ليست سجلاً للأحداث بقدر ما هي خواطر وآراء في الدين والسياسة وتقع في حوالي ٦٠ صفحة قسمها إلى خمسة فصول .

ويبدو أن الغرض من كتابة النصيحة كان رغبته في النيل من الحكومة التركية، فهو يحملها كافة مسؤولية ما يحل بالمسلمين من بلايا، لأن الأحكام لا يقيدون بكتاب الله وسنة رسوله . وهو يدعو المسلمين إلى عدم إسخاذ اليهود وانصاري أولياءهم، ووجوب وقف القتال بين بعضهم البعض، والالتفاف حول المهدي لأنه يدعو إلى إقامة دين الحق .

السودان بين يدي كتشنر وغوردون

ضمن إبراهيم فوزي كتابه بالعنوان أعلاه فصلاً عن حصار الخرطوم منذ وصوله إليها مع غوردون في ١٨ فبراير ١٨٨٤ . ولم يكن إبراهيم فوزي غريباً عن البلاد، فقد سبق أن عمل فيها أثناء ولاية غوردون الأولى . وقد اتهم بالاشتغال بتجارة الرقيق حينما كان حاكماً على بحر الغزال، ولكن غوردون عفا عنه وطلب منه أن يعود معه مرة أخرى للسودان عندما يلتقي به في القاهرة .

أورد إبراهيم فوزي معلومات أساسية عن أحداث المدينة ولكنه يميل إلى الاختصار، ويعطي أحياناً معلومات غير دقيقة . وهو يقول أن غوردون

بعث بخطاته إلى المهدي من كورسكو في حين يذكر ستوريت أن هذا قد
تم من قرية شما بربر بقليل ولعن تاريخ الخطاب (١٠ فبراير) يؤيد
الرأي الأخير .

ويورد المؤلف أرقاماً مبالغاً فيها ، من ذلك مثلاً تقديره سكان الخرطوم
الأجانب بـ ٢٠٠ ألف ، والوطنيين الذين هجروا المدينة إلى المهدي بـ ٣٠ ألف ،
وقدر قوت أبي قرجة بـ ٢٠ ألف مقاتل ، والذين ساروا مع المهدي ٨٠٠ ألف
تقريباً .

سعادة المستهدي في سيرة الإمام المهدي

لؤلؤه إسماعيل بن عبد القادر ، ابن أخت أحمد الولي الكردفاني .
درس في الأزهر وأصبح مفتياً لمدرسة كردفان ومقيماً في الأبيض . عند
وصول المهدي إلى منهل كاداً أعلن تأييده له وبقي في معيته إلى أن كلفه
الخليفة عبد الله بكتابة سيرة المهدي . فاستعان بالأنصار الذين شاركوا في
الأحداث ، فكتب سيرة شاملة «فترة منذ قيام المهدي إلى ما قبل موقعة توشكي
(رمضان ١٢٩٨ إلى ٣ ربيع أول ١٣٠٦) . ولقد وشى به البعض فنشأه
الخليفة إلى الرجاء ١٨٩٣ وحرق كل نسخ سيرته . ولكن أحد المعسكر
المصريين تمكن من إخفاء نسخة استعد بها نعيم شقير فيما بعد في كتابة
تاريخه .

ويبدو أنه سلمها لوجت فحطت ، مع أوراقه في جامعة درم .
وقد ركز إسماعيل بن عبد القادر على المعارك التي خاضها الأنصار
ضد قوات الحكومة بل هو يعالج تاريخ المهديّة من خلال « المعروات » .
وسجل حصار الخرطوم من خلال حملات الأمراء مستثاذاً « سرية محمد
عثمان الشهير بأبي قرجة ثم « سرية عبد الرحمن النجومي » ثم « ذكرى
عزوة المهدي عليه السلام إلى الخرطوم » ثم « ذكر فتح خندق أم درمان » .
ورغم أنه قد أعطى تفاصيل للأحداث إلا أنه لم يورد أي أرقام . ويلاحظ

القارىء أنه لم يذكر شيئاً عن الرسائل المتبادلة بين غوردون والأمراء سوى رسالة أبى قرجة .

رسالة كوزى *Cuzzi, G. Fifteen Years Prisoner of the False Prophet*
حاء المؤلف جوسيبى كوزى إلى الخرطوم فى ١١ رار ٨٢ كمندوب
لإحدى اشركات تجارية. وبقي فيها إلى ما بعد هزيمة يوسف الشالى حين
سافر إلى سنار ، ولكنه عاد مرة أخرى في يونيو ١٨٨٣ وبقي حتى آخر
نوفمبر ، ثم سافر إلى بربر وبقي هناك إلى ما بعد سقوط المدينة . ووقع في أسر
الأنصار حتى أطلق سراحه عند مجيء جيش كشنر . إذن ، فالمعلومات التى
أوردها عن الحصار هي في مجموعها سمعية لأنه لم يكن داخل المدينة أثناء
تلك الفترة رغم أنه قد زارها لمدة قصيرة . وفوق هذا لم يؤلف الكتاب بنفسه
بل أعطى المعلومات لصحفي ألماني فنشرها هذا بأسمه في أبريل ١٨٩٩ .

ولقد أورد في الفصل الأول ولثاني معلومات عن المهدية منذ بداية
الدعوة في أبا إلى معركة شيكان ولعله قد حصل على هذه من بعض
الأشخاص الذين إلتقى بهم أثناء الأسر . فإشتملت على وصف لأحداث وقع
بعضها وبعضها الآخر لم يقع وبعده هو جرائم ارتكبتها الأنصار ، فهو يذكر
مثلاً أنهم كانوا يقتلون يمتة ويسرة عند دخولهم الأبيض . في حين
أن هذا لم يحدث على الإطلاق .

ولقد ركز في الفصول التي تلت هذه (الثالث - الرابع - الخامس
السادس) على أحداث بربر ومجيئه إلى الخرطوم كرسول من قبل محمد
الخير ، ثم سفره لمقابلة المهدي ورجوعه مرة أخرى إلى بربر ، وخصص
الفصل السابع للفترة التي أعقبت سقوط المدينة وحتى مجيء جيش كشنر .

ولقد أخطأ كوزى حينما قال : إن غوردون أرسل هدية مع خطاب
إلى المهدي بعد وصوله الخرطوم . فقد تم هذا قبل وصوله إلى بربر . ثم
أن غوردون لم يعترف به شعباناً على السودان العربي حسب رواية المؤلف ،
بل عني كردفان فقط .

النداء في دفع الافتراء :

عالج مؤلفه محمد عبد الرحيم موضوعات متفرقة عن تاريخ المهدي . وكان المؤلف قد شهد حصار الخرطوم مع الأنصار ولكنه سجل بعض الأحداث المتعلقة بالبحانيين ، هو وصف المعارك التي دارت مدعمة بالتواريخ والأسماء .

ونقد إقتراد هذا المصدر بإيراده نصا قيل إنه للحصاب الذي أنفه غوردون عند وصوله لمدينة ، ورغم أنه تضمن بعض المعلومات التي رددتها مصادر أخرى إلا أن القاريء لا يمتث لا أن يتشكك في بعض التفاصيل .

منها مثلا قول غوردون « ... وقد حاربت السيد محمد أحمد المهدي نفحوى مأموريته » ومصدر الشك هنا أن غوردون كان يتجنب دعوة المهدي بهذا الاسم ، لأن هذا يعنى الاعتراف به ، وقد خاطبه في رسالته التي صمناها مجموعة المسلمي بـ « سيد محمد أحمد » فقط وأشار المؤلف إلى أن غوردون قد اعترف به سبطنا على « السردان لغربي برمنه » ولكن خطاب غوردون يحدد السلطة بكرديان فقط . وعن تجارة الرقيق ذكر المؤلف أن كن لأمر لصادرة بشأنها قد العيت ورغم أن نصحي باشا قد أورد معلومات مماثلة إلا أن المنشور الذي أصدره غوردون في هذا الشأن كان يتادى بالغاء لإتفاق الذي صدر عام ١٨٧٧ والذي نص على عتق الرقيق بعام ١٨٨٩ فقط كما أن العفو الذي أصدره غوردون لم يشمل « جميع المسجونين على إختلاف جرائمهم » كما يذكر المؤلف هنا بن إستثنى القننة .

تاريخ حياتي :

كان أبكر بدرى ، مؤلف هذه السيرة ، يقيم مع عائلته برفاعة ، وعند إندلاع الثورة إستجاب والده لدعوة المهدي فحضر بعائلته إلى أم درمان فوجد المهدي قد إستقر في ديم أبي سعد . ولقد شارك المؤلف في العميات التي شهدتها الأيام الأخيرة من الحصار وكان بين أوائل الذين دخلوا المدينة في صبيحة ٢٦ يناير من الجزء الجنوبي الغربي من الخندق الذي هدمه فيضان النيل .

ولقد تعرض لأحداث الحصار في بضع صفحات كانت أساساً حول
 الأسابيع التي سبقت سقوط المدينة، ولم يورد أرقاماً ولا تواريخ وقد أخطأ في
 تاريخ بعض الأحداث، فهو يذكر مثلاً أن المعركة التي قتل فيها سائى بك
 تمت بعد مجيء الهجوم ولكن في الواقع قبله وهو يقول أيضاً إن صالح
 الملك قد سلم للشيخ العبيد بنر، ولكن المصادر تتفق على أن التسليم قد تم على
 يد أبي قرجه ورء بحضور الشيخ العبيد .



الفصل الأول

تمهيد

نبذة في تاريخ مدينة الخرطوم

يجمع المؤرخون أن الخرطوم — كقرية صغيرة يؤمها صائدو الأسماك — قد وجدت في التاريخ منذ أزمان سبقت قيام مملكة النوبح في ١٥٠٤ إلا أنها لم تحظ بأي اهتمام من جانب أي من الحكام ، ولعل كل ما اكتسبه في العهد الجديد هو قيام عدة نخلاو لرجال اسمن في منطقتها (١) ، فشأت إحدى هذه النخلاوى في قرية توتي ، وكان من رجالها الشيخ أرباب العقدة الذي مات سنة ١٦٩١ هـ (٢) ويبدو أن بعض الأهالي قد سعوا إلى التقرب من الشيخ فاستقلوا إلى إقامة معه في قرية ، لا أن هناك يكسها شهرة تذكر فبقيت كما هي . قرية صيادين لا تجلب إنباه المسافرين الأجانب فم ترد أي إشارة لها في كتاباتهم أو حوائطهم رغم أن البعض قد وضع مرقى أخرى . مثل توتي وأم درمان والسحمانية في موضعها الصحيحة

بدأ تطور القرية مع فتح محمد علي باشا ، إذ قام أحد أحفاد الشيخ أرباب ، محمود ود علي ، بمستقبال سماعيل باشا في مكان مقابل للبحرية عند وصوله في ٢٤ مايو ١٨٢١ . وعند عبوره أنبل استقباله في الخرطوم الفكي أرباب ود علي خليفة الشيخ أرباب . وهي أولى مراحل تنظيم الإدارة بعد الفتح ، وصعت الخرطوم في نطاق مديرية سنار الآن الاحتفاظ بحامية صغيرة في كردى قد أسبغ على المنطقة بعض الأهمية ثم جاء مقتس إسماعيل باشا والناسى التي صحبته لتستحوذ على اهتمام السلطات الكامل هي كل من

(١) Stevenson, "Old Khartoum 1821-1885", *SNR* (47, 966), p 3.

(٢) أبو سليم ، مشروعات عن تاريخ مدينة الخرطوم ص ٤ .

مصر والسودان ، ولم يكن التفكير في تعمير البلاد واردا في تلك الأيام ، فبقيت الخرطوم بعيدة عن الأضواء .

وفي ١٨٢٤ تسلم عثمان بك برنجي ، مقاليد السلطة من السفير دار ، فأتى بكتائب من لحند شيد لهم معسكرا في أم درمان في حين عبر هو النيل إلى الخرطوم ، واستقبله هناك الشيخ شنبون ود مدني الذي تم تعيينه ، فيما بعد شيخا على المنطقة الممتدة من حجر العسل إلى جبال القونج (١) . ويبدو أن عثمان بك قد فطن إلى إستراتيجية موقع الخرطوم فعين عثمان بك حربوطي وكيلا له في القرية . وقد أعقب هذا تشييد مبنى لرئاسة الإدارة الحكومية نقلت إليه وحدات من المصالح ومخزونات الدولة (٢) .

وعند إنتهاء ولاية عثمان بك برنجي خلفه محموك مدير مديرية برير ، فأتى بجنوده وشيد لهم معسكرا في حبة خوجي شمال الخرطوم ، وحطبت القرية ببعض الشهرة عندما تم بناء مقر دائم للحكومة فيها (٣) .

بدأ تفكير الحكام الجدد بتجه نحو إيجاد عاصمة لبلاد بعد أن أتضح أن مناخ سنار لا يلائمهم صحيا . وقد استبعدت ود مدني بنفس السبب فيما بعد ، والمعتقد أن محمد علي باشا قد اختار شندى مقر لعاصمة ملكه بناء على نصيحة الأطباء ، إلا أن مقتل ابنه هناك جعله يصرف النظر عنها

غير أن خورشيد باشا تنبه عند محبته إلى أهمية موقع الخرطوم وهوائها ابلق ، فحاول أن يعمر القرية بدعوة أهالي المناطق المتاخمة لها وبعض عائلات سنار إلى الإقامة بها . فأكسب هذا بعض الأهمية وصارت تحتوى على حوالي خمسمائة منزلا جديدا . وفي ١٨٢٨ بدأ تشييد مباني للمصالح الحكومية ، ويعتقد أنها قد أعست عاصمة للبلاد في عام ١٨٣٠ .

(١) الشيخ أحمد كاتب الوثيقة ، تاريخ مراك السودان ، مراجعة م شيعة ص ٢٢ .

(٢) Stevenson "Old Khartoum 1821 1885" SNR 47 (1966) p 8.

(٣) أبو سليم ، معومات عن تاريخ مدينة الخرطوم ص ٦ .

واصل خورشيد باش تشجيعه للأهالى بالإنفاق لخرطوم عن طريق إمدادهم بالأراضي وبمواد البناء من طوب وأخشاب كى يستعملوها بدلا عن الجلود والفس، وهى المواد التى كان يستعملها لسود الأعظم فى تشييد المنازل لإستثناء مساكن أحفاد أرباب العقائد، وفكى حمد الله. و قبيلة البادنا، فقد كانت هى الوحيدة فى القرية التى بنيت من الطوب . واستغل خورشيد خرائب سربا لإمدادهم بالطوب، فأوكل بـشيخ عبد السلام ، رعيم المعارية المتبعين فى حلة كوكو ، نرحيله إلى الخرطوم، ولكن سرعان ما أدى ازدياد الطلب عليه إلى قيام كمائن فى كل من برى ولجريف .

وقد صاحب إعلان الخرطوم عاصمة لبلاد توسع فى المائى لحكومية، فبنى خورشيد معسكرا للجهادية، وجامعا حكوميا إلا أنه هدم فى عام ١٨٣٤ يقوم مكانه آخر أكثر سعة منه . وقد شهدت تلك الفترة أيضا نشاطا ملحوظا من قبل الأهالى لتعمير قريتهم وتحميلها .

ويبدو أن زيارة محمد عى باش المرتقة فى عام ١٨٣٨ قد زادت من حماس المسئولين والأهالى لتبني القرية فى أبهى حلها . فامتدت من موقع حادثة لحيوان الحلى إلى مائى جامعة الخرطوم .

و كانت أحيائها الهامة هى حى الحكمدارية الذى يقع شرقى المدينة حيث يقوم قصر الحكمدار الذى شيده ممتاز باشا (١٨٧١ - ١٨٧٢) كمقر رسمى للحكمدار، وعلى مقربة منه تقع السرايا وهى مقر لحكمدار الخاص . وكان أول من شيده هو محمود، إلا أن عبد النظيف بك (١٨٥٠ - ١٨٥٢) أعاد بناءه، وجمده ممتاز باش فيما بعد، ثم أكمل فى زمن إسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ - ١٨٧٦) .

وإلى الجنوب من قصر الحكمدارية قامت مائى المديرية . وهى تشمل ديريد والبرق والحالية التى نقلها غوردون أثناء الحصار إلى القصر . وكانت هناك أيضا مطبعة ملحق بها مصنع للورق، وقد بدأ ممتاز باشا فى تشييد مستشفى

أكمله إسماعيل باشا أيوب فيما بعد . وكانت شونة العيش تقع إلى شرفى السرايا ، وأقيم عربها مرسى للسفن وورشة لتصليحها .

أما حي المسجد فكان موقعه إلى الغرب من حي الحكمدارية وهي منطقة سكنية للأعيان وكبار التجار ، وعلى مقربة من هذا قامت حنة موسى بك التى جاء إسمها من إسم الحكمدار موسى بك حمدى (١٨٦٢ - ١٨٦٥) باعتبار أنه شيد أول مارها ، أما أحياء سلامة الدشا ، لنوبة ، هوب صربانى فقد استوطنها فقراء الأهالى .

وصحب تطور الخرطوم المعماري تطور اقتصادى هام ، فأنعشت حركة التجارة الداخلية والخارجية واتخذ عدد من التجار من المدينة موطن لهم . ففي حين كانت منطقة السوق تشمل حوالى عشرين مبنى هي أوائل مبنى الإحتلال بعدها قد توسعت فيما بعد لتشمل منطقة للأجانب وأخرى للوطنيين إمتدت كل منهما فى مساحة أربعة شوارع .

ويبدو أن أهمية الخرطوم كمركز تجارى ، قد ساعدت فى إبراز إسم المدينة فى الأوساط الدولية ، فصر يفسها كثير من الأوروبيين ولشرقيين ولعل أول من دخل الخرطوم من الأوروبيين هم الضابطان ، كايسو (Caeson) وكادو (Cadeau) اللذان كانا فى إحدى فرق جيش إسماعيل باشا (١) ، ويعتقد أن أعداد أخرى قد دخلت البلاد بعد الفتح ، حتى أنه فى عام ١٨٢٩ كان هناك قصص فرنسي مقيم فى الخرطوم ، وقد مثل بريطانيه قصص سورى الأصص بدعى خجيل كشامى (٢) . وفى ١٨٤٨ وصلت بعثة الإرسالية النمساوية وفى ١٨٥٠ تم تعيين البارون ميلر (Baron Miller) قسلا للنمسا ، وعينت بريطانيا جون دثريك (John Paterrick) مساعدا للقنصل . إلا أن التنصبة قد أغلقت فى ١٨٦٤ عندما تواترت أخبار عن اشتغال القنصل بتجارة الرقيق

Hilli, Egypt in the Sudan, P. 78.

(١)

(٢) سليمان كشة تأسيس مدينة الخرطوم ص ٣٤

عينت بريطانيا بعد ذلك روست (ROUSSET) قنصلا لها ، وحلفه فرانك باور
الذى كان مرسلا لصحيفة لتاييمز فى ذات الوقت
ولقد بقى فى الخرطوم وشهد النصف الأول من الحصار ، وفى سبتمبر
١٨٨٤ اعتاله المناصير وهو فى طريق عودته إلى القاهرة . وقد توافد بعد
ذلك ممثلو كثير من الأقطار إلى الخرطوم ، وكان بينهم ممثلون عن أيطالى ،
واليونان ، وإيران ، وأمريكا .

وتزايد عدد سكان المدينة طوال فترة الحكم لمصرى التركى ، فقد كانت
بوصفها عاصمة البلاد ومركزا هاما للتجارة تضم عددا كبيرا من الأحناب
من الموظفين ولتجار .

ولقد نشأت طبقة مهنية تشمل أطباء ، وقضاة ، ومعلمين ، جاءت طلابهم
مع المنح . كذلك جاء فلاحون من مصر لإرشاد المزارعين السودانين إلى
وسائل الزراعة الحديثة . وتسلسل مع هؤلاء آخرون زراعة المخدرات ودباغة
لجلود ، ثم تبعهم الحدادون ولساؤون والتجارون ، ثم جاء الفنيون لتشغيل
ورشة تصليح السفن . وهكذا ظلت وفود المهاجرين تنقطر طوال فترة الحكم
التركى المصرى طمبا للرزق فى دواوين الحكومة ككثبة ومحامين . أو فى
الأعمال الحرة . كذلك هاجرت إلى السودان فئة كانت تجد فيه ملاذا
للتهرب من الضرائب الهائلة التى تجبى فى شمال الوادى بنسبة أعلى منها
فى جنوبه .

وقدر عدد سكان الخرطوم بـ ١٥٠.٠٠٠ نسمة تقريبا فى ١٨٣٠ . ثم
قفز هذا العدد إلى ٢٠٠.٠٠٠ فى ١٨٤٠ ، وإلى ٣٠٠.٠٠٠ - ٤٠٠.٠٠٠ فى
عام ١٨٥٠ وفى ١٨٧٥ قدره أحد الزوار بـ ١.٠٠٠.٠٠٠ ، إلا أن آخر قدره
فى عام ١٨٨٣ بـ ٥٠٠.٠٠٠ ويبدو أن هذا الانخفاض يعود إلى إندلاع الثورة
المهدية حيث هجرت المدينة أعداد كبيرة من الأحناب والوصنيين .

لقد خلق الفتح التركى المصرى الخرطوم وطورها من قرية صغيرة

لصائدي الأسماك إلى عاصمة البلاد تتمتع بعض مقومات الحضارة بمقاييس تلك الأرمان . وقد ظلت الجهود تبذل على مدى ستين عاما لتصبح الخرطوم مقرا مربحا للحكام والتجار وممشى الدول الأجنبية ، ورغم هذا فقد تصاربت الآراء حول نجاح تلك المساعي ، فوصفها أحد الزوار بأنها تتمتع بموقع ممتاز وطبيعة ساحرة حيث ترفد في ملتقى النيلين الأبيض والأزرق وتبدو كمدينة محضرة ، وعلق آخر بأن الخرطوم تكشف عن ذوق معماري سيء يضيق شوارعها وتعدم تماسق مبانيها ووجود المقابر في وسط المناطق السكنية .

المهدي من أبا إلى الخرطوم

في عام ١٨٨١ تقاطرت الأبناء رؤوف باشا ، حكمدار عموم اسودان ، بأن شيخا يدعى محمد أحمد قد أعلن أنه المهدي المنتظر في جزيرة أبا (١) . ومن توه سارع رؤوف باشا لتأمين مساندة علماء المدينة له قبل أن يعلن أنه لن يتهاون في قمع مثيري مثل هذه الإدعاءات (٢) .

ومن ثم بحث بأحد معاونيه ، محمد أبو اسعود ، ليعود بالمهدي إلى الخرطوم بالنسبة هي أحسن .

ويعتقد أن الشيخ محمد شريف قد سبق أن تمت نظر انحكمصار إلى خطورة النشاط الذي يمارسه المهدي . إلا أن هذا لم يعره انتباها وأرجع إشارة محمد شريف إلى التواخن التقليدي الذي كان قائما بين الرجلين .

ولكن مهمة أبا اسعود السمية جاءت بالمثل فأرس رؤوف باشا قوة عسكرية لتجبر المهدي على الإنصياع له عنوة إلا أن المهدي تمكن من

(١) محمد أحمد بن أحمد عبد الله ، ولد في ٨٤١ هـ في جزيرة لب غرب دلفا . هاجر مع عائلته إلى الخرطوم ورأى البحث عن ميدان أصعب وأكثر ربحا بصناعة المراكب ولتصنيع السبب وأصلحت العائلة حبرتها جنوبا حتى استقرت في جزيرة أبا حيث توجد كيت وميرة من غشيب العبادات . تلقى محمد أحمد تعليم المراكب في خدمة أحد رجال الدين وأبدي ميلا شديدا للاستزادة من العلم فالتحق بحوارة الشيخ الأمام الصوليح . ثم ارتحل إلى قرية طميش حيث تقوم بحوارة الشيخ محمد العسكري وانعرب من بربر . ثم ما لبث أن تركه إلى الشيخ محمد فربس نور الدائم واستأجر به المظام أحياء مع الشيخ الترشى .

يسر أن المهدي قد بدأ اتصالاته مع شيوخ الإسلام ورجال الدين بعد وفاة الشيخ الترشى فكان يجذبهم من تدوير التنايل الإسلامية وأصول الدين ، ثم قام برحلة إلى كركقان وعند عودته منها أعلن أنه المهدي المنتظر .

نوم شقير من ١٩٣٧ - ١١

Holt, *The Mahdist State in the Sudan 1881-1898* p. 47.

Shibeika, *British Policy in the Sudan*, pp. 12-20.

Hill, *Egypt in the Sudan*, p. 164.

(٢)

إنزال هزيمة ساحقة بهذه القوة في أغسطس ١٨٨١ .

وقد لاقت حملة حاكم فاشودة ، راشد أيمن ، في ديسمبر ١٨٨١ نفس مصير قوة الجزيرة أبا .

وكان أن أعقبت هزيمة الحكومة في معركتين متتاليتين تصاعد كبير في شهره المهدي . ولم يجد رؤوف باشا بدا حينئذ من الإتصال بالقاهرة طلبا للمعونة ، كانت القوات المصرية في السودان تفتقر إلى المقدرة الحقيقية للتصدي هذه الثورة التي ظهرت برادرها ، إذ أبغائية أفراد لقوات كانوا من باشورق غير النظاميين ، وغير المؤهلين عسكريا . ولم تكن ثمة استعدادات لحوض حرب مهما كان نطاقها . فشرعت السلطات في تشييد التحصينات في المدن الرئيسية على عجل ، فجاءت تحمل كثير من الأخطاء الفنية أفقدتها فوائدها اندفاعية (١) .

حسب المهدي ، من ناحية أخرى ٨٠٠٠ مقاتل تقريبا ، وأعطاه هزيمته لراشد أيمن بكمية من المال و ل سلاح والخيالة . ثم دعم موقعه دعم أكثر بإنصاره على يوسف الشلال في مايو ١٨٨٢ فوجه بهذا صربة فاصمة للحكم التركي ، وأرتفعت سمعته إلى آفاق أبعد ، فتمز عدد مؤيديه إلى ما يقارب ٢٠ ألفا ، وبدأ بعضهم يشعل نر الثورة في مناطقهم .

أيقنت الحكومة في القاهرة عندئذ أن ما يجري في السودان هو أمر خطير ، ورغم هذا ، تقتصر استجاباتها على إرسال فرق من الروج تحت قيادة إبراهيم بك فوزي ، وكما يحدث عادة في مثل هذه الظروف من تعليقات وتبريرات فقد أرجعوا الهزيمة إلى ضعف في الجهار الإداري وسوء الأداء العسكري ، ومن ثم تم استدعاء رؤوف باشا وعين مكانه عبد القادر باشا حلمي في مطلع ١٨٨٢ .

أصدر عبد القادر باشا حل وصوله تعليماته لتعزز التحصينات في

(١) نوم شفيق ، ١٩٣٥ ، ص ٦٠ .

كل من الخرطوم، وسنار، وبارا، والدويم، وآنكوه، وفاشوده، وقد بدأ واضحا أن القوات الموجودة في البلاد كانت عاجزة عن إحراز أي نصر. فكرر عبد القادر بشا مطالبته للقاهرة لتساعده بهزيم كتائب إضافية فلم يجد إستجابة إذ كانت الحكومة هناك تسعى آنئذ لإيجاد مخرج من كلها الداخلية.

قرر المهدي بعد أن هزم قوات الحكومة في ثلاث معارك التقدم نحو قلب كردفان. سقطت بارا ولأبيض في يناير ١٨٨٣ وتبعتهما المركز الصغيرة المنتشرة في اسيرية، فخفضت له بأسرها. ولم يكن نشاط الأنصار مقتصرًا على كردفان وحدها، فقد لوحظ انتشار موجات من التمرد عن السلطة التركية في كل من بحر الغزال والإستوائية منذ ١٨٨٢. وتؤكد نشاط أتباع المهدي في جهات منفردة من الحريزة. وكانت سار في حالة حصار منذ بداية ١٨٨٣ وكسلا والقضارف في نوفمبر من ذات العام.

وفي أكتوبر ١٨٨٣ سقطت سواكن وإنقطع الإتصال بين الموانئ وقرى جبال البحر لأحمر، ووقع صريق سواكن - بربر في قبضة الأنصار.

وصل حكام الخرطوم ضغصهم على القاهرة لتمدهم بالعتاد لوقف تيار الثورة. ولم تكن حكومة الخديوي في موقف يسمح لها بذلك. فقد كان الجيش الجديد تحت التكوين ولم تكن بريطانيا لتسمح بإمداد أي وحدات منه إلى السودان. فأضطرت الحكومة إلى إرسال فلور جيش عراقي المسرح ولم يكن هؤلاء رعية في القتال، فقاوموا إعدادة تجنيدهم ورحلوا إلى السودان عنوة. وكان أن منى هذا الجيش الذي قاده أحد الضباط البريطانيين المتقاعدين - هكس بشا - بهزيمة ساحقة في الخامس من نوفمبر ١٨٨٣ قضت على جميع أفرادة تقريبا؛ وكان أن أدت هذه الهزيمة إلى إنهيار الحكم التركي المصري في كل من دارفور وبحر النزال مباشرة.

وقد تضاعفت ثقة المهدي في نفسه ومقاتليه بعد أن إنهزم أمامه ذلك الجيش الذي قاده ضابط بريطاني بمساعدة مجموعة من الضباط الأوروبيين.

والأثر. كان واضح أنه يملك القدرة لسيطر على البلاد بكاملها ، إذ أن هذا لا يعني أكثر من التصدي لحاميات صغيرة تصم في مجموعها لباشورق وبعض الجهادية . فانتشرت موجة من الذعر في الأوساط الرسمية ، وأيقنوا أن الخرطوم بلا شك ستكون هدف المهدي في القريب ، فأتخذت جملة ترتيبات لتقوية وسائل الدفاع في المدينة .

كانت خطة المهدي هي محاصرة الخرطوم حتى التسليم . فبدأت أولى مراحل الحصار في مطلع ١٨٨٤ بشوب ثورة الأهالي الذين استعصم المهدي في ضوحي الخرطوم . وبوصول محمد عثمان أبو قرجه على رأس مقاتليه في يونيو بدأت المرحلة الثانية من الحصار (١) ثم أوفد المهدي بعد ذلك عبد الرحمن النجومي فباشرت قواته فور وصولها حصار الخرطوم ومارست مزيدا من الضغط عليها ، فدخل الحصار بهذا مرحلته الثالثة (٢) وفي أكتوبر ١٨٨٤ حل ركاب المهدي تصحيه جموع مؤيديه فتمكنوا من السيطرة على كل المناطق المحيطة بالعاصمة وبقرا في مواقعهم تلك حتى تم لهم الإستيلاء على الخرطوم .

(١) محمد عثمان أبو قرجه ، من أبناء دقنة يعتقد أنه كان يسكن في الخرطوم ويعمل «توبيا» في مركب تحمى جهة العمدة ، انضم إلى الانصار واشترك في «مارك شيكان» و«جبال النوبة» . أوفده المهدي ليتم تسليم صالح تلك في فداسي عن يديه ثم سار إلى الخرطوم ووضع حصارها ولعب دور رئيسها في أحداث تلك الفترة . عمل في شرق السودان في زمن «الحليفة عيشة» ولكنه استدعي إلى مدردان بسبب الخلافات التي نشبت بينه وعثمان دقنة . اتهم بالانتماء ل«الايديين» وأبعد عن الرحاف . أطلق السجيك سرجه صار إلى «دردود» ثم عاد إلى أم درمان ونفى فيها حتى وافته عام ١٩١٦ .

Hill, A-Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, p. 279.

(٢) عبد الرحمن النجومي ، من زعماء «الحملين» انضم إلى المهدي في ١٨٨١ شارك في «مرد» و«كردون» ، بعد شيكان قاد الحملة التي جردت المهدي ضد جبل النابير . لعب دورا بارزا في حصار الخرطوم وبعد سقوطها تعقب حملة الانقاد إلى أن وصل برمر ولكنه استدعي ثم عاد إلى الشمال مرة أخرى ليهود جيشه ، نفى تهرم في جيبس . قاد حملة التي كان مقررا لها أن تمر مصر فتصدت بها قوات جرفنيل وقتل النجومي في معركة «توشكي» في أغسطس ١٨٨٩ .

Hill, A. Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, p. 17.

مهمة غوردون وخطته الأساسية

جاء لاحتلال البريطانى مصر فى سبتمبر ١٨٨٢ ليجلق لها أزمة فى كنفية التصدى لمشكلة التى نشبت فى السودان، إذ لم يعد الخديوى وحكومته هما السلطة صاحبة الحق والعدل، بل أصبح لراما عليه أن يستشير جهات أخرى قبل إتخاذ خطوة ما.

ولقد اتسعت رقعة السلطة لتشمل مكتب السدوب لبريطانى، أفن يربح، وحكومة صاحبه لجلالة نفسها، ويتعدد مراكز السلطة تعددت المقترحات حول لوسيلة المثلى لحل أزمة السودان. كانت كلى حية نحاول ربط الحق بطروفه ومصالحها الخاصة، فكان لا بد من الدراسة الجادة المتأنية للموقف بكل متطلباته حتى يمكن لإتفاق حول سياسة موحدة واضحة اعلم. بيد أن شيئا من هذا لم يتم فتباينت وجهات النظر وحتلت الآراء بالصورة التى سيتم عرضها فى هذا الفصل.

ثبت لمراكز السلطة أن نفوذ المهدي أخذ فى الإزدياد، ولم يكن هناك بد من سحب الرعايا من حشد ومديين من البلاد. فى نهاية عام ١٨٨٣ بدأت المشاورات تدور حول الكيفية التى سيتم بها الإسحاب، ورغم أن الإتفاق قد تم آخر الأمر على إختيار غوردون لعمل بالسودان، إلا أن الصعاب التى إعترضته فيما بعد كان مردها بدرجة كبيرة إلى الأسلوب الذى عولجت به المشكلة من أساسه، فهو أسلوب تميز بالإرتجال، واقتصر للدراسة الموضوعية طيبة مهمة غوردون :

ولعل أوى القضايا التى عولجت بهذه الأسلوب هى المهمة التى بعث غوردون للسودان من أجلها، فمن جهة تعتقد أنها استشارية بحتة، إلى صرف آخر يعتقد من البداية أنها تنفيذية من الدرجة الأولى. إلى جهة ثالثة درجت

على تغيير موقفها بين هذا وذاك .

ويسمى أن هذا التضارب في الآراء يعود إلى الظروف والملايسات التي صاحبت إختيار غوردون لتلك المهمة .

في مطلع نوفمبر ١٨٨٣ قدم وزير الخارجية البريطاني ، جرانفيل (١) اقتراحا إلى رئيس الوزراء جلادستون (٢) ، يرمى إلى إيفاد غوردون إلى «مصر» دون أدنى تحديد للدور الذي سيطلع به ، وجاء هذا الإقتراح في وقت لم تكن فيه بريطانيا قد قررت شيئا فيما يختص بالسودان بعد هزل متضع خطة لإخلائه فقط أم الإستغناء عنه كلية ، أم سترسل قوات أجنبية لإحتلاله ؟ .

ولقد كان واضحا لدى الرأي العام البريطاني أن العواقب المترتبة على سياسة التردد هذه جد وخيمة ، ومن ثم وجهت حملات نقد عيفة للحكومة من الدوائر الشعبية والبرلمانية تطالبها باتخاذ موقف حاسم وعاجل ، ويبدو أن جرانفيل تقدم باقتراحه لإرسال غوردون ليحاول التخفيف من حدة الهجوم ، فهي ليست خطوة إيجابية فحسب بل أن الجبرال كان ينمّع

(١) جرانفيل جورج ، ليفسن - جاور (١٨٦٥ - ١٨٩١) من زعماء حزب الأحرار ، شارك هارتفيلد في قيادته عند قلعة جلادستون وانتخب من الحياة العامة في ١٨٧٤ ولكن عند انهزم حكومة المحافظين في ١٨٨٠ تولى جلادستون ليشكل حكومة من الأحرار فعمل جرانفيل فيها منصب وزير الخارجية ، ضمن جرانفيل مع زملائه مشورة مقتل غوردون في الخرطوم وضياع السمات ، ورغم أن الحكومة قد استعانت في ١٨٨٥ لفشها في كسب التأييد اللازم لأمر بمنح بلدياتية إلا أن السبب الحقيقي كان في سياستهم نحو السودان . وفي وزارة جلادستون الثالثة عين جرانفيل وزيرا لمصعرات ، وبعد خروج تلك الوزارة من السلطة بقي زعيم لحزبه في مجلس اللوردات حتى وفاته .

D. N. B. , P. 3326.

(٢) جلادستون ، ولسم - ارايت (١٨٠٩ - ١٨٩٨) زعيم حزب الأحرار ، حله للحكم عام ١٨٨٠ بعد مزيمه أصحابين بعبادة دررائيل . وفي فترة حكمه تم انصاع العسكري لثورة عرابي في مصر في سبتمبر ١٨٨٢ . كوس جهد وزارته للإصلاح البرلماني الذي كان على حساب الاهتمام بشبكة السودان فشوا . في تحدد الخطوات المطلوبة في الوقت المناسب لإيفاد غوردون . أصرحت حكومته بعد عدة أشهر من سقوط الخرطوم ولكنه عاد مرة أخرى في ١٨٨٦ بيبقى لفترة قصيرة .

D. N. K. , p. 1001-2.

بسمعة طيبة في كل من مصر وبريطانيا ، وتعيينه بلا شك سيوفر إليه بعث
الرضا والاستحسان في البلدين ، وبعد أن تأكد جرافيل من موافقة جلادستون
أبرق بيرنج بسأله إذا كان بالإمكان الاستفادة من غوردون وكيفية هذه
الاستفادة ، ويمكن أن يستشف من هذا أن المهمة التي ستوكل لغوردون لم
تحدد لدى جرافيل بعد .

سارع بيرنج ورفض هذا العرض ، إلا أنه لم يمض ثلاثة أسابيع حتى
بعث برسالة يطلب فيها لمرافقة على تعيين أحد الضباط البريطانيين للعمل في
السودان ، وتحبب الإشارة إلى إمكانية شغل غوردون هذا المنصب وتحدد
الملاحظة هنا أنه حتى هذه اللحظة لم تكن خططهم نحو السودان قد اتخذت
شكلا نهائيا واضحا .

وفي مطلع يناير ١٨٨٤ ، سافر راي بيرنج والحكومة المصرية على إحلاء
السودان . بعث لورارة الخارجية البريطانية بمصر برقية كان دي كتنوجن
(De Goetlogen) قد بعث بها لخبير من الخوصوم وفيها يحثه على ضرورة
الأسرع بإصدار تعليمات لإنسحاب مباشرة ، إذ أن الدلائل تأكملها قد أعلنت
الحرب ضد الحكومة المصرية التي لا تملك الإمكانيات المادية لمواجهة . ومن ثم
أرغى بيرنج مع هذه البرقية مذكرة جاء فيها « إن التعليمات الأولية قد صدرت
بالاستعداد للإنسحاب . سيعلن وزير الحرية لتحديد قدا حيث يكون
بالإمكان إصدار تعليمات مفصلة للإخلاء » لم يشر بيرنج هنا إلى أمر لضابط
بريطاني الذي سبق أن طلبه ، وربما لأنه كان يأمل أن يوكل بالمهمة « التي
حددها لضابط لعد القادر باشا حلمي وزير الحرية المصري الذي جاء ذكره
في المكاتبة .

أعقب هذا إقتراح من جرافيل يعرض فيه إسمي غوردون وتشارلز
ولسن مستفسرا عما إذا كان هناك سبيل لاستخدام أي منهما ، وسدو أب
بيرنج قد فهم من هذا أن وزير الخارجية يسعى لإيجاد أحدهما بقيادة عملية

الإسحاب . وبما أنه كان يفكر في سناد المهمة لعبد القادر باشا فقد جاء رده للمرة الثانية بالنفي بعد ثلاثة أيام بعث إليه برسالة جاء فيها : سيسافر عبد القادر باشا إلى الخرطوم . لقد صدقت التعليمات لإخلاء النساء والأطفال .. الخ . وسحب حاميه سار إلى الخرطوم . في نفس اليوم استشار جرانفيل رئيس الوزراء في أمر تعيين غوردون المهمة هي نفسها قيادة الحاميات المنسحبة ، إذ أنه كتب يقول : « عينا أن نستشير غوردون إذا كان بإمكانه أن يستعمل نفوذه الشخصي وسط القبائل لتأمين انسحاب الجند والأهالي من الخرطوم إلى موكن » .

تجاهل جرانفيل رفض بيرنج عندما طلب منه استخدام غوردون مرتين على التوالي ، وعز هذا إلى مشاجرة قديمة بين الرجلين .

وفي ١٥ يناير أرق جلادستون وزير الخارجية معبرا عن تأييده المطلق لكل مقترحاته . إذن فقد كان جرانفيل يأمن في إرسال غوردون في مهمة تنفيذية ولكنه عندما أرسل لإخطاراً لبيرنج بهذا حدد له مهمة غوردون بصورة مغايرة تماما لتلك التي أوضحها للرئيس الوزراء . فقد ذكر لبيرنج أن إبعاد غوردون قد يساعدهم في جمع معلومات عن الموقف الراهن في السودان . هناك عاملان يحتمل أن يكونا اسبب وراء هذا التغير المفاجيء أولهما ، من الجائز أن يكون جرانفيل قد تسلم رسالة بيرنج التي أعلن فيها تعين عبد القادر باشا بعد أن بعث بمذكرته لجلادستون ، ومن ثم قرر إبعاد غوردون في مهمة تكميلية مهمة عبد القادر باشا . أما العامل الثاني ، فهو المماثلة التي تمت بين غوردون وولرلي والتي أوضح فيها غوردون أنه لن يستطيع أن يتقدم بأية توصيات دون الإلزام بأطراف القصبة في موقعها . فهو إذن يرفض أن يقوم بمهمة تنفيذية ويعرض خدماته للدراسة الوضع فقط ، وهذا بالضبط هو المفهوم الذي حددته جرانفيل في رسالته لبيرنج . وهذا يعني ، من ناحية أخرى ، أن التوصيات التي يمكن أن يرفعها غوردون قد تتعارض تماما مع سياسة الإخلاء التي سبق أن أقرتها الحكومة ، والتي اعتبرت غير قابلة

للقصص . ومن هنا إتجه تفكير جرانفيل ليكسب الترضيتين ، أن يرسل غوردون للسودان لا يتقدم بمقترحات حول كيفية حل المشكلة . بل يقترح لهم حلاً داخل الإطار اعم لسياساتهم . وهو الانسحاب ، فبجاءت تعليمات غوردون بقرء هم أفصل السبل التي يمكن إبداعها لتأمين انسحاب الحاميات المصرية في سلام .

كان بيرنج بوصفه الرجل الأول الذي يقع عليه عبء مواجهة المشكلة أكثر إحساسا بخطورة الوضع . وذكر دراية بمتطلبات الموقف من حكومته . فكان رأيه أنهم ليسر في حاجة لأي معلومات عن كيفية تنفيذ عملية الإخلاء . بل هم في حاجة إلى من يعود العملية مباشرة ، فالأمور تتطور بسرعة مذهبة . ومن الضروري انشروع في التنفيذ وإلا ضاعت فرصة رعاية الحكومة المصرية في النجاة .

رفض عبد القادر باشا حمى المنصب الذي عرّض عليه ، وعندئذ بعث بيرنج برسالة إلى جرانفيل موجهة من الحكومة المصرية مفادها أن هذه الأخيرة أي الحكومة « ستشعر بالإمتنان إذا أعادتها بريطانيا أحد الصباط المؤهين ليقوم بالمهمة التي رفضها وزير البحرية . وسيعطى سلطات مطلقة عسكرية ومدنية لتنفيذ عملية الانسحاب » . وفي ذات اليوم تسلم بيرنج برقية من جرانفيل مقترحا تعيين غوردون للمرة الثالثة . فما كان منه إلا أن أجاب بأن غوردون هو الرجل المناسب تماما ليس للمهمة التي حادها جرانفيل في رسالته اسابقة ، وإنما كمنديل لوزير البحرية . ولا بد أن الحكومة البريطانية كانت على علم بأن مهمة وزير البحرية هي مهمة تنفيذية ولا محال هناك لرفع توصيات أو تقديم معلومات .

إن صياغة تعليمات غوردون بعد يومين من إستلام رسالة بيرنج وتحديد أهميته بأنها تقريرية فقط . تكشف أنهم قد تجاهلوا تلك الرسالة تماما . وقد أدهق حراويل مع تعليمات غوردون مذكرة إلى بيرنج يقون فيها إنهم قد أرسلوا غوردون ليسهم بمعلومات . ويبدو أن الحكومة

البريطانية أرادت التحدث في هذا الأمر، إذ أنه في حالة إيفاده في مهمة تنفيذية سيكون لزاما عليهم مساندته بكافة الوسائل حتى يتم تنفيذ تلك العملية .

أما المهمة التي وافقوا عليها كثانة في تعليماتهم فهي تلزمهم فقط بصمان سلامته شخصيا ، ولعل هذا يفسر لنا وجود الفقرة التي تنص على أن يتفقد غوردون أي مهام توكل إليه من قبل الحكومة المصرية ، ولم يكن مرء أن الحكومة المصرية ستعهد إليه بقيادة عمدة الإنسحاب

وقد وافقت الحكومة البريطانية ضمينا على هذا، ولذا يصبح من الصعب وجود تفسير للآراء التي ضمنت في التعليمات . فهم يعتقدون بغوردون ليمدهم معلومات عن أفضل السبل لتنفيذ الإخلاء مع علمهم في ذات الوقت بأنه سيفوم بهذه المهمة فور وصوله . ولعل الحكومة البريطانية أرادت أن تعفى نفسها من المسؤولية، فأوكلت للحكومة المصرية أمر تفويض غوردون بتنفيذ تلك المهمة وتتحمل هي بالباقي التبعات المترتبة على هذا دون أن ترج بالحكومة البريطانية في المسألة .

وضع بيرنج تعليمات جرافيل جانبا، وأخطره في رده عليه أن الأوامر قد صدرت للجهات المعنية لتعمل على ترحيل المدنيين إلى بربر . وأوضح أن واجب غوردون سيكون أساسا تنظيم عملية الإنسحاب . إذن فقد كان بيرنج يرى في مهمة غوردون من البداية إلى النهاية عملية تنفيذية، بحثة وقد جاءت آراؤه المضممة في رسائله منذ التاسع من سابر ١٨٨٤ تتوافق تماما مع هذا الفهم . أما جرافيل فقد إقترح في بادئ الأمر مهمة غامضة فيه واضحة المعالم ، ثم عاد ليعطا المهمة تنفيذية وإنهى بمهمة تقريرية . أما غوردون فرغم إعلائه بأنه لن يستطيع أن يتقدم بتوصيات دون مراجعة الموقف على الطبيعة مرعان ما إتخذ موقفا معايرا . فبعد أربعة أيام من مغادرته لبريطانيا كتب مذكرة مطولة مفادها أن مهمته هي تأمين إخلاء المدنيين والجند من تلك اسلاد سلام، وقد كان من حراء هذا أن لم تناقش المهمة بوصفها هذا

على أى مستوى فى بريطانيا قبل معادرة غوردون ، إذ كان هو والحكومة
بريطانية يعتقدون أنه مبعوث ليرفع لهم تقريراً فقط

إخلاء السودان :

لعل تضارب الآراء حول المهمة نفسها ، هو النتيجة المنطقية للأسلوب
الذى عولجت به طبيعة مهمة غوردون . وبعد وصوله إلى القاهرة تم الإتفاق
بصورة عامة ، بين الأطراف المعنية على إيفاده ليحلى لسودان دون التعرصر
للتفاصيل هنا . أى هل سيحلى كل الحاميات التى ما زالت صامدة فى وجه
قوات المهدي . أو أنه سيجي حاميات بعينها ، وما هى هذه الأخيرة ؟ وهل
ستشمل العملية كل المدنيين ، أو هنأت منهم ، أو أوشت المقسمين فى مدد
معية ؟ كانت كل جهة تحمل أفكاراً خاصة بها حول هذه المسائل . الأمر
الذى أدى بصورة مباشرة إلى بقاء غوردون داخل اسحكمت لخرصوم
عاماً كاملاً محاولاً أن يصل مع الأطراف المعنية إلى اتفاق ، فى حين إستفاد
المهدي من عمل الزمن وحشد طاقاته حول المدينة .

تضاربت الآراء منذ البداية حول موضوع الإخلاء . ففى الفترة التى
كان حرافيل يدعو فيها إلى إبعاد غوردون لقيادة عملية الإنسحاب ، كان
من رأيه أن تشمل العملية كل الحاميات الموجودة داخل السودان بإستثناء
موانئ البحر الأحمر . وقد قلدر عدد جند الحاميات فى ذلك الحين بحوالى
١٥ ألفاً ، كان نوريعهم فى أواخر ١٨٨٣ كالآتى :

دنملا ٨٩٧

بربر ٦١٦

الخرطوم ٢٤٩٠

كسلا ١٢٥٩

سنار ٣٨٩١

قلانات ٥٩٣

الدويم ١٠٨٧

لكوة ٥٠٠

فشودة ٢١٣١

بحر العزل ٨٨٦

ويبدو أن الحكومة البريطانية قد باتت تعتمد بعد إرسال هوردون أن مهمته هي سحب جميع الحاميات ، إذ صرح رئيس وراثتها في مجلس العموم بأن هوردون سيعمل على إخلاء حوالي ٢٩٠٠٠ شخص . ولعله يشير هنا إلى الخمسة عشر ألف جندي بالإضافة إلى عدد مماثل من المدنيين . كما أعلن أحد أعضاء تلك الحكومة ، نورث بروك ، في وقت سابق أن عملية الإنسحاب ستشمل كل الحاميات الموجودة داخل القطر .

أما بيرنج فقد أبدى تافها ملحوظا في آرائه فيما يتعلق بأى الحاميات يجب سحبها . ففي ثلثي وأربعين من نوفمبر ١٨٨٣ بعث برسالة إلى حراثيل يقترح فيها أن تشمل عملية الإنسحاب حامية الخرطوم والمراكز المجاورة بالإضافة إلى التجار الأوربيين والقساوسة الكاثوليك الموحدين في العاصمة . ومن الصعب تحديد أى المراكز يعنى بالمجاورة ، ويبدو أنه يشير إلى حاميات الجزيرة الصغيرة المنتشرة جنوبا إلى جهات الدويم واللكوة . ومن المستبعد أن تكون حامية سار فاحسن هذا التعريف . إذ أنه قدر العدد الكلى بحوالى ٦٠٠٠ نسمة ، ولكنه عاد وغير رأيه بعد حوالى شهر من هذا ، إذ بات يعتقد أن لضبط البريطانى لدى سيوفد إلى السودان سيعطى صلاحيات كاملة ليحرم بإخلاء جميع الحاميات . ويعترف بيرنج بأن هذه العملية ستكون شاقة معقدة ، وإن سحب حاميتى سندر والخرطوم وحدهما سيجلب مشاكل لا حصر لها .

ولعله لما اقترح ترك الحاميات اسائية هي أماكنها ، إذ أن أفرادها لا يتمتعون بحظر مباشر ، فهم قد إستوطنوا فى تلك الأصفاع وخلفوا عائلات ود

مع الأهلىن . ومن لجائز أن يكون رأى بيرنج قد سقر أخيراً على سحب حاميات الخرطوم والجزيرة وسار ، إلا أنه لم يشر إلى هذا من قريب أو بعيد فى التعليمات التى صدرت بغوردون من القاهرة .

أوضحت تلك التعليمات أن الحديوى له رغبة أكيدة فى بذب كل ما يمكن من جهد لإخلاء رعايا الحكومة المصرية دون إراقة دماء ، ولم تحدد بالتالى أما كن أو فئات معينة . ووصف حرمان التعيين مهمة غوردون بصورة فضفاضة ، هى إخلاء السودان وسحب الجند المصريين دون السخول فى التفاصيل .

إذن فقد كانت لسياسة المقرره فى بدىء الأمر ، هى سحب كل الحاميات المصرية فى السودان . وقد أكد هذ إقترح بيرنج فيما بعد الرامى إلى التصحبة بحاميات سار وبحر الغزال ولإستوائية إذا ثبت أو هناك إستحالة فى إخراجها . وهنا يعنى أن الحطة الأولى كانت تشملها ، وقد كان غوردون يحمل هذا الرأى منذ أن صاغ أول مذكرة له فى ٢٢ يناير ١٨٨٤ وقد جاءت رسائله من الخرطوم تحمل إلتراما بتلك السياسة .

وفى مطبع مارس ١٨٨٤ بحث ليرنج برسائه يقول فيها : إن إخلاء الخرطوم مباشرة لن يكون فى مصلحتهم . إذ أن سقرها فى أيدى الأنصار سيكون حتميا وسيعثر . وفقا لهذا ، سحب الجند والمدنيين من كسلا وسار وبحر الغزال والإستوائية ، وأوضح له أنه لن يغادر السودان . حتى لو تم استدعاؤه ، إلا بعد أن يتأكد من أن جميع الرعي الأجانب قد غادروا البلاد .

وقد كان هذ رأى غوردون من ابداءة إلى النهاية . ولم يعترض عليه بيرنج ولا الحكومة البريطانية ، إذن ليس هناك أساس مفع لقول بيرنج إن غوردون قد حور فى مضمون تعليماته بتساسب ورغباته الخاصة ، وأن مهمته كانت تقتصر على سحب حامية لخرطوم وبدل ما يمكن من جهد لبفية

الحاميات . هذه بالتأكيد لم تكن السياسة التي سبق أن أعلنت ونعهد غوردون بتنفيذها ووافق عليها بيرنج والحكومة البريطانية . حقيقة لقد حدثت مراجعة للموقف فيما بعد ، عندما حاربهم غوردون بإستحالة إخلاء جميع المناطق دون عون عسكري وسياسي من الخارج . أعلنت بريطانيا عندئذ إعتراضها على إرسال أية قوات للسودان . ووجهت غوردون إلى قيادة حامية الخرطوم شخصيا إلى تربر مباشرة . وكان رأيهم أنه إذا تمكن غوردون من سحب حاميات الخرطوم وتربر ودقلا سيكون هذا في دانه مكسبا كبيرا .

ولكن غوردون رفض هذه المراجعة ، وأعلن أنه لن يغادر البلاد حتى يعطى كل شخص ينبغي العودة إلى مصر الفرصة ليفعل هذا .

ولم يكن بالإمكان لتخني عن هؤلاء ، وجههم من السودانيين ، والإنتسحاب مع الحنود المصريين ، وبات الأمر بالنسبة له إختلالا بالوعد الذي قطعه معهم . ومسألة كرامة وسمعة شخصية . ولقد نتج هذا الموقف المعتقد من الأسلوب الذي صيغت به تعليمات غوردون . فلم تحدد له مهمته بوضوح ، ولم يكن له أي حزم ، منها يعتبر رئيسا وأبهما ثابريا .

مستقبل السودان السياسي :

لمن يؤمن بالحكم في السودان بعد إنتسحاب السلطة المصرية ؟ تلك هي المسألة ثلاثة التي إختلفت حولها الآراء وتباينت : فزعم أنه كان هناك إتفاق بصورة عامة على ضرورة إيجاد حكم بديل موافق بصورة ما بحكم الإنجليزى المصرى ، إلا أنه لم يكن هناك إتفاق على أهمية هذا بالنسبة للإخلاء . ولأى منهما تعطى الأسبقية . وكيفية تنصيب الحاكم الجديد ، هل ستكون من خلال معركة أم بالوسائل السلمية ؟

ولعل عدم الوضوح هذا ، يعود إلى أن موضوع السوية السياسية قد عولج بصورة متقطعة وغامضة طوال الوقت . ففي مناقشات نوفمبر - ديسمبر

لم تبد أى إشارة إلى ضرورة إيجاد تدبير للحكم المصرى عند انسحابه.
ذكر بيرنج هذا لأول مرة فى رسالته المؤرخة ٢٢ ديسمبر ١٨٨٣

لم تعلق الحكومة البريطانية على هذا ، ربما لأن القضية الخامة والمعالجة
التي كانت تشغلهم فى ذلك الحين هي ماذا هم فاعلون بالسودان ؟ . . إذ أن
سياسة الإخلاء لم تكن قد تقررت بعد . وهي لا يتبرر ؛ عندما قرروا الانسحاب .
لم يرد أى تعييق على مسألة المستقبل السياسى ، ويبدو أن رأيهم كان هو
الإستغناء عن السودان بعد إخلاله ، حتى أن أثر كبير كان على انحرال الذى
سيقتود عملية الانسحاب ، ولم تجد مسألة لحكم إهتماما فى هذا المظهر نادى .
لأن الأبناء التي كانت تتوارد من الخرطوم تنذر بأن شرا مستظيرا قد يلحق
بالرعاب ويهددهم بمصير يشابه ذاك الذى إنتهى ليه جيش هكس بش .

كانت القضية لعاجلة كيفية إنقاذ هؤلاء ، ومن لنى يتولى المهمة ؟
حسنت رسالة بيرنج بتاريخ ١٦ يناير أمر القائد وأوضح أنه سيعطى
صلاحيات عسكرية ومدنية لينفذ الإخلاء ولا شيء غيره . ويبدو أن إقتراح
٢٢ ديسمبر قد سقط فى هاوية النسيان فى الوقت انحصار ، وبعده من ايطيعى أن
تأتى تعليمات لندن التي صيغت بعد يومين من هذا خالية من أية إشارة إلى
مسألة لحكم . ولم يكن ثمة تفكير فى كيفية من المراع السياسى الذى سينتج
بعد انسحاب السلطات المصرية من البلاد .

جاء غوردون ليبيد للأذهان مرة أخرى مسألة مستقبل الحكم فى
السودان ، فأورد فى مذكرته المؤرخة ٢٢ يناير ١٨٨٤ إقتراحا يقضى بتسليم
السلطة فى السودان لأولئك الأشخاص الذين كانت عدلاهم فى الحكم عند
فتح محمد على باشا . وقد وافقت الحكومة البريطانية مبدئيا . على الفكرة
رغم أن المشروع كان يمتقر إلى السواسة الجادة المتأينة . ولعن التغير لجوهرى
الذى طرأ على سياستهم المعلنة لم يعد خافيا على أحد . فقبول هذا لإقتراح
يعنى أن سياستهم نحو السودان لم تعد الإستغناء عنه ، بل إخلاء الرعابا

الأجانب من حند ومدنيين وتنصيب حكام سودانيين يسبقون لهم بأولاء ،
ويحافظون على بقاء النفوذ الإنجليزي المصري ولو بصورة شكلية .

ولا يجب أن يخذلنا تصريح رئيس الوزراء البريطاني تعليقاً على الثورة
المهدية بأن السودانيين يكافحون من أجل الحرية ولهم كل الحق في هذا .
لقد جاء هذا القول أثناء مناقشة مسألة إرسال قوات للسودان للعمل على إيقاد
الاحتفالات ، ولقد وقعت الحكومة البريطانية بصلابة ضد الأمر ، فجاءت بقوله
جلادستون لتبرر هذا الرفض ، إذ لا يستقيم عقلاً أن تبحث بقوات لتهاوي
مواطنين يكافحون لاسترداد حريتهم . إلا أن التناقض الواضح يكمن في
موافقة الحكومة البريطانية على اقتراح غوردون الرامي إلى حل طائفة حاكمة
حددة في البلاد ، هذه الطائفة قد تعرضت لقرصنة من المواطنين الذين ضاع
جلادستون بحديثه . ليس هذا فحسب بل أن الحكومة البريطانية قد وافقت
على كل الخطوات التي اتخذت في القاهرة لحرق مراكز نفوذ معبدة لمهدي .
وأعزى دورث بروك أن أجمع وسيلة لإيقاف زحف المهدي هي وضع
حكم مسمين في كل من الخرطوم وبربر ودنقلا ، وعنلما أثير موضوع
الحاكم الذي سيخلف غوردون جاء إعترافهم على التفاصيل وليس على
المدأ نفسه ، فكان أن أعلنت الحكومة البريطانية أنها ليست بالسلطة التي
تملك حق التعيين ، فطالما أن الأباطورية العثمانية هي صاحبة الحق قانونياً عليها
أن تعين حاكماً للسودان ، وقد رفضت أيضاً التصديق على تعيين الزبير بشا خطماً
لغوردون ، استناداً إلى عدم صلاحية شخصه وليس على المدأ ، إذ أنها
سارعت بإعلان استعدادها للموافقة على أي بديل له وإمناحه بقدر محقون
من المال .

وأيدت الحكومة المصرية اقتراح غوردون الحاص بوضع الحكام
المحبيين في السلطة . كن واصحاب التعليمات أنهم لن يتركوا السودان يقع
فريسة في أيدي الأنصار ، فكلت غوردون بتكوين حكومة صالحة في البلاد ،
وبالسعي لتأمين اعداءه ولنظام في أرجائها .

ولقد أعن بيرنج - صراحة - أن مسألة إيجاد رجن ، أو مجموعة من الرجال لتحفظ النظام في السودان أمر له أهمية من الدرجة الأولى، إذ أن هذه هي الوسيلة التي ستجعل المهدي ينفذ عدده . وكان رأيه أن إسحاب المحكم المصري دون وضع بدليل في مكانه يعنى سيطرة المهدي على البلاد، الأمر الذي سيهز الموقف العسكري والمالي في مصر بدرجة خطيرة .

أما غوردون فقد كان يرى في السودان موقعا إستراتيجيا هاما ، ليسنة لنموذ البريطانى في منطقة الشرق الأوسط . ولأنه من السيطرة عليه . فالتطورات التي تحدث في السودان ستكون لها ردود فعل بعيدة المدى في كل من مصر وبقية ابلدان العربية .

كان رأيه أنه إذا تم لإستغناء عن السودان فسيقع في أيدي المهدي بلا منزع . وستحس كل قرية في مصر وفقا لما أن بإمكانها تخفى وراء الدين لتطرد اندخيل الكفر . كما أن بوادر تداعي الإمبراطورية العثمانية، تجعل من الضروري أن تفرض بريطانيا سيطرتها ولو بصورة إسمية - على الدول العربية حتى تتمكن من إستلام السلطة الكاملة عند إتهيار المحكم العثماني ، وبقاء نفوذها في السودان سيزيد من فرصتها بفرض تلك السيطرة .

وعندما وضع غوردون خطة نصيب المحكم المحيين : رأى أن المهدي الذي لم تكن عائلته ضمن أولئك الذين كانوا في السلطة عند فتح محمد علي باشا يجب ألا يتردد في إحسان علي لإطلاق ، ولكنه عمل على خطته هذه عند دخوله الأراضي السودانية . وعترف بالمهدي سلطانا على كردفان . (١) ولعله قد لمس عن كثب مدى التأييد الذي يحظى به المهدي وسط الأهليين ، فأراد أن يحتل عليهم . ويحد من هذا التيار بإقناعهم أن زعمهم قد أصبح حاكما على جزء من البلاد ، فليس هناك ما يبرر الثورة بعد ذلك . يلاحظ في ذات الوقت أن تعيين المهدي حاكما على كردفان يعنى بقاءه بعيدا عن

(١) عردن الالمهدي ١٢ ربيع الأول ١٣٠١ (١٠ فبراير ١٨٨٤) مرسلات ح/ ١٥١/١٠٠٠

الخرطوم، وبالتالي يمكن غوردون من تنفيذ مخططة تنصيب حكاهم وفق
اختياره في الخرطوم وبقيّة المناطق المتاخمة لمصر والتي هي في الواقع مصدر
الخطر الحقيقي، أما كردفان فتبدو أبعد من أن تؤثر تأثيراً مباشراً على مجرى
الأحداث في الشرق الأدنى .

كان غوردون يعتقد أن باستطاعة هؤلاء الحكام جمع المؤيدين حولهم
وخلق مراكز ثقل مضادة للمهدى ، إذ أن السد الجماهيري الذي يلقاه يعود
في اعتقاده إلى كونه الجانب القوي القادر على حماية أرواحهم وممتلكاتهم
وليس لأنه زعيم ديني . كان رأيّه أن المهدى يتخذ من الدين ستاراً ليغطي
أعماله لا يسدها الحق .

وقد صرح للعلماء عند وصوله الخرطوم أنه من المخزى أن يتخل
الناس عن دياناتهم ويتبعوا مدعى المهدية فقط ليحموا ممتلكاتهم ويستدوا
أرواحهم (١) ، إذ أن السوداني يميل إلى الاحتفاظ بأغنامه إذا طلب منه أن
يختار بينها وبين ربه ، وهم لهذا قد أيدوا المهدى ضد الحكم المصري المتهاكك
الذي فقد القدرة على حمايتهم . فلو نمكس من خالق حكم محلّ تسانده
بريطانيا بقدر من المال فقد يسجح في جذب أنصار المهدى إلى صفوفه .

ولعل تجريبه للثورة من محتواها الديني وتفسيرها على أساس مادي
هو الذي دفع غوردون لتنفيذ مخططة الرامي إلى إعلان سياسة إصلاحية
يمكن أن تجذب الأهالي إليه ، فبات يعتقد أن ماصرة السودانيين للمهدى
مردّها قوته التي أثبتتها خلال عدة معارك . إلا أنه اعترف في ذات الوقت
بالظلم والغبن اللذين ظن يعاني منهما الأهالي طيلة فترة الحكم التركي .
فتصور الحل للأزمة في إيجاد جهاز إداري قوي يعتمد على الوصيّين ويتخذ
برنامح للإصلاح المالي والاجتماعي يشمل بضعة تنازلات في الضرائب وتجارة
الرقيق .

وما أن بدأ غوردون مسيرته جسوا حتى تكشفت له بعض بوادر الترحيب بمقدمه ؛ إذ لم يتوان أهالي نري شمال السودان من إستقباله وتحيته كممثل للحكومة المصرية وبصفته هذه رفعت إليه بعض الطلبات من أشخاص يسعون للعمل في وظائف حكومية ، وفي أبي حمد قدمت له عرائض تعبر عن غطة الأهالي بمقدمه والترحاب به ، وقد رأى غوردون في هذه الإشارات بوادر تأييد له . الأمر الذي شجعه على المضي في مخططة السلف الذكر .

ولئن غوردون كان متسرعاً في استنتاجه من أن تلك البوادر تدل على ضعف التأييد الذي يلقاه المهدي في تلك المناطق . ربما كان المهاجرون من أبناء مصر الذين يقطنون تلك المنطق المتاخمة لبلادهم هم الذين دفعوا رأية الولاء . كذلك في بعض القرى أبداً المشايخ واعبد بوصفهم الفئة التي ستأثر مصالحها بأشورة - مظاهر لإنتهاج بقوم الجبال وقافته الصغيرة ، ومن الصعب في كلتا الحالتين الوصول إلى الحكم المطلق بأن السودانيين بصمة عامة ما زالوا مواليين لمصر ، وكل ما يجب عمله لإستعادة الأمن والطمأنينة هو بعض الإصلاحات الإدارية والمالية ، وتقصير خطة الإخلاء لئى مستقابل بجزع شديد .

ومن ناحية أخرى كان لغوردون إلمام تام : من بعض شهود العيان ، بما آلت إليه الأمور ومدى التأييد الذي يلقاه المهدي . فقد اتصل به عبد القادر باشا حلمي أثناء وجوده في القاهرة وذكر له أن نفوذ المهدي قد تعلل وسط السودانيين بصورة يصعب معها إقتلاعه بالطرق السلمية (١) ، كما أكد له هذه الحقيقة بعض النسوان الكاثوليك الذين كانوا في طريقهم من الخرطوم إلى القاهرة ، وأوضحوا له أن المهدي لن تخصصه إلا القوة ، ثم أن غوردون كان قد إلتقى بأحمد المهندسين البريطانيين ، مستر بيرد (Baird) ، فأسر له الأخير بأن مشاعر السودانيين ، حتى في تلك المناطق ، قد إتجهت بصفة قاطعة نحو المهدي .

(١) إبراهيم فوزى ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

وبلاحظ أن شيورت ، مرافق غوردون في تلك الرحلة ، كان به
رئى مغاير تماما لرأى غوردون ، إذ بات يعتقد أن هيبه الحكومة المصرية
لتخذه في الزوال فعلا .

ولكن يبدو أن تفكير غوردون قد يستقر بصورة قاطعة نحو تنفيذ
المخططة الإصلاحية، ولم يسأ أن يأخذ في الاعتار رأى مرافقه أو آراء أولئك
الأشخاص الذين هيأت لهم الظروف البقاء في موقع الأحداث وليس الحقائق
منذ بدايتها وإلى أن وصلت إلى ما هي عليه .

وما أن وصل إلى بربر . حتى وجد في الأحداث هناك غذاء جديدا
بمحاولة . فقد كان إستقباله حافلا ورفعت له حوالي أربعمائة عريضة من
المواطنين الذين يرغبون العمل في الحكومة . ففسر هذا بأنه تأكيد لسلطة لتي
يمثلها ورغبة في إحلال السلام، وبدأت فكرة الإجراءات الإصلاحية تروق
به أكثر، عذكر عندما مثل عن الهدف من محبته بأنه يسعى للوصول إلى
استقرار وأمن بطرق سلمية . كان إستقبال غوردون في بربر مدعاة إلى الوصول
إلى تلك الأحكام، إذ أن أعدادا كبيرة من السكان تقاصرت نحوه في مبنى
لمصرية ، وفي أيديهم عرائض ذات أهداف متباينة ، وكان رد غوردون
إيجابيا . يتمثل في توزيع بضع قطع فضية كانت بحورته ، ولعل هذا يفسر
لنا تراحم الأهلى حول مسكه . إذ أن الحصول على قطعة نقد مقابل
عريضة لا تكلف سوى فيحة الورق الذى كتبت عليه هو أمر شديد الإغراء .
وبالإضافة إلى هذا أمر لجنرال بتوزيع كميات من الدرة على الأهلى .

ولعل هذه الإجراءات قد أدت إلى إستمالة بعض سكان المدينة إلى
صفه، فسارع بنوره إلى تكوين حكومة يمكن أن يلتف حولها المؤيدون . هذه
الحكومة قوامها مجلس من الشيوخ يكون مسؤولا لديه رأسا بوصفه حاكما
عاما للسودان، وممثلا للحكومة البريطانية ، وقد كان يعتقد أنه بهذا سيتمكن من
القضاء على المهدي في ظرف شهر واحد، من يسعى بعده محمد أحمد بأنه

تخطط غوردون للإستعانة بالأعيان ، فهم القذة التي نحشى على مصلحتها وذاتها من الثورات ، علاوة على أن إختيارهم لجهة ما يندى تلك الجهة بجموع مؤيديهم وذويهم .

قرب غوردون إليه حسين باشا خليفة . زعيم العصابة الذين يسيطرون على المنطقة المسماة شمالا من بربر حتى حدود مصر ، وكان صاحب عدة مزارع في تلك القرى ، وبذلك منزلا في أسون ، ولا بد أن الشك قد سور به في مصير ممتلكاته تلك في حالة نجاح المهدي في لسيطرة على البلاد ، فوجد غوردون في نفسه إستحاجة لتأييده ، فأمر له بأمر فرمان الإخلاء (١) ، وتخوف حسين خليفة فطلب من غوردون ألا يعلن هذا خشيته من «عواقب» (٢) ولكن غوردون تجاهل هذا الرأي . فكشف الثرمان لمجلس الأعيان الذي سيقوم دمر الحكومة في مديرية نوير ، ضم المجلس بعض الموظفين الذين سبق أن عملوا في خدمة الحكومة . أمثال القاضي محمد أفندي الظاهر ، ومحمد أفندي حعل . ومن زعماء القبائل جاء بالشيخ أحمد الحابري ، ومحمد أحمد هاشم ، وسيمان اغا ، ومحمد علي عمر من الماصير ، ومثل المجاذيب أمين اغا أحمد المجذوب . ويعني تكوين هذه الوحدة لإدارية بقية المنطقة تحت انفراد المصري حين يتم تنفيذ سياسة الإخلاء . وقد كان كشف الثرمان لهم بمثابة إستغلال لإصابعهم وطموحهم في السلطة ، وما داموا سيقون حكام بعد إنسحاب الحكومة المصرية فعليهم إذن الحفاظ على ممتلكاتهم الحالية من نفوذ المهدي وأتباعه .

ويبدو أن غوردون قد صد اعزم على تنفيذ ذلك المخطط ، فقد كان يعلن للأهالي في انقري ، وهو يتقدم نحو لحوطوم ، عن إسحاب الحكومة المصرية . ولعلها كانت محاولة سحد من موجة الإنعطاف نحو المهدي ،

Ohrwilder, p. 123.

(١) .

Stain, p. 297.

(٢) .

فإذا كان الأهالي قد ثاروا ضد الحكومة المصرية فقد أعلن لهم إتساحتها وليس هناك ما يبرر إضمامهم للمهدى .

أما من الناحية المالية فقد حطط غوردون ليخفف العبء الضرائبي عن الأهالي كجزء من سياسة الإصلاح ، فأعلن تخفيض تقديرات الضرائب إلى النصف ، كما ألغى كل المتأخرات حتى نهاية عام ١٨٨٣ ، وأوضح للأهالي في إعلان نشره على نطاق واسع أن هدفه هو استتباب الأمن العام وإدخال النظامية في النفوس . ولما كان على علم بالتدمير الذي أحدثته إجراءات الحكومة فيما يتعلق بتجارة الرقيق فقد ، أتى فسخ إتفاق عام ١٨٧٧ (*The Anglo-Egyptian Convention*) الذي كان ينص على عتق الرقيق عند نهاية ١٨٨٩ . وكان غوردون يعتقد أن هذا الإجراء قد يساعد في إستعادة شعبية الحكومة خصوصا وقد دعم له أحد المهتمين البريطانيين عندما التقى به قبل وصوله إلى بربر أن السودانيين قد أيسوا المهدى لأنه يبيع لهم تجارة الرقيق .

بالإضافة إلى سياسة تهدئة الخواطر وإصلاح ما أفسدته الحكومات السابقة . رأى غوردون أنه قد يكون مفيدا إستعمال سلاح الإرهاب ، فأعس أن السلطان توصفه حلقة المسلمين ، كان ينوى إرسال قوة من جنود الأتراك الذين عرخوا بشجاعتهم وبأسهم لإستعادة المناطق المتمردة ، ولكنه تدخل شخصه لإيقاع تلك الإجراءات حتى تنسى له فرصة دراسة أسباب التدمير عن كثب .

ولعل الهدف من وراء هذا الإعلان هو إمكان إستعماله وسيلة للضغط على الأهالي لقبول إجراءات إصلاحية ، إذ أن رفضها والإنخراط في سلك المهدية سيعرضهم إلى حرب إنتقامية بشها حدود الأتراك . وهو يكشف من ناحية أخرى عن تخوف غوردون من إمكان نجاح السياسة السلمية التي كان يذاع عنها في بادئ الأمر . أو على الأقل تخوفه من ألا تكون تلك الإجراءات وحدها كافية لإغراء الأهالي للالتفاف حول مجلس الأعيان .

وفي نفس الوقت الذي كان يحاول عوردون جاهداً استمالة أهلى المنطقة إلى جانبه ، كان زعماء الأنصار يعملون بنفس القدر من الحماس . فبدأت قوة منهم تحت قيادة لشيخ محمد خير تزحف نحو بربر .

ولم يتردد هذا فى توجيه رسائله لنفس الأعيان الذين وصمهم عوردون فى مركز لسلطة ليسصروا تحب رايته . فما كان من هؤلاء الا أن عبروا النين إلى الشاطئ الآخر ، حيث كانت ترابط قوات المهدي ، وأنضموا اليهم دون أدنى اعتبار للالتزام بسياسة عوردون (١) .

ولعل هذا النصرف كان تابعا من تقديرهم لقوة المهدي بالمقارنة إلى نفوذ الحكومة . فقد أصبح حلياً أن الحكومة تفقد كل صاحب أرضا جديدة . وقد جاء عوردون وهو يحمل معه الأمنيات الطيبة وبضعة عملات ذهبية م تكن لتساوى شيئاً أمام جحافل الأنصار .

بالإضافة إلى هذا ، فقد كان إعلان حرمان الإخلاء فى غير مصلحته ، إذ أن الأعيان الذين أراد أن يغريهم به قد أيقنوا بإنتهاء نفوذ الحكومة ، فلم يترددوا فى إخطار ذويهم بهذا .

فتناطرت مشايخ القرى الواقعة جنوبى بربر لإعلان تأييدهم لعمال المهدي ، وفى الممتمة لم يتردد شيخ مثل على ود سعد الذى عرف بأمر القرمان من عوردون من إنضمام إلى المهدي لينجو بنفسه .

المصل الثالث

مخططات غوردون والمهدى للسيطرة على الخرطوم

تهدف الخطة الإصلاحية في الخرطوم :

وصل غوردون الخرطوم في الثامن عشر من فبراير ١٨٨٤، وما رلت افكاره الرئيسية حول مهمته تتوافق تماما مع السياسة التي سبق أن أعلنها ونفذها في بربر ، إذ كان يرى فيها الوسيلة المعالة لجذب الأهالي نحو حكومته . كان يعتقد أن ثقة السكان في الحكومة المصرية لم ترعرع ، وما زالت رغبتهم في بقائها أكيدة ، ولا يجد المهدى بينهم تجاوبا أو عطفًا . ومن ثم استقر رأيه على مساعدة تلك الفئة التي قدرها بثلاثي سكان الخرطوم والتي كشفت عن وغبة حقيقية في استتباب الأمن .

ولقد انتهجت المدينة التي قدر عدد سكانها بـ ٤٣٠٠٠ نسمة تقريبا بوصول غوردون (١) ولا بد أن أعليتهم رأيت في مجيئه إنقاذًا لها ولسلطاتها وممتلكاتها من الثورة التي أوشكت أن تسيطر على المدينة ، لا سيما وأن الخرطوم كانت بوصفها عاصمة البلاد . مقرا لعدد كبير من الأجانب . ولا بد أن هؤلاء كانوا يشكلون قسما كبيرا من الفئة التي وصفها غوردون بثلاثي السكان الذين لا يجد المهدى بينهم تأييدا أو تعظما . ومن ثم استند من موقفها هذا تفاوله واستند على مشاعرها في إقرار الصيغة النهائية لتصفية الثورة .

كان سكان الخرطوم خليطا من ثلاث مجموعات . مجموعة أوربية ، وثانية شرقية ، وأخرى سودانية (٢) . شكل الإغريق والايطاليون والنمساويون أغلبية الأوربيين . أما الشرقيون فقد كانت أغليتهم من المصريين والسوريين الذين

Nushi Pasha, p. 16.

(١)

(٢) أبو سليم ، « مدينة الخرطوم في التاريخ » ، الخرطوم يناير ١٩٦٦ ص ٨ .

كانو يمثلون أكبر مجموعته من الأحزاب على الإطلاق، إذ قدر عددهم في عام ١٨٨٠ بسبعمئة ألف تقريبا، ولكن يبدو أن أعداد منهم كانت قد غادرت البلاد بعد إندلاع الثورة، وعلى الخصوص بعد هزيمة هكس ناشا (١). وشكل الجعليوب والدفاقلة أغلبية اسودانيين الذين كانوا يمثلون في مجموعهم خمس سكان المدينة. ولكن هذا العدد كان قد تقلص في مطلع عام ١٨٨٤، إذ هجر بعض الدفاقلة منازلهم واستقروا بقرية الكاملين جنوب لحرطوم (٢). يشكل السودانيون المقيمون في المدينة لطبقة الفقيرة عموما، إذ استطاع الأحابس السيطرة على مبادئ التجارة بحريتهم وعملهم، فكان الإعرنوق هم أصحاب لقدح المعلى في هذا المجال. أما لخدمة المدينة فقد سيطر عليها المصريون كموظفين موفدين من قبل حكومتهم، في حين حظى الأتراك بالوظائف الكبرى في جهاز الإدارة.

وحد غوردون إدد عند وصوله أن الأجانب يمثلون أغلبية اسكان وفي أيديهم الثروة والسلطة، وكانوا يرون مصلحتهم في بقاء المدينة تحت قبضة الحكومة، لقائمة مهمات كلف الأمر ولعن غوردون قد لمس الحقيقة حين قال إن المهدي لا يجب تأييدا بينهم. ففي رسالة لمراسل صحيفة التايمز من الخرطوم ذكر أن فئة التجار من هؤلاء ترغب بطبيعة الحال في مقاومة المهدي والتمسك بالحكم المصري لآخر لحظة. ولعلمهم لهذا السبب توسلوا لغوردون كي لا يشرع في تنفيذ خطة الإنحلاء. إذ أيقنوا أن سياسته السلمية التي أعلنها لن تسجح بأية حال في قلب ميراث القوى لصالحه. وكان أصحابا بعد معركة شيكان أن الخرطوم ستكون هدف المقلل للمهدي، الأمر الذي أثار موجة من الذعر بينهم وأصبح جليا أن الحكومة بإمكاناتها تلك لن تتمكن من خلق شبكة دفاعية فعالة للمدينة، فأتجه التجار إلى تصفية أعمالهم تاهبا بعددتها متى ما بدأ الخطر ما تلا على الأبواب.

Cuzzi, p. 41.

(١)

Nushi Pasha, p. 4.

(٢)

ودهب كل جهودى كتلو جن فى تهدئة الحو، طر أدراج ارياح .
اذ فقدت الأغنية نقتها فى الحكومة ولم يعد بإمكان رجائا إختفاء حقيقة الموقع
الذى يحتله المهدي ، فقد كان يكسب كل يوم أراضى حسنة ، وتتصاعد
بالسمر موجة الكرامة ضد الحكومة والأجانب بصفة عامة .

ولكن محيى غوردون بعث فى نفوسهم أملا جديدا ، غير أنهم كانوا
يرون من الضرورى تطبيق خطة عسكرية لحماية الخرطوم . ومن هنا جاء
توسلهم له للبقاء على حصور المدينة (١) ورغم أن غوردون قد شرع فى
بدىء الأمر فى تنفيذ خطته الإصلاحية لإحياص الثورة سلميا إلا أنه اضطر
فيما بعد إلى الإمشال إلى رأى تلك الفئة فى مواجهة المهدي عسكريا .

ورغم قلة السودانيين داخل الخرطوم فقد عمل غوردون على
إستمالتهم وإستمالة أوئك الذين يقيمون فى المنطقة بأكملها ، فجاءه فى خطابه
الأول لدى أملاه على إبراهيم بك بيب بأمور الضبطية قوله : « إنكم لا
تجهلون شفقتى عليكم ، ومحبتى لكم ، وقد سمعنى ما سمعته عنكم حيث
نشبت الحرب بينكم ، وتعطلت تجارتكم ، ومفكت دماؤكم ، ومعتم من تأدية
مريضة لحج لى هى من أركان الإسلام وزيارة قبر النبى (ص) وقد ساء
هذا الحال كل من جلالته للملكة وسمو لحايوى المعظم » (٢) . ثم برهن على
حسن نواياه بإتخاذ جملة قرارات ، فأعلن عن تحييض الضريبة المقررة
إلى النصف مع العاء المتاحرات حتى نهاية عام ١٨٨٣ (٣) . كما قرر إصلاق
سرح جميع لاجئاء بإستثناء «قتلة» ، وأعلن أيضا العاء الإتفاق الحاص بعنق
الرقيق ، وكان غوردون يهدف من وراء هذا إلى تغيير لصورة السابقة التى
عرفها السكان عن الحكم لركى . فهذه إدارة حديدة متعاطفة معهم وتتخذ
موقفا يختلف كثيرا عن مواقف الإدارات السالفة . وما دام الحال هكذا

(١) إبراهيم فوزى ، ص ٢٧٦ .

(٢) محمد عبد الرحيم ، ص ٨ .

Nurmi Pasha, p. 5.

(٣)

فقد يقتنع البعض أنه ليس هناك ما يبرر من صيتها العداء بالإقصاء إلى المهدي.

شرح غوردون بعد ذلك في تكوين إدارة محلية قومها مجلس الأعيان، كما فعل في بربر، وبلاحض أنه لم يشر الأمران الخاص بالاحلاء هنا، إلا أنه قد أشار إليه في خطابه الأول حينما ذكر أنه متدب « من قبل حكومة صاحبة الجلالة لملكة لاكون وأليا على اسودان ومرحضا في فوق المعادة. وقد صار فصل السودان عن مصر فصلا تاما ووض إلى الحكم المطلق » (١).

وفي هذا إشارة صريحة إلى مصموم لقرمان. إلا أنه لم يذكر مسألة إسحاب الجند، ربما تخوفا من رد الفعل السيء الذي أحدثه الإعلان في بربر، وقد نعت برقية إلى الحدودى مظهره فيها أنه لم يكشف عن أمر جلاء العساكر المصريين خوفا من الإضطرابات التي قد يثيرها الإعلان.

وذكر غوردون للأهالي أنه ينوي تشكيل حكومة من الوطنيين حتى يستطيع السودان أن يحكم نفسه بنفسه، وقد كانت فكرته هي سحب الجند والموظفين المصريين وتعيين حكومة جديدة يمكن أن تقف في وجه المهدي وتحفظ بالخرطوم في قبضتها، وهي حكومة سودانية في مظهرها. إلا أنها تدعى بالولاء للحكومات التي أتت بها إلى السلطة.

عين غوردون عبد وصوبه عوض الكريم أبوسن، رئيسا لمجلس الأعيان ومديرا بالخرطوم في ذات الوقت (٢) وقد إختار أبوسن وأبعم صبيه بلقب البشوية، لأنه كان شيخا ذا نفوذ وسط قبيلة اشكرية التي تشكل أكبر

(١) محمد عبد الرحيم، ص ٩.

(٢) عوض الكريم باشا أحمد أبي سن (١٨٨٦ -) الابن الأكبر لأحمد بك أبو سن، عين مظهر لشكرية في ١٨٧٢ بعد موت والده ترك النظارة لتتحقق مريضه في الحكومة بالخرطوم، عين أخوه على قمار مكانه. إلا أن عوض الكريم عاد مرة أخرى للنظارة عند تدلاع الثورة المهدية وناصر الحكومة. لم يمكن من انخسود إلى الخرطوم خلال فترة الحصار فمات في معتقة ريرة إلى أن سقطت المدينة. اعتقله خيفة عدله فيما بعد ومات سجيناً

Hill, *A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan* pp. 63-4.

تجمع قلى فى منطقة الخرطوم، إذ قُدر عدد أفرادها بـ ٣٥ ألفا تقريبا (بالمقارنة مع ستة آلاف من أنباطاين، وأربعة آلاف من الحسات، وبضعة مئات من كل من الحسانية والإمامية واقريبات) ، فأنحياز أبو سن إلى جانب الحكومة سيعنى كسب أعداد كبيرة من أفراد تلك القبيلة ، هذا بالإضافة إلى أنه حتى ذلت الحرب لم يرل فى ولايته للحكومة المصرية ، فقد حارب مع قوات حيدر باشا ضد الأنصار فى عام ١٨٨٢ . وعند بداية حصار صالح الملك فى جزيرة قداسى سار أبو سن لعدته . وحاول إحتلال موقع مقابل للجزيرة ، إلا أن أبه عبده الله الذى أعلن إنضمامه للمهدى سبقه إلى هناك فأحتل الموقع (١) جاء إذن إختيار غوردون لأبى سن بمثابة الإعراء لبقى فى ولايته للحكومة . وقد يحر من ورائه بعض بصون الشكرية . وقد ضمت عصوية المجلس السعيد باشا حسين ، وهو جلى عم فى لجيش مصرى وعرف بإخلاصه لغوردون منذ ولادته الأولى فى السودان ، إذ نهه آنذاك إلى مؤ مرة كان يحيكها سليمان الزير بدافور . فأنعم عليه غوردون برتبة البكباشى .

ويبدو أنه كان يتمتع بقدر من الكفاءة العسكرية ، إذ عين فى عام ١٨٨٣ قائدا لقوة يدوم . ولعل غوردون كان يسمى لعميل بعض الضباط فى المجلس حتى ساهموا بخبرتهم فى الأمور الحربية التى قد تواجه المدينة ، فبالإضافة إلى السعيد باشا . عين حسين باشا إبراهيم الشلالى ، ومن موظفى الحكومة جاء بابكر أفندى الجركوك ، ومحمد باشا حسين ، وهو مصرى الجنسية عين فى ذات لوقت مديرا للماية . ولم ير غوردون فى تعيينه خرقا لمبدأ تكوين حكومة من السودانيين ، إذ أن محمد باشا قد حضر إلى الخرطوم منذ طفولته ومارس التجارة وإشتهر بها فأصبح من كبار تجار فى عام ١٨٨٣ (٢) .

(١) باكر بدوي ص ٢٨ .

(٢) قوم شفير ص ٦٩٢ .

وفي نطاق سياسة لاستعانة بزعماء القبائل ليكسب ذوي عشيرتهم
أشرك في المجلس سليمان أحمد ود الملك، والحاج ناصر أبو حسوس، كما قرب
إليه رجال الدين والفقهاء أملا في الاستفادة منهم فيما بعد في إصدار الفتاوى
التي تلحظ إدعاءات المهدي، فمثلهم بالشيخ محمد الأمين الضيرير رئيس
ومميز علماء السودان، وحسين المجدي الذي كان مرسما بالجمع، والشيخ
عبد القادر إبراهيم المعروف بقاضي الكلاكلة (١).

أراد عوردون أن يفوز أيضا بولاء تلك الفئات من سكان المدينة التي
تعاطف سرا مع المهدي، فتعرض للرسالة التي بعث بها إليه في الخطاب الذي
ألقاه يوم وصوله إلى الخرطوم بقوله : « وقد خابرت السيد محمد أحمد
المهدي بفحوى مأموريته وأعترف له بالسلطة على السودان لغربي برمنه، على
شرط أن لا يمد يده لغيره .. ولي الأمل بأن اعلاتق منتصح بيني وبين سلطان
الغرب وثقة العرب » (٢).

هدف عوردون من وراء هذا بلا شك إلى كسب تلك الفئة التي
أوشكت أن تقف في الخط المعتاد له، ولا بد أن تصرّحه ذلك سيجعلها
تتخفى بصورة نهائية عن أي فكر هي خلق فعدة للمهدي وسط العاصمة
تقسما فالمهاجر لم يعد عدوا للحكومة تدرج محاربه، بل وجد الاعتراف
الرسمي، ولم يعد هناك ما يبرر رفع راية العصيان سواء في أسر أو العلانية.

وعمل عوردون على كسب فئات من مجتمع امدينة عن طريق الإغراء
النادي، وقرب إليه العلماء وجعل لهم رواتب عينية وتقديية، واستطاع أن
يستغلهم في خلق جبهة دينية مناوئة للمهدي، فكانوا يلقون الخطب في

(١) Nushi Pasha P. 5.

(٢) محمد عبد الرحيم، ص ٩.

القول بأن المهدي قد عين سلطان على الغرب غير صحيح، إذ كان الثمين على كردان فقط
وأيضا هذا رد المهدي لعوردون حيث يقول « أنك تزعم اردة اصلاح امسيين .. وأن
تجسنا سلطانا على كردان » اتدارات ب. ص. ١٠٩ - ١١٨.

المساجد يكسبون فيها دعاءات المهدي ويصورونه كعدو للمسلمين (١) .

ويبدو أن غوردون قد صلب منهم تحرير الخطاب الذي أرسل إلى الشيخ عبدالقادر ، وعبدالحسين النجومي ، بتاريخ ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ . وقد تعرضوا فيه إلى بعض أقوال المهدي بنصوص من الأحاديث والفتاوى الإسلامية ووصفوه بأنه مرتد لأنه فارق الجماعة « وشق عصا الإسلام » ، وحرب ديار المسلمين ، ونهب أموالهم ، وهتك أعراضهم ، وسلط بعضهم على بعض بما يوجب إرثادهم حيث استحوذ قتل المؤمنين ، وهتك أعراضهم ، ونهب أموالهم ، وسمهم الكفرة بدون وجه مع إقامتهم شعائر الدين وسوكتهم الطريق المبين (٢) .

وقد ذيلت هذه الرسالة بمضاء كل من الشيخ محمد الأمين ، والشيخ حسين المجدي ، والشيخ محمد حوجلي قاضي عموم السودان ، والشيخ شاكرك أفندي مفتي لإستئناف ، والشيخ محمد موسى مفتي مجلس الخرطوم .

وكانت هذه محاولة لإضعاف التأييد الذي يلقاه المهدي ، فالولئك الذين يثقون في مقبرة العلماء يمكن أن يروا فيه رجلا خارجا عن أصول الدين وتقاليده .

يستعمل غوردون أيضا طبقة « القمراء » وامتصوفة ذات النفوذ وسط لأهالي ، وطلب منهم التوجه إلى الله بالدعاء ليعين المسبية ، وكانوا يتقدسون على هذا أجراً ثانياً من خزينة الدولة (٣) . وعمل أيضا على مراعاة العادات والتقاليد الإسلامية ليدحض إتهامات المهدي للإدارة تركية بعينها وتجاهلها للدين وإنشغالها بغير الله .

(١) أيردهم لوزي ، ص ٢٤٦

(٢) العلماء المروضة يسأرون أدناه إلى الشيخ عبد القادر وورد النجومي ٢٢ ذو القعدة ١٣٠١

(٣) ١٥ سبتمبر ١٨٨٤ (ملحق ج) .

Nushi Pasha, p. 30.

(٣)

كما حاول أيضا إستمالة فئات أخرى وذلك بالإعتماد على أفرادها بالترتب والألقاب ، فبدأ في توزيعها يمتة وبسرة حتى « وصلت رتبة اليك والباشا الرفيعة لشأن إلى أوباش الدس كالحجج و لجزائر » (١) .

كانت سياسة غوردون ، إذن محاولة كسب السكان عن طريق إعطائهم بعض السلطات الإدارية وتحصيف الضغط الإقتصادي الذي كان من محلفات الحكومات اسانفة ، بالإضافة إلى بعض الإجراءات الإصلاحية الأخرى . وكان يعتقد أن الحكومة التي سبكوها لتخلف الحكومة المصرية سنلقى التأييد الذي يمكنها من مواجهة المهدي . فكتب ليربح يطمته على إمكانية إخلاء الجند والموظفين المصريين من المدينة ذاكرا له هي نفس الرسالة أنه كان يحشى من اضطرابات قد تثيرها لعناصر المدنية ، ولكنه كسب تأييدهم بواسطة بعض الإجراءات الإصلاحية .

ولكن يبدو أن تحوف غوردون هذا ظل قائما ، وم منح تلك الإجراءات تماما في إستمالة السكان ، فأخذ يستعين بسلاح الإرهاب . فأعلن في المدينة أنه لولا تعاطفه معهم لكان الآن تحت رحمة قوة عسكرية ترسل خصيصا لإحضارهم . وقد أصبح سلاح الإرهاب جزءا من مخطط غوردون لإقرار السلام . فإذا كن في الإمكان تبليغ الأهالي بصورة غير رسمية عن احتمال لإرسال قوات تركية فقد بدعهم هذا إلى هجر المهدي .

وكان يعتقد أيضا أنه من المفيد نشر إشاعة فحواها أن هناك إتجاها لإرسال قوة إنجليزية للسودان ، فهذا أمر بلا شك سيثير الفزع ، وربما ساعد في جذب بعض العناصر المعادية ، فأصدر منشورا بهذا المعنى بعد أسبوع تقريبا من وصوله يقول فيه إنه « لعدم إقبال الأهالي عليه مع ما أزاله من المظالم والمقارم وإطلاق أسجاء وإحراق دوائر الأحوال المتأخرة جميعها قد يضطر لإستحضار عساكر إنكليزية لقمع التأثيرين » (٢) .

(١) أحمد العوام ، ص ٥٥

(٢) أحمد العوام ، ص ٥٥ .

إستراتيجية الحصار فى تاريخ المهديّة :

إنحصر نشاط المهدي الشخصي حتى أواخر ١٨٨٣ فى كردفان ، فى حين أو كن لاتباعه مهمه رفع رايه الثورة فى أنحاء مغرقة من البلاد، ولم يستثن منطقة أواسط السودان من هذا النشاط، فعقد لواء قريتهما محمد الطيب البصير . كان تقليد المهدي هو ترويد عماله بالرسائل والمنشورات الموجهة إلى رجال القبائل والعلماء، بدعوتهم فيها إلى مساندته، ويبدو أنه قد أرسل مع ود البصير بعضا من هذه لسكران منطقة الحرسوم . ويعود تاريخ أول رسالة هؤلاء معروفة حاليا إلى ١٠ محرم ١٣٠١ (١١ نوفمبر ١٨٨٣) أى أنها قد كتبت بعد ستة أيام من معركة شيكان فى ٤ محرم (١) ومن المرجح أن يكون المهدي قد بعث لهم بعلّة رسائل قبل هذا التاريخ فهو بينهم هذا فى الرسالة المشار إليها آنفا . ولعل هذه الأخيرة قد إستحوذت على إهتمام خاص لإختلافها عن سابقتها من حيث أنها أشارت صراحة إلى ضرورة إعلان الحرب على الحكومة فى عاصمتها . ويستطيع القارئ أن يجد تفسيراً منطقياً لهذا الإنجاء لتحديد الذى برز فى نشاط المهدي، لم يعد يدعو الناس للهجرة إليه وحسب، بل لإلقاء حصار على الخرطوم، تفقد به جميع المسالك، ويمارس بواسطة ضيقا على السكان حتى يستسلموا ويهلكوا بداخلها جوعا . جاء هذا النداء بعد إندهار جيش هكس بشا أمام الأنصار ، وهى هزيمة أمنت له السيطرة على السودان الغربى برمته . كما كان ذلك الجيش يختلف فى عده نواح عن الجيوش التى سبق للمهدي أن سحقها .

فبعد قوة أرسلت خصيصا من مصر بغرض القضاء نهائيا على الثورة ، فهزيمتها تعنى مقبرة المهدي الفائقة على دحر الجيوش التى تنظمها حكومة الحديوى عسها ، بالإضافة إلى هذا، فلقد جلس على قمة القيادة مجموعة

(١) المهدي إلى علاء وفلان من هان الحرسوم ١٠ محرم ١٣٠١ فيوسفات ٢٩/٣.

من الضباط البريطانيين ، الذين تلقوا تعليما وتدريباً عسكرياً منتظماً (١) وكان من الطبيعي أن تتضاعف ثقة المهدي في نفسه وأتباعه بعد هذا الانتصار ، وبدأ تفكيره ينفتح حديداً على السيطرة الكمية .

ومن ناحية أخرى فقد إهترت بعد شكايا الصورة التي عرفت بها مصر وبريطانيا كمثال للقوة والعبورية ، وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة لدولتين الكبيرتين ، فلا بد أن تكون هيئة حكومة الخرطوم قد رالت تمرداً . ولم تعد هي تلك الحكومة المهابة التي كان جندي واحد من جنودها « يرهب رهطاً من الاهيين » ولقد كان في هذا تهينة نفسية من الدرجة الاولى للمهدي ليقود حملاته الختامية .

ولقد صاحب تلك التهينة النفسية إطمئنان لموقفه العسكري ، فإذا كانت حامية الخرطوم ستدفع عن نفسها بالأسلحة البارية فقد عثم المهدي من جيشه عكس باشا الكثير من تلك الأسلحة .

كانت أمم المهدي وسنتاه للسيطرة على الخرطوم ، أولاهما حشد كل قواته في المنطقة والإبقاء على الحامية في هجوم مباشر ، والثانية إلقاء حصار حول المدينة وممارسة حرب إشتراكية بطيئة يفقد غوردون خلالها أعداداً من قوته المحاربة وعقاده ومؤنه ، ويضطر في النهاية إما إلى التسليم أو إلى الدخاع الشكلي . ويبدو أن المهدي قد عزم منذ البداية على إتهاج الطريق الثاني ، كما كشفت رسالته المؤرخة ١٠ محرم ١٣٠١ هـ . ولعله إستند في قراره على تجاربه السابقة ، فلم تزل محاوله الهجوم الفاش الذي شنه على الأبيض مائلة في الأذهان ، في حين كانت حصيلة واحدة من الانتصارات التي تمت عن طريق الحصار

ارتكزت خطة الحصار — كما مارسها الأنصار — في مواقع كثيرة في الغرب على قاعدتين . الأولى عزل الموقع المحاصر عن العالم الخارجي

(١) كان مع عكس باشا من البريطانيين . انجور مارس ، الميجور فرور ، كابتن ماس ، كابتن دارتر ، كابتن أفانس . محمد عبد الرحيم : ص ١٣٤ - ٥ .

بصورة عامة، بحيث يستحيل على حكامه إيفاد أى مبعوثين لطلب الإنقاذ من مراكز أخرى . كما يستحيل على أية قوة آتية من «خارج» الوصول إليه دون أن تتعرض هى نفسها لهجوم عنيف قد تقاومه وتنتهى باهزيمة أو تؤثر التسليم بلا إراقة دماء . أما القاعدة الثانية وهى الرقابة المشددة على دخول أى مواد غذائية للمحاصرين، حتى يجبروا على إستهلاك مخزونهم، ومع الأيام تنحصر مقدرة الجندي على القتال ونهار معنوياتهم، وحينما يوجه لأتصار ضربتهم فأما أن يرفع المدفعون الرأية البيضاء أو يواجهوههم بمقاومة هزيلة لا تشكل بأى مقياس خطراً على المهاجمين .

يكشف تاريخ فتوحات المهدي فى الغرب أن أول تجربه للحصار قد تمت بنجاح فى موقعة البركة فى مايو ١٨٨٢، عندما بحث المهدي بعبد الله ود الولد لإستنفار قبائل الحمر، وأنديرية، ودحوازمة، لقرص ذلك الحصار (١) ثم أعقبه حصار الطيارة فى شرق كردفان بقيادة ابنه إسماعيل، وجند له بنى قومه من لجمومة، فدام من ٢ يوليو إلى ٦ أغسطس ١٨٨٢ .

ولعل تجربة لهجوم المدشر الذى شته رحمة محمد موفل على بارا فى ٢٤ يوليو وصدها لذلك الهجوم قد أقتعت الأتصار أكثر بإيجابية سياسة الحصار . فشرعوا فى محاصرتها بإحكام وتمكنوا من قتل جميع السروپ المؤدية إليها، وبعد صمود دام خمسة أشهر اضطرت بارا للتسليم لنقاد مواده الغذائية .

ولقد جاء حصار الأبيض فى منتصف ١٨٨٢ ليزيد من تجارب المهدي فى هلك الميدان، تكت لتجارب التى كان لها أبلغ الأثر فى كيفية التصدي لحماية الحرطوم فيما بعد والإستيلاء على المدينة .

تعود صلة المهدي بالأبيض إلى ما قبل الجهر بدعوته، فقد درج على ريارتها بالانتصام، ووطد علاقته بأصحاب النفوذ فيها من الأعيان ورجال الدين،

(١) MacMichael. *The Tribes of Northern and Central Kordofan*, p. 37.

وكان ينشر بينهم تعاليمه لداعية إلى العودة لحياة فجر الإسلام
بها فيها من لقاء في الروح وصفاء في السيرة والسيرة

ويبدو أن تفكير المهدي قد إحصى في تلك الآونة في غرب السودان
- الذي تمثل الأبيض قلبه النابض كهدف مرحى لبعونه . عرفت المدينة
بعرافتها في المذاهب التجارية ، فاهتمت بها الحكومة التركية عند الفتح وجعلتها
مركزا إداريا هاما شيدت فيه دارا للمديرية ، وثكنات للجيش ، وفتحت مدرسة
ابتدائية . وأقامت مستشفى ، وقد قلر عدد سكناها بحوالي خمسين ألفا ، بينهم
أعداد كبيرة من التجار الحعيين والناقلة والمحس ، الذين أقاموا بها بصمة
دائمة جنباً إلى جنب مع قبائل تلك الجهات . كما عرف بين ساكنيها تجار
من الهند والشام ودول أوروبا (١) .

ولم يكن خافيا على المهدي أن إستيلائه على الأبيض سيكون قفزة كبيرة
بالدعوة ، فمهد طريقه بالزيارات المتكررة لأهلها ووجد علاقاته بالتجار
والأعيان أمثال أولاد محمد بن العريق ، وأولاد عربي ، والهمكي مكوي
لركابي ، وولد أبو صعبه ، والياس باشا أم تريز ، وبنات الرزقي ، وحاج
خالد العمري . ويبدو أنه قد ترك إنطبعا حسنا في المدينة ، فقد أخذوا بعلمه
وتواضعه وطلاقة لسانه .

لم يسجته تفكير المهدي نحو انخرطوم في ذلك الوقت ، ولم تشر الوثائق
إلى أنه قد أقام أي صلوات مع أهلها ، وبعده لم يفعل كي لا يقدم نفسه فريسة
سهلة للحكومة وهو أعزل من المؤيدين . فاختار مكانا بمنأى عنها حتى تتسنى
له فرصة تكوين جبهة جماهيرية عريضة ، تملك المقدرة للتصدي لأي هجوم
قد تلبره الحكومة .

ولم تقتصر إنصالاته على الأبيض فحسب . بل نشط أتباعه في الطوائف
على كل أجزاء المديرية ، فانتشرت خطابات بين القبائل ، وكسب تأييد رعماء

(١) يوسف مرخاتيل ، ص ٤٢ .

البحر والجوامع ، الذين شكلوا رأس الرمح لقواته وأحزوا جمعة إنتصارا فتحت له الطريق نحو الأبيض . وقد استخدم نفس الأسلوب قبل إنطلاقه صوب الخرطوم فلعب لشيخ العبيد ود بدر . والشيخ مصطفى الأمين ، أدوار مماثلة لتلك التي قام بها الماسماعين ورحمة موفل .

أحدثت إنتصارات المهدي في البركة والطيرة رد فعل في الأبيض يشبه الذي أحدثته معركة شيكن في الحرسوم . فانقسم السكان إلى فريقين فريق النصارى من الأجانب ، والجعليين ، والمدافعة ، والمحس ، الذين إنتابتهم موجة من لدغ هاجروا على إثرها إلى الخرطوم . ثم فريق الأهلى أمثال الأمان باشا أم بربر ، وباقى ارازقى ، وحاج خالد العمرابى ، ومحمد بن العريق ، وود سوار الذهب الذى قرر الإنضمام للمهدي

وسارع محمد باشا سعيد ، مدير الأبيض ، إلى تحصين المدينة بحفر خندق حولها ، شيد عليه الأبراج ووضع عساكره على طوله . لا أنه جوبه بقوة الامكنات ، لبشرية ، إذ إنصح أن يخط النار بحاجة إلى ١٠٠ ر ٢٠ ر حتى تقريبا لحمايته فى حين لم تتعد قوته ٤٠٠٠ رجل . بالإضافة إلى أن الخندق لم يكن بالعمق ولا بالمعرض الذى يشكك نخطيه عقبة فى وجه المهاجمين .

فقرر المسؤولون وفق لذلك حصر الاستحكامات حول المكاتب الحكومية ، والمديرية ، والمكائنات ، ومارل الموظفين ، والتجار السوريين والإغريق الذين بقوا فى المدينة .

وكان اتجاه محمد باشا سعيد هو الاستعداد مقاومة المهدي بالقوة . إلا أنه بذل فى ذات الوقت محاولة لصده سلميا حين استصدر هوى من رجال الدين تدخض دعوة المهدي . ولقد حاول غوردون استخدام نفس الأسلوب فيما بعد .

ويبدو أن هذه لقناوى قد بلغت مسامع المهدي فأشار إليها فى إحدى رسائله بقوله « ... ولا تفتروا بالخطب التى ألقها فى ذم وتكذيبنا علماء

السوء كأحمد بن إسماعيل الولي ... فهؤلاء ممن أدخل في قلوبهم النفاق بحسب المكان واجاهه .. (١)

مهدي لما أسماعين، وعبدالله النور، الطريق لمهدي يستولي على الأبيض كما سبق أن ذكر .

عوصل بجيوشه إلى مهن كايا آتيا من قدير في ١٧ شوال ١٢٩٩ ، (١ سبتمبر ١٨٨٢) وبدا جليا بأنه سيوجه ضربه القادمة الأبيض

وحسب التقليد انذى درج عليه حيثد في معاركه ، والثراء به فيما بعد فقد وفد مبعوثين ، هما حابر ود جلي الزبادابي ، ومحمد المغربي يحملان رسالة لمحمد باشا سعيد وأخرى لأعيان المدينة . ومن المرجح أن المهدي لم لم يكن قد قرر بعد الكيفية التي سيستولي بها على الأبيض ، بل كان في انتظار رد الفعل لرسائله .

ورغم أن المحتوى لحر في هذه الرسائل غير معروف ، يبدو أنها كانت تحمل نداء للتسليم. لم يكن المهدي قد قرر مهاجمة الحامية ، ولعله لم يكن ليفعل لولا استمراره بإعدام الرسولين شفا ، ولم تكد تمضي ثلاثة أيام على الحادث حتى انقص رجاله على الأبيض في معركة كان تموقعهم العددي فيها واضحا . فوصفها أحد شهود العيان بقوله : « كانت جيوش المهدي دافقة لها صوت المخاوية ، هجوا علينا وصبرنا عليهم حتى قربوا علينا وصرب الاربع لارباع القير دفقة واحدة ، وأصبت عليهم نيران الحرب من المدافع والصواريخ وسلاح ارممغتون ونحن جميعا على قدم وقفين صفوف صفوف ، الكتف على الكتف ، وقد أعطانا القدير اسسات والصر على ليل النازل من السماء ، حتى أنا قتلنا منهم المائة والأخوف وما زالوا نازين علينا بلا خوف وجاوبهم بالرمصاص (٢) .

ولم تنته تلك المعركة بهزيمة المهدي ، بل باستيعابه درسا كان ذا فائدة

(١) المهدي إن قاضه انملاء واتحاد والفراد والمساكين الفاطمين بمدينة الأبيض ، دو القعدة

١٢٩٩ - قذرب مء ص ٢٨ - ٤٥ .

(٢) يوسف سيحانيل ، ص ٥٠ .

عظيمة في معركة الخرطوم بما بعد ، لقد تأكد له أن ثمة صعوبة حقيقية في إنزال الهزيمة بجيود الحكومة الذين يحسنون الرماية بالأسلحة النارية من خنف حصونهم المنيعة . وم تغلح كل تكتل المجموع المؤلفة المسحة بالحرب والسيوف في دحر حملة صليبية من العساكر النظاميين . فقرر المهدي لنوء إيفاد الرمن لإحضار الأسلحة النارية التي غنمها من راشد أبمن وبوسف الشلالى، وتركها في جبل قدير تحت حراسة محمود عبد القادر . وحل وصولها تم تكوين فرقة قوامها ، الأسرى من الجهادية السود المنسرين على استخدام تلك الأسلحة . وأوكل أمر قيادتها لحمدان أبى عنجة ، الذى حفل تاريخه بالقتال مع جيش الريير باشا وإبنه سليمان . وكان وأصح أن المهدي يسمي إلى خلق فرقة من دمط قوات الحكومة ، فأتى بالرجال الذين تلقوا شيئا من لتدريب العسكري والبحيرة الحربية حتى يكونوا عضدا لأولئك الذين يحاربون بالسيوف والحماس الدافع . وهي أسلحة برهنت الأحداث أنها وحدها لا تكفى .

ولقد أزداد المهدي يقينا بعد المعركة بأن دفع قواته في هجوم مباشر حتى ولو كان بالأسلحة النارية قد يفتحه الكثير وأن سياسة الحصار هي الأكثر ملاءمة ، فاستقر رأيه عليها .

فوجه بعد يومين من المعركة نداء آخر إلى سكان الأبيض يدعوهم فيه إلى مراجعة موقفهم ومواقفاته خارج الخندق ، ويلاحظ هنا أنه يخاطب العلماء، والتجار ، ولعمد ، والفقراء ، والمساكين . وقد استثنى الحكام عن قصد ، فلقد سبق أن خاطبهم فردوا عليه بقتل رسله .

ولم تكن فكرة توجيه الانذارات مستحدثة هنا ، فقد درج عليها منذ معارك الأولى ، وواظب عليها حتى سقطت الخرطوم . كما أن محتوى تلك الرسائل لا يختلف في جوهره من رسالة لأخرى . فهو يستعمل أسلوب الرغيب حتى يحصل على تأييدهم فيقول « إني قد كاتبكم لظن الخير فيكم

وأعلمتكم بالجميعه التي لا كذب فيها . ولست فيها تسجيل ولا متصنع وبعثنا
هو الحق المصدق الآتي من الله ورسوله ومعلوم أنه لا يكذب على الله ورسوله
الا من لا أخلاق به عند الله تعالى . ومن يعلم علم اليقين أن متاع الدنيا قليل
لا يزن عند الله جناح بعوضة لا يؤثره على ما عند الله تعالى ، وبوآثره عليه لزل
كان لم يكن ، وأعقب عليه حسرة لا آخر لها . فلا يؤثر جاهد الدنيا على التقوى
والإقتداء بالأنبياء والأصفياء لا من لا عقل له . وأنى عبد مسكين لا طاقة له
بقوام أدنى شيء ، فلو لا أني على نور من الله وتأيد من رسول الله صلى الله عليه
ومسم لما قدرت على شيء ولا سأغ لي أن أحكي بشيء . . . (١) وقد حذرهم
من الإستماع لأراخيف لحكام فهؤلاء هم الظالمون الذين قد اتته فيهم ، ولا
تركوا إلى الذين ظلموا فتمسككم النار) والخصية إذ جاءت نعم .

وهو يحثهم على التمسك بقوله « فأن إبتعثتم وساحتم الأمر لنا في الله
ورسوله فاتركوا جميع أولادكم وعائلتكم وأحرقوا الملاقاة تخرج البذر
من غير سلاح ، وكونوا من حملة الأنصار ، فمن من ذلك فقد أحرر نفسه
وماله وعليه أمان الله ورسوله ويكون له ما تركه من الأموال والأولاد وإن
لم يفعلوا ما ذكر فقد توكلنا على الله وحضرنا لجهادكم جهادا لتبديد شملكم
وغراب دياركم . .

بقي المهدي ثلاثة أيام في انتظار إستجابة الأهالي تلك الرسالة ، ثم أعلن
بعدها قراره بمحاصرة المدينة « بأمر من سيد الوجود » حتى يستسلم أهلها
أو يهلكوا بداخلها حوص . وهو إنما يسير بهذا وفق الحطة التي صفاها بسجاح
في مواقع متفرقة من أنحاء كردفان وربما كان ينوي تنفيذها في الأبيض
ولكن مقتل مبعوثيه كان داعية للإنتقام السريع . فقرر أن يستولي على المدينة
في هجوم مباشر . أما القول بأنه حاصر الأبيض ساء على نصيحة أبياس

(١) المهدي إلى قاطبة القماء والنجر والحمد والفقراء والمساكين ٢٦ شوال ١٢٩٩ (١٠)
سبتمبر ١٨٨٢) انكارات ب ص ٣٨ - ٤٤ .

باشا أم بربر وبعض أهل الأيضا فيه شيء من المبالغة (١) وهو منذ خضا عسكريا غير مستحدث لها ولا يخرج عن نطاق ما درج عليه سابقا .

وقد قام ٤٠,٠٠٠ رجلا تقريبا بينهم ٥ ألف من الممرسان بالقضاء الحصار بعد ذلك مباشرة - أي قبل نهاية شول ١٢٩٩ . (سبتمبر ١٨٨٢) . وطبق النهى خططه خلق معسكرات حول المدينة تماما كما فعل دلنسة للخرطوم فيما بعد .

قاد المنا اسماعيل حوالي ١٠,٠٠٠ محاربين . وعسكر من جهة الشمال الغربى ، وامتد خط القوات جنوبا حتى نقي المهدي في بهيته من الجنوب الغربى (٢) ووجهه أن رقابة دقيقة قد فرصت على مداحل المدينة حتى لا تسرب إليها المواد الغذائية . إلا أن المحاصرين تمكنوا في بادئ الأمر من سلب بعض الماشية من أصحابها ، أثناء مرورهم بأطراف المدينة . وقد فطن الأنصار إلى هذا فوجهوا الأعراب باتخاذ طريق يمر في وسط معسكراتهم وبجنبهم بالنالى قنطرة الحامية .

ويبدو أن بعض الأنصار قد حاولوا إدخال المواد الغذائية سرا للمدينة بهدف بيعها بأسعار مرتفعة ، فأصدر المهدي مشورا حذر فيه من إضرار عقوبة قصوى على كل من ثبت عليه التهمة .

وقد نمد بالعمل حكما بقطع أبهى بعض الأعراب لأهم تحايلوا هذا المنشور (٣) .

لم تكن قوات المهدي ترابط خارج الخندق معلومة الأبدى بن كانت تسعى لاستراف قوة الحامية انشورية بالمناوشات والاشتباكات الصغيرة ، وذلك هو الأسلوب نفسه الذى اتبع من بعد في حصار الخرطوم . وقد تمكن الأنصار عند حصار الأيضا من احتلال الدنارل التي أحلاها أصحابها

Cizza, p. 34.

(١)

Ohrwilder, p. 39

(٢)

(٣) اسماعيل بن عبد القادر ، ص ٢١٥ .

وصدروا بطلقون قسائهم في عمق دائرة الاستحكامات حتى أن قذيفة منها أصابت أحد لقومندان أمام باب دار المديرية نفسها .

وكان لابد أن يتخلص مخزون الحكومة من المؤن ، فرأى محمد باشا سعيد وضع خطة تساعد على الأقل في تأجيل حدوث الأزمة ، وبلا حقد أن غوردون قد نفذ ذات الاجراء عندما واجهته المشكلة ذاتها في الخرطوم فيما بعد . جمع محمد باشا كل الليرة من النجدر واشترأها بأسعر الجارى ، على أن يتم الدفع بعد رفع الحصار (١) . وكأ من أبرز ردود الفعل التي أحدثها الحصار في المدينة هو ارتفاع أسعر الليرة بشكل غير مألوف « الربع من بعد ما كان بعشرة ريال صار بثلاثين ريالاً . وثاني يصح بخمسين ريالاً ، وعلى هذا الحال في اشهر الخامس حصل مائتين ريالاً ، وفي السادس مائتين وخمسين لعاية ما بلغ ثلثمائة وخمسة وعشرون ريالاً » (٢) . ثم تعذر الحصول على الليرة حتى بهذا السعر المرتفع ، فلم يعد أمام السكان سوى « المجليح والشجر وقش الرجبة الناشفة والصمغ وأولاد الفرص » ولم يصمد الكثيرون إزاء هذا الحال فبدأوا يتسللون خارج الخندق ليلاً وكان بعضهم يقوم برشوة الحر من حتى يغضوا الطرف عنهم (٣) .

نجح الانتصار في عزز المدينة كمية عن العالم لخارجي ، وإن لم يكن في الإمكان إرساء أية مكائنات من الأيصر وإليها . أما القوة التي أرسلت من الخرطوم قد إصطر قائدها إلى التسليم . فلم تكن ثمة وسيلة للوصول إلى هدفه ، إذ أن مقاومة ذلك الجيش كانت بمثابة الهلاك المحتم .

ولا بد أن تكون حاة المدينة قد تركت بصماتها على أجساد أولئك الذين درجوا على التسلل ليلاً . ولا بد أن يكون بعضهم قد تقل الصورة بحدافيرها إلى النهى ، فما كان منه إلا أن مارس مريب من الضغط في مجال

(١) يوسف ميخائيل ، ص ٥٧

(٢) يوسف ميخائيل ، ص ٥٦

(٣) اسماعيل بن عبد المنادر ص ٢١٦ .

الرقابة والشاخص لعسكري . حتى تم به ما توقعه وحطط له طول أربعة أشهر .
ولقد جاء استيلاء المهدي على الأبيض لبؤس سيطرته اتامة على السود
الغربي ، فقد إبهرت مواقع الحكومة في دارفور تساعداً وأصبحت مسطه المحكم
أتركى فى بحر الغزال كذلك آية للزوال .

ولقد احتل سقوط الخرطوم مكانا مثائلا ، فبعده أكملت سيطرة
المهدي على لى سودن الشمال ، وكان لا بد أن تنهد المقاومة الحكومية فى كل
من كسلا والنيل الأزرق .

التمهيد للاستيلاء على الخرطوم :

جاءت معركة شيكان نصاعف من ثقة المهدي فى نفسه ، فيها هو
« بطل الإنجليز وفارسهم الذى كان يخشاه بعض من كان ليس له إيمان
هو مطروح فى الميدان . . . » . وبدأ يخطط من توه للسيطرة على الخرطوم
كما نقل أحد الرواة قوله « الحمد لله تعالى أن كافة الترك الذين بكر دقان
والذين فى العرب سمووا لنا — إنا قتل مدرسة كردون وجهانها ، وجردت
هكس اعظيمه وليس فاضل لنا الا عوردون وفتح الخرطوم .. » (١) .

شرح المهدي فى تمهيد طريقه نحو العاصمة باجراء اتصالات مع أهلى
لبطقة ، وجاءت الرسالة المشار إليها بتاريخ ١٠ محرم ١٣١١ هـ . وكانت هذه

(١) يوسف ميخائيل ، ص ٦٤ ٦٥ .

الحكم المهدي « اترك » فى منشوراته منذ مداه السعوة بوصفهم لحكم الذين شوخوا ربح
الأملا لا شمعهم بمادات السارامو نه . ولا ينو واصحا إذا كانت التسمية تشمل المصريين
أيضا ، بقه درج أهل السودان عن سداة كل من هو حيو « بتركى » حتى أنهم سموا
الثرة لى سيطر حلاط الإنجليز على السودان بالتركية الحاضرة ، بينما على التركية السابعة
المهدية . وبعد مجي ، هكس بلنا وعوردون أيقن المهدي أن الإنجليز وراء محاولات قمعه
فبدأت تظهر — خاصة فى مسائل قدرته — محاولات لاستمالة الافراك المسلمين بصفتهم
ضد النصارى من الإنجليز الذين استولوا عليها على مصر نصها
(ملاحق ج — ط — ي — ز) .

منشور اعداء ، معروف باجراء اتصالات شخصية مع رجال القبائل وعلماء الدين . فكتب لمميز علماء السودان محمد الأمين الضريير خطابا رجم فيه بحمل تاريخيا لا حقا بذلك المنشور ، إلا أنه لم يكن أول مكتوب يبعث به المهدي إليه . إذ جاء فيه قوله « وإني قد عدت وكررت لك الإنذارات والمراعاة التي تشهد حقيقتك بها ، وخاطبتك سابقا قل كل الناس وحصصتك «احقة نتي لا بعدها وندبتك للإجابة لداعي الله فلم تجب دعوتي ، ونظرت إلى الثقل والعلايق المعوقة لفاطمة عن الله بحسن ظني إليك ومحبي لك في الله وإرادتي لك البر والخير الدائم ولنعيم سرمدي والملك الكبير عند الله ثم آياس عن مخالفتك ولم أتوقف عن دعوتك .. » (١) وبلاحظ هنا أن المهدي لم يطلب من محمد الأمين الجهر بعبادة الحكومة وإعلان نفسه عاملا له هناك ، كما هي عادته ، بل يطلب منه أن يهاجر إليه « فلم نرض عليك إلا بالهجرة فقط دون أمر آخر » .

ولعله قد عمل هنا لتشككه في إمكانية فتح جبهة له في عقر دار الحكومة . ولم يكن أهل الخرطوم قد كشفوا عن نادرة تأييد له بعد ، ولعل هذا يعود إلى عدة عوامل . فلا بد أن بعض الأهالي قد ابتهجوا عند سماع أنباء إنتصارات المهدي في العرب ، إلا أنهم لم يجرأوا على إعلان هذا خوف من بطش الحكومة وهي على قاب قوسين منهم ولقد كان سكان الخرطوم — بحكم ظروفهم — أقل أهل السودان حماسة لتنصيب المهدي حاكما على البلاد فقد نعم هؤلاء بحماية الحكومة التركية ، فتوفرت لهم بعض سل الحياة الرغلة . ووجد بعضهم الفرصة لكي يعمل في دواوين الحكومة أو بين قواتها المسلحة . وهم في ذات الوقت لم يتعرضوا لبطش جامعي لضرائب الذين كانوا يتصيدون صحاياهم في الغالب لأعم بعيدا عن أعين السلطة المركزية . فلم تكن الظروف تعكس صورة فساد الحكم التركي كما تعكسها الأقايم ومن هنا جاءت إستجابتهم لدعوة الثورة فائرة مترددة ، ولم يكن

(١) المهدي إلى محمد الأمين - ربيع آخر ١٣٠٠ ، نشرات ص ب ٩٤ ٨ .

بينهم من يرى ضرورة إحداث تغيير سياسي في البلاد . ولهذا فقد أراد المهدي أن يجمع أنصاره بحلول محسره بعيد عن مقر الحكومة قبل أن يقرر مهاجمتها .

ولقد اتصل المهدي بعص الأعيان القاطنين في القرى المنتشرة حول المدينة ليأدروا في إثارة انقلاب في وجه الحكومة قبل وصوله اليهم . فكتب عدة خطابات للشيخ العبيد ود بشر ، في أم ضاب ، وأتائه وبعض جيرانه (١) .

ويلاحظ أن هدى تلك القرى قد تحفظوا في إبداء رأيهم في الأحداث الجارية حتى أوائل ١٨٨٤ . ربما كان مرد هذا المصلحة المشتركة التي تربطهم بالخرصوم وسكانها . فقد عرف مناطق الجريف والحلماية ناردار متجانها الزراعيه والتي كانت عاصمة محالا رئيسيا لتسويقها . فقيام أهلها بالدعوة ضد لحكم التركي تثير من الاضطرابات ما يتعذر معه كسب رزقهم لأساسي . فطلوا على الحيات حتى كشف هم الأحداث أن حكومة الخرصوم قد أصبحت مهددة بالزوال .

م بشر المهدي - صراحة - في أولى خطاباته . لتشجع العبيد إلى ضرورة العمل المباشر ضد نحرطوه بن يقول « .. ويوصل جوابي هذا إليك أحمر همك في الله وأرسى جميع أتباعك وأحبائك وأهلك وعشيرتك في الله وجاهر في معاداة الكفرة ، وأقطع لسكك ، ونارز بالعدوة ضاهرا ، وناطيا وبالقنل والامر والرباط والحصار ، ولا تتوقف أبدا لأمر ما إن كنت ممثلا مصدقا بمهديتنا ولا تبالي حكم ما فعل محمد بطيب ود البصير وإن خشيت فأنصم إليه وماحر من محلك الذي أنف فيه وإسجد معه كند واحدة » (٢) .

(١) - الشيخ - العبيد ود بشر (عرب أيب بودريا) (١٨١٠ - ٨٤) يتولى من لابر حبيب أحد برون غيلة اسمية . من مشايخ الطريقة النقادرية فرع تلج الكهن البهاري . اشتهر بالقوى والصلاح ، ففتاخر عليه لدر من اهودا من مخدع أرجاء البلاد ، وقد أصبحت خيرة التي أسسها في قرية أم ضاب مركز لتخطيط القرآن في منطقة الخرطوم

(٢) المهدي إلى العبيد بشر - قر ٤ جمادى أول ١٢٠١ (١٢ مارس ١٨٨٤) ندرات ب ص ١٢٧-٩

وعندما تأكد المهدي أن صودته في المصطفة قد نوطد ، أشند عوده كتب مرة أخرى للشيخ العبيد مشيراً له بوجوب البقاء لحصار عن الخرطوم . . فإذا بلغت جوابي هذا فأما أن تهاجر أنت ومن معك من الأصحاب والمحبين وما يطلب ما عند رب العالمين من غير نظر إلى علاقة ، وأم أن تحاصروا الخرطوم وتجهسوا من غربة زمينة الدنيا ومناعبها عن الصدق مع الحي القيوم حتى ذاتيكم ولا حنا لنا عنكم إلا بهلين الأمرين فإذا فعلتم رضينا عنكم » (١) ولم يمض وقت طوي حتى أثمرت هذه الحطانات ، إلا أن الشيخ العبيد اختار أن ينفذ الأمر الثاني ، فأعلن نفسه داعيةً للمهدي في نهاية فبراير ١٨٨٤ .

كتب المهدي أيضاً لزعماء لشكرية ، ولعله فطن إلى نفس الحقيقة التي أخذها عوردون في الإعتبار عندما عين عوض الكريم أبي من رئيساً لمجلس الأعيان في الخرطوم . إذ كانت قبيلة الشكرية أكبر قبيلة تعيش في منطقة الصراع ، ولا بد أن يؤثر انحياها لأحد الفريقين تأثيراً مباشراً وحذرياً في ميزان القوى .

دعا المهدي لشكرية إلى الأخذ بمبادئه التي طالما نادى بها ، وهي في الأساس ، نبذ مباحج الدنيا من مال ودينار ، والإسراع للانضمام إليه حيث كان بالمر . . وسدو أنهم قد ردوا على رسالته معللين تأييدهم له دون أن ينفذ أحد منهم أمر الهجرة (٢) . وإزاء تباطئهم هذه كتب لهم المهدي رسالة أخرى يعثيهم فيها من مهمة الهجرة ، على أن يرفعوا راية الدعوة في منطقتهم ، فجاء في تلك الرسالة قوله : . شدو أزركم على إقامة الدين والجهاد على أعداء الله والكافرين والخروج عن طاعتهم وتشيت شملهم وتفريق جماعتهم ومارزوهم بالعصيان لتناو كمال ارضودن وقاتلوهم فإنهم محذولون

(١) المهدي إلى العبيد بنو ، اتصالات ب ١٢٩ - ٣٢ .

(٢) المهدي إلى عوض الكريم أحمد أبي س ، اتصالات ب ص ٨٦ - ٩ .

ذكرت بعض المصادر أن الشكرية كتبوا تلك الرسالة تقم ليأمنو شر البطاحين الذين درجوا على سلب ماشتهم

وحامدوهم فأنتكم عليهم منصورون وشمروا هي ذلك عن مساعد الجند
والإجتهااد .

ويبدو أن الشكرية قد انقسموا حول هذا الأمر، فأعلن جزء منهم تأييده
للمهدي، واشترك بقيادة عبد الله عوض الكريم أبي سن في حصار فداسي
في أول يناير ١٨٨٤ (١) .

بالإضافة إلى مجهودات المهدي هذه كان هناك نشاط عامله محمد
الطيب ود البصير في المنطقة .

فقد نجح ود البصير في تجنيد بدائل الداسين والخوالدة بعمل على
نصرة المهدي (٢) ثم استولى على قرية الحلاويين، وتقدم نحو المسعبيه (٣) .
رد الفعل المخطط غرردون :

يسو أن هزيمة صالح الملك لود البصير في واقعة ود مدني في ١٧ يناير
١٨٨٤ لم تغر الأهالي بالانفضاض من حول الأنصار . وقد حاول
صالح الملك أن يحصى طريق الخرطوم - سار . فتقدم إلى الجزيرة فداسي
وحصن نفسه فيها وأرسل في طلب المعونة العسكرية من سار فأتته الناحرة
« محمد علي » محملة ببعض الجند والذخيرة .

ولكن ود البصير سارع بوضع حصار على الجزيرة من الشمال ودعا
عبد الله عوض الكريم أبي سن لنزول من جهة الجنوب .

(١) بابكر بدري، ص ٢٨ .

(٢) إبراهيم بوري، ص ٢١٥ .

محمد الطيب ود البصير، من قبيلة الحلاويين يت المهدى بصفة انساب . اشهر
والده في المنطقة، وعرف بحسن السيرة . كان محمد الطيب ود البصير من أوائل الشخصيات
التي أسسها المهدي بدعوته في ذي القعدة ١٢٩٧ وفي شعبان ١٢٩٨، أرفده لأخته ليلية
من أمالي الجزيرة . ثم شارك في حصار الخرطوم فيها بعد، وتولى مهمة إمداد الأنصار
بالبضائر بعد سقوط المدينة عمل في إعداد أعشية إلى أن لقت القوات الانجليزية القبض
عليه في تلك المنطقة، وعندما أخرج منه عاد للجزيرة وتولى بها ١٩٠٨ .

The Times, 12th January 1884.

(٣)

وقد تمكن هؤلاء من عزل الحرطوم عن المنطقة الجنوبية لمطع أسلاك التلغراف وفتح أعينته نهائياً ، وتأكد في ذلك الحين انضمام كل شيوخ القبائل في القرى ما بين لخرطوم وسنار إلى المهدي . فم يكن بالإمكان إرسال أي فرق من الجنود أو المكاتب جنوب العاصمة ، وقد أجبرت بعض البواخر التي كانت في طريقها إلى سنار على العودة بعد مغادرتها المدينة بوقت قصير (١) . كان بقاء الطريق إلى سنار تحت سيطرة قبائل تدين بالولاء للحكومة أمر حيوياً للحرطوم ، إذ أنها كانت تعتمد على مزارع تلك المنطقة في الحصول على غذائها .

ولقد وضع المهدي خطته منذ أوائل عام ١٨٨٤ بحيث تقوم معسكرات الانتصار في أنحاء متفرقة من المنطقة المتاخمة للمدينة . وبدأ نشاطها بالحصول في معارك ضيقة النطاق ضد رجال الحامية . فشن أتباع العبيد ود بدر بقيادة ابنه إبراهيم أون هجوم على عساكر الشايقة المرابطين في منطقة الحماية في منتصف مارس ١٨٨٤ . وبعد إزالة الهزيمة بهم هكوا من أسر مائة وخمسين عسكرياً وعموا بعض الأسلحة والذخيرة (٢) وقد توالى بعد ذلك هجمات تلك المجموعات على الحرطوم .

كتب المهدي إلى دفع الله ، حواري الشيخ العبيد ، الذي كان يقيم بقرية نقبة شمال العاصمة ليدأ في الهجوم من ذلك الموقع ، قائلاً : « . . . بمجرد وصول جـوان اليكم صحبة رافعه محمد الناصر ، تحزبوا في الله أحزاباً أحزاباً وجهروا مالكم واستعدوا للقتال والمجاهد للكفرة بكن ما أمكنكم ، وانضموا إلى العبيد بسدر بمجرد سماعكم حلولنا بالبحر الأبيض تقوموا بكمائن رجالكم خلفاً وثقلاً وقبلاًوا الحرطوم بجهتكم التي يقال لها نقبة وحاصروا أعداء الله وضيقوا عليهم فإن الله يخرجهم وينصركم عليهم » (٣)

(١) The Times, 15th January 1884.

(٢) المهدي ل محمد خالد : جمادى أول ١٣١٢ (٢ مارس ١٨٨٤) رفق ٢.

(٣) المهدي إلى إحياءه في لله عرساً دفع الله تلميذ العبيد ود بدر نذر ت ب ص ١٢٩ - ٤٠.

ورغم أن هذه الرسالة لا تحمل تاريخاً إلا أن بعض المصادر قد ذكرت أن قافلة غوردون قد تعرضت لمساوشة من قس الأنصار في حوالي منتصف فبراير ١٨٨٤ . وربما كان هؤلاء هم أتباع ديع الله الدين إستنهرهم المهدي .

ونجح الأنصار في كسب تأييد الشيخ عبد القادر إبراهيم ، الذي عيه غوردون عضو في مجلس لأعيان لمنوط به الإشراف على إدارة المدينة . (١) كان الشيخ عبد القادر قد صاحب سننورت في إحدى رحلاته الثمندية على النيل الأبيض جنوبي الخرطوم ، وقد اعترف أن شعور الأهالي قد صار عدائياً بدرجة أن أية محاولة منهم للهبوط كانت ستقابل بلاشك باطلاق النار عليهم ، ولعل الشيخ عبد القادر قد قنع بعد هذه الجولة أن معركة لحكومة خاسرة بلا ريب . وأن تفوذ الأنصار في نصاعه ، وجمع حوالي ثلاثة آلاف من أتباعه واستقر في قرية الكلاكلة .

وقد أثرت خطبات المهدي للشيخ مصطفى أمين أم حنين بحزيرة إسلام في إقناعه بالإبصار إليه ، فعسكر في حور شمات مع حوالي ألفي محارب ، كما استطاع الشيخ أحمد أبو صغيرة أن يجمع بعض قبائل الجموعية وافتتح باب وعسكر في ديم أبي سعد جنوب أم درمان .

وأم من الجهة الشرقية فقد استنفر الشيخ المصوي عبد الرحمن المحسى أتباعه ، فاجتمع له حوالي عشرة آلاف ، أو كل أمر قيادتها لأحد أبناء الشيخ لعبيد ، وقاد أبناء المحسى منهم أحمد المربع ، والشكرية ، المدوداب ، أحمد ود عماره ، وانغريه ، محمد عبدالسلام ، وابطاحين ، وه عبد الباقي ، والحسانية سليمان ود كاسر .

ويبدو أن عمال المهدي قد حاولوا اتباع مسهجه في مخاطبة المعارضين للدعوة . فكتب الشيخ المصوي إلى غوردون يقول « ... يلغى أنك ترحم

(١) عبد القادر إبراهيم (١٨٩٣) من أحمد حمد ود أم مريم . شارك في حصار الخرطوم وبعث إلى مهديها . أوكلت إليه بعد ذلك قيادة جيش الأنصار في شكا جنوب دارفور وقتل في اشتباك مع قبائل الدينكا

أن معظم أهل السودان مجبورون على اتباع محمد أحمد المهدي ، وليس لهم الرغبة فيه باطبا وأتلك نصب خلاصهم منه ، فأعلم أن جميع أهل السودان خاصتهم وعامتهم قد انبعوا محمد أحمد قلبا وقالبا ، ودليل ذلك بأنهم أرواحهم بين يديه في الحروب ، وإني أنصح لك أن تفعل أحد أمرين ، إما أن تسلم للمهدي فتسلم عن معك من أهل الخرطوم فيؤثرك الله أجرك مرتين . أو أن ترحل إلى بلادك فتنجو من هذه المهالك فإنه لا ضير لك في البقاء هنا عن هذه الحال ، لأنك إن بقيت فلا بد من هلاكك أنت وجميع رجالك واسلام ، (١)

وم يقتصر نشاط الانتصار على منطقة الخرطوم وحدها . بل اتسع نطاقه وامتد شمالا فتمكنوا من قطع الاتصال التلغرافي ببربر ، ولم يكن بالإمكان المخاطبة إلا عن طريق الرسل . وقد أرسل كوزي ، الذي عيه غوردون حاكما على ببربر ، رسالة إلى بيرنج فحوالها أن الاتصال التلغرافي بين مدينته والخرطوم قد قطع نهائيا ، وبعد أيام قلائل كتب حسين باشا خيفة إلى نوبار باشا يحذره بعزب الخرطوم ، وأنها قد أصبحت في حالة حصار بواسطة الأنصار الذين يتزايد عددهم حوفا بانتظام ، هكذا كان الموقف في مارس ١٨٨٤ - أي بعد حوالي شهر من وصول غوردون .

كانت المنطقة الحربية تحت قبضة الأنصار . ومن الشمال قامت معسكراتهم من شلال السيلوكة حتى مشارف الخرطوم ، واتضح حليا أن أي محاولات للاتصال بحصر نواحيها صعوبات عملية ، وقد كان بيرنج عن علم بهذا ، فنقل إلى حراويل تخوفه من خطورة عملية الانسحاب ، ولم يكن لسياسة غوردون الإصلاحية أي أثر في كسب تأييد الأهالي القاطنين حول المدينة ، في حين وجد المهدي بينهم تعاضدا واسعا النطاق لم تفلح سياسة المهادنة في عززته ، كما أن التهديد باستخدام قوات أجنبية لم يأت أكله ، فقد أيقن الأهالي أن المهدي يمثل المقتدر للانتصار حتى على مثل تلك الجيوش .

(١) فتوح شقير ، ص ٧٧٧ .

بين أن سياسة عوردون لم تجد إستجابة حتى بين الأهالي داخل أسوار المدينة، حيث كان المهدي مواظبا على اتصاله بهم، فخطب كافة أهالي اسخرطوم بقوة « يعرفكم أن الله تعالى غني عن العباد يهدي من يشاء إلى طريق الرشاد، ويضل من يشاء، ومن يهد الله فهو المهتدي، ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا، وقد طالما تكررت من النصائح وأردنا نجاة عبد الله وسلوكهم لطريق الله، فأتاب إلى الله من أراد الله سعاده، وحالف من نحله الله فأصمه وأعشى بصره، فلا أدري ما الساعى لعدم الاقياد .. وقد طالما ذكرنكم بالله ورعبتكم فيما عنده، وحذرتكم من وعيده، فإني متي الغفلة والتسوية وإلى منى مبارزة مولاكم بالعداوة. لم يأت لكم أن تميل قلوبكم إلى ما ينفعكم في آخرتكم ويجلب لكم الخير ويصرف عنكم الشر » (١).

كما أرسل مكتوبا آخر إلى أهالي حلة و سلامة باشا « يستحثهم فيه إلى القيام بنصرة دين الحق (٢) ومن الحذير بالملاحظة أنه خاطب أهالي هذا الحي بشكل خاص دون سائر الأحياء. لأن «سلامة باشا» كان موطن فقراء السكان الذين لا تربطهم مصلحة شخصية من مال أو سلطة بالحكومة، ويقع على عاتقهم العبء الضريبي الذي كانت تفرضه الإدارة التركية. وهم لهذا يملكون الاستعداد لطبيعي للسادرة لتأييد المهدي. ومن هنا جاء ردهم لبدء المهدي إيجابيا. ولعل أحمد العوام كان بينهم حين كتب «لله در أهل السودان فإنه لم يتيسر لغوردون باشا ومن معه، مع ما أجروه من لحين السياسية والمكابدة التركية، كحرق دقائر متأخرات الأموال الأميرية عن السنين الماضية وتزويل جميع الضرائب والعشور والعوايد إلى نصف قيمتها الأصلية، وحل معاهدة الرقيق، وبذل العطاء والإحسان إلى جميع الفقراء والمساكين أن يحول

(١) المهدي إلى كافة أهالي اسخرطوم، قدرات ب، ص ٢٥٥ - ٦

(٢) المهدي إلى أهالي حلة سلامة باشا، خسر صا حاج خسر صا وسعد عمر واسو نوم، ١ جبادي ثار ١٣٠١ (٢٤ مارس ١٨٨٤) فيوضات ٩٧/٣، موقع هذا الحي في مكان شببات الحالية.

وجه واحد من الأهلان عن قبته الوطنية . أو يقعده عن مساعدة جيش المهديّة^(١) ولم تفلح سياسة الإرهاب في إثارة لصرع وسط الأهلان . ولعلها قد أصبحت حافزا لهم لمساندة المهدي ضد القوات الدخيلة التي سوف ترسل لاختضاع بلادهم « فإزددت بذلك حميتهم الدينية والتمتعت فيران محبتهم الوطنية ، فأعطوا جميع المنافذ والطرق » وقد كانت موجة الانعطاف نحو المهدي بين سكان المدينة في تصاعد ، حتى أعرب غوردون عن خشيته من مؤامرة داخل الخرطوم أكثر من تخوفه من العدو المرابط خارج الأسوار .

وقد لوحظ انتشار هذه الموجة حتى بين لعبيقة التي كان غوردون يعتمد عليها في تنفيذ سياسته . فكان بعض معاونيه من الإداريين ، والصباح والعلماء ، تنضدرون له بالولاء ويخططون لتمويض حكمه من وراء ظهره .

كان بعض لأهلان يبعثون برسائل الولاء والتعظيم للمهدي بين القبة والاخرى ، وقد اكتشف غوردون فيما بعد مكانة مثل هذه موقعة بخمسة عشر إسما ، بينها أسماء بعض أولئك الذين عينهم حكاما على المدينة .

كما كان منهم أحمد بك علي جلاب ، مدير الخرطوم ، وتفضل أفندي أبراهيم باشكاتب محكمة الاستئناف ، ومحمد سرور كاتب القبطية ، وأبوبكر الجركمك . وأحمد بك دفع الله ، وإدريس النور ، أعضاء محكمة الاستئناف . ومن التحار ظهرت أسماء إبراهيم شاكر ، ومحمد عبد الرحمن البشير وعثمان بك مكيوار .

ووقع من الأعيان لحاج ناصر أبو حسوس ، والخليفة ود أرياب ، ثم زمزمي بك علي جلاب ، عضو المحكمة لأهبة ، ومحمد الأمين الضرير شيخ الإسلام . وقد بعث الموقعون مع الرسالة مبلغا من المال مع وعد بالامام بالأنصار حينما تحين اللحظة المناسبة .

(١) عند الدوام ، ص ٥٤ .

لم تصادف سياسة غوردون إذن هوى فى نفوس الأهالى . وكانوا
« ينسلون بيلا للخروج بكل حيلة ، حتى أن بعضهم يرشى الخفراء للذين
حول الخندق حتى يتعالموا عنهم » .

الفصل الرابع مشاكل الحصار

أيقن غوردون بعد مضي شهر تقريبا على وصوله أن يستعد
لمعركة عسكرية إذا أراد بقاء الخرطوم تحت سيطرة حكومته ، فقد انضح
أن المخطط الاصلاحي لا يجد من التأييد ما يبشر نجاحه . إذ بدأت جوع
الأنصار ترحف نحو الخرطوم في محاولة لفرص حصار حولها . وكان
لا بد أن تنجم من جراء هذا عدة مشاكل للفريقين المتنازعين . يعتبر التصدي لها
ومعالجتها عاملا هاما في كسب المعركة . ولحل نقطة الضعف الأساسية
في موقف غوردون والتي لم يملك لها دفعا هي أنه كان في موقف المحاصر .
فلم تقتصر تلك المشاكل - التي ظهر بعضها بعد مجيئه مباشرة - على المسائل
الإدارية والعسكرية الوارد ذكرها في غير هذا المكان . بل تجاوزتها لتشمل
قضايا أخرى ، منها الاتصال ، والماء ، والغذاء . وكان لا بد أن تتطور كل
هذه القضايا مع تقدم الحصار حتى أصبحت تهدد المدينة تهديدا فاعليا ومباشرا
أما الفريق الآخر فقد كان يتمتع بوضع مريح إلى حد كبير ، الأمر
الذي قدس من حدة المشاكل التي كان عليه أن يواجهها .

وقد ساعده هذا بلا شك على الاحتفاظ بثقة جماهيره ودفعها إلى
تصعيد عملياتها حتى تمكنت في النهاية من فرض الحل الذي تبغيه .

عزل الخرطوم :

رغم أن سكان السودان الشمالي وشرقي لم يلعبوا دورا مباشرا في
حصار الخرطوم ، إلا أنهم تمكوا حين رفعوا راية المهدي في مناطقهم ، من
عزل المدينة عزلا يكاد يكون شاملا عن مصر ، وبالتالي عن العالم ، فقد
كانت مصر هي النافذة التي بطل منها السودان على الدنيا ، والباب الذي يأخذه
اليها في تلك الأيام . وأثبت أسلوب المهدي في إستبعاد الزعماء المحليين

لنسى دعوته في مناصبتهم فعاليته وإيجديته في هذا المجال . ففي الوقت
الذي كان أنصاره يعملون للسيطرة على منطقة جنوبي الخرطوم ، كان عماله
في شمال وشرق السودان يعملون بنفس القدر لقطع وسائل الاتصال بين
الخرطوم والمحارج . فجاء عزب الخرطوم نتيجة مباشرة للنشاط الذي قام به
محمد أنخير عبدالله خوجلي ، وعثمان بن أبي بكر دقة . فقد كانت الطرق
البرية ولشهرية المؤدية إلى مصر بالإضافة إلى خط التلغراف تمر عبر أراضيها

تمكن غوردون خلال شهر فبراير ومارس من استخدام الخط
التلغرافي الذي يربط الخرطوم بالقاهرة عن طريق وادي حلفا ، دقلا
العرضي ، مروي ، بربر ، شندي ويمتد عبر مسافة قدرت بـ ٧٨٢ ميلا
تقريبا (١) وكان بقاء هذا الخط تحت سيطرة الحكومة أمرا حيويا بالنسبة
لمهمة غوردون ، فقد جاء للسودان موفدا من قبل حكومتى مصر وبريطانيا .
فأصبح لزاما عليه إبلاغ الحكومتين بتطور الأحداث في حينها وبصورة
تفصيلية . هنا هو عين ما درج عليه طوائف الفترة التي ظل فيها خط التلغراف
صالحا للاستعمال . وقد كان برنج . من ناحية أخرى ، مستظما في الرد
على تساؤلات غوردون وآرائه بعد عرضها على الحكومتين المصرية والبريطانية
إذن فقد كان الاتصال المنتظم ، سريع بالقاهرة ضروريا حتى يتمكن غوردون
من تنفيذ مهامه التي كانت تتحكم فيها ظروف خارجية متشعبة . ويمرور
الزمن تضاعفت الحاجة لهذا الاتصال ، فقد أصبحت المدينة في حالة حصار ،
وكان من الضروري أن يطلع أولئك الذين بعثوا به على دقائق الموقف حتى
يتخذوا الإجراءات التي تناسب وذلك الطرف .

ظل الاتصال التلغرافي بالقاهرة ممكنا إلى أن بدأت ثورة القبائل في
الشمال في مطلع عام ١٨٨٤ ربما يعود احتفاظ تلك المنطقة بهدوئها حتى
ذلك التاريخ إلى بعدها عن قلب الثورة في أقصى الغرب ؛ كما أن علاقتها
التجارية مع مصر ، والحكومة القائمة آنذاك في الخرطوم جعلت أهلها يترددون

Levenson, "Insurrection of the False Prophet"

(١)

في اتحاد موقف ايجابي مسكر من المهدي . إلا أن هذا المجهود لم تقدر له أن يدوم طويلا ، إذ سرعان ما لاحت بوادر الثورة في الافق ويمكن تأويل مدانة هذه المرحلة بعودة أحمد حمزة السعداني . أحد مشايخ اجمعين . وهو من بيت المذنبين ، من عند المهدي في أول عام ١٨٨٤ . وقد توفى وصول غوردون إلى بربر مع ذلك الحدث . إلا أن هذا لم يقف عائقا في سبيل انضمام رجال القبائل إلى السعداني ، بل على العكس . ساعد انتشار محتويات فرمان الإخلاء في دفع عجلة الأنصار أميالا إلى الأمام . فقد دفع كثير من المتمردين ومؤيدي الحكومة إلى تحديد موقفهم . إذ تأكد لهم أن لا مخلص من سيطرة المهدي على البلاد .

ومن ثم بدأت معسكرات الأنصار في الانتشار شمالا وجنوبا من بربر منذ أواخر مارس ١٨٨٤ ، وشمل نشاطهم كل المنطقة الواقعة ما بين شدي وبربر ، حتى أنهم في حوالي ٢٥ منه تمكنوا من قطع الإتصال الشغرافي بين المدينتين ، في حين أن لخط التلغراف في بين الخرطوم وشدي كان معطلا منذ ١٢ مارس . بعد ثورة انقباض شمال العاصمة ، ورغم أن الاتصال بين بربر ومصر ظل مفتوحا بعض الوقت ، إلا أنه كان مهددا بالانقطاع في أي لحظة بعد ١٨ أبريل . وكانت سيطرة الأنصار شبه شاملة على كل المنطقة الواقعة شمال بربر . حتى أن بعض المسافرين إلى القاهرة قد وقعوا في قبضتهم بعد مسيرة يوم واحد منها .

إذن فقد واجه غوردون مشكلة الاتصال بالقاهرة ، وهو لم يكمل شهره لأول في الحرصوم بعد . ولم تكن هناك أية بادرة تشير إلى أن الوضع قد يتطور في مصلحته ، بل على النقيض من هذا ، بدأت جموع الأنصار تزحف نحو بربر لتسيطر على تلك المدينة ذات الأهمية البالغة بالنسبة للخرطوم .

ظل محمد الصغير عبد الله خوجلي في بربر يوازن بين الحكومة من جهة وتلميذه السابق من جهة أخرى لفترة صويلة رغم أن المهدي كان قد

أسر له بدعونه في عدة مكاتبات شخصية . وفي فبراير ١٨٨٤ قرر حسم موقفه بالهجرة إلى المهدي حتى يقف على حقيقة الأحداث بنفسه . وقد عاد في نهاية أبريل محملاً بالإيمان القاطع بصدق دعوة المهدي وبيع بعض الرسائل لمشيخ تلك الجهات . وقد فوضه المهدي لأحد البيعة منهم . فنضم إليه أحمد حمزة السعداني باتباعه في المتمد ، وعند وصوله إلى الدامر بايعه أحمد لمجذوب . فاتخذ بربر وجهته بصحبة جيش قوامه ٤٠ ألفاً من الجعليين ، والرباطات ، والشارين . من المشاة والفرسان ، وقد نسلح بعضهم بالأسلحة النارية . وعسكر محمد الخيز حول المدينة ، ومن هناك بعث بجملة رسائل إلى رجال الحامية والأعيان يطلب منهم التسليم دون إراقة دماء . فاستجاب له البعض . وعبروا الليل إلى حيث تقوم معسكرات الأنصار ، وقد جاء سقوط بربر في أيدي محمد الخيز وأتباعه في ٢٣ رجب ١٣٠١ ١٩ مايو ١٨٨٤ ليضع النهاية لأي أمل عوردون في إجراء اتصالات لتعريفية بمصر .

لم يعد أمام عوردون خيار بعد ذلك سوى الاستعانة بالأشخاص المتقلبين عن ظهر البوادر ، أو النوايا ، أو الواسيلتين معا ، لنقل رسالته إلى مصر . وقد كانت هناك صعوبات عملية تجعل الاستفادة الفعلية من هذه الوسيلة أمراً متعذراً . فقد كانت الطرق التي يتحتم على الجواسيس عبورها محفوفة بالمخاطر . فكانوا نظراً لهذا يصلون بمبالغ خيالية من المال ، وقد كان وقوع أحدهم في أيدي الأنصار متوقفاً في أي لحظة ، ومن هنا كان لابد أن تأتي الرسالة في شكل مقتضب اقتضاه قد يخل في بعض الأحيان بالمعنى . وبشكل صوب المسافة البعقة الرئيسية ، إذ كان الطريق الذي يربط بين مصر والسودان يمر ببربر ، ومنها شمالاً أو شرقاً . من الشمال كانت هناك عدة طرق . طريق كورسكو - أبو حمد - بربر - لخرطوم - عن طريق النيل . ويبلغ طوله حوالي ٨٧٢ ميلاً . طريق وادي حلفا - مروي عبر النيل - ثم طريق الصحراء إلى بربر . فآخرطوم (خط التلغراف) . ويبلغ طول هذا حوالي ٧٨٢ ميلاً ، طريق وادي حلفا - أم نكوان عبر النيل ثم عبر الصحراء إلى شدي

والخرطوم. ويبلغ طوله حوالي ٦٥٩ ميلا، كان على غوردون أن يبحث برسوله ليقطع أيا من هذه الكت من الأميل ويتحمل مخاطرها. ولقد كان أقصر الطرق، ٥٧٦ ميلا، هو طريق كورسكو - أبر حمد - بربر الخرطوم يمر في وسط منطقة يسيطر عليها الأنصار كلية، الأمر الذي سحتم على حاملي تلك الرسائل، أما لمجارعة بعبور هذه المنطقة، أو إختيار طريق آخر أطول منه.

أما من ناحية الشرق فكان هناك احتمالان. طريق سواكن - بربر - الخرطوم، ويبلغ طوله ٤٤٥ ميلا تقريبا، ثم طريق مصوع - كسلا - أبو حراز الخرطوم. ويبلغ طوله ٦٥٣ ميلا تقريبا. كان يمكن أن يكون الطريق الأول مثاليا لولا سقوط بربر وإندلاع نار الثورة في السودان لشرقي. لقد حل ذلك الجزء من البلاد حادثا حتى منتصف ١٨٨٣. كان عثمان دقنة يتسقط أحبار المهدي عن البعد. إلى أن قرر أخيرا أن يشد الرحا اليه. فأسبع عليه المهدي بركته وعيه أميرا على الشرق، وحمله حطانات للاهالي والأعين يدعوهم فيها للقيام لنصرته. فاستجابت له قبائل الحسان، والمهذوبه، والارنيقة، ووجهوا لحصار إحمات المصرية في مواقعها الثلاثة في طوكر وسنكات وسواكن في آن واحد.

وفي مطلع عام ١٨٨٤ تمكنت قوات عثمان دقنة من السيطرة على طريق سواكن - بربر، كان لهذا الطريق أهمية خاصة بالنسبة لخرطوم. فالرغم من عدم وجود خط تلغراف عليه إلا أنه أقصر طريق. سواء من الشرق أو الشمال، يصب بين الخرطوم والعالم الخارجي، وفقدانه بلا شك يدفع المدينة أكثر وأكثر نحو دائرة الخطر. ولقد حوت الحكومة المصرية التركية إستعادة سمعتها في المنطقة، إلا أن نشاطها اقتصر على بعض الإجراءات الدفاعية، ولم تفكر في شن أي هجوم ضد الأنصار. فاشتدت قبضتهم على كل من سنكات وطوكر، وأهم من ذلك بقى طريق سواكن - بربر تحت

سيطرتهم ولم يكن بإمكان أى جاسوس اختراق صفوفهم لبصل رسائل ما إلى سواكر حيث تراءى القوات المصرية .

بعد مضي خمسة أشهر عن الحصار وانقطاع الاتصال الشغرافي ، أيقن غوردون أن تلك القصاصات لصغيرة من الورق التي يحملها الحواسيس وإن وصلت لا تكشف أبدا عما يدور بخده وعن الوضع على حقيقته . فاستقر رأيه على إرسال معاونه ستيرت ناشا على ظهر الناحرة « العباس » حتى يتمكن بشخصه وما يأخذه معه من وثائق من إبلاغ المسئولين بالحقيقة فغادر الخرطوم في ٩ سبتمبر ١٨٨٤ وبصحبه قناصل إنجلترا وفرنسا وألمانيا وبعض التجار والموظفين من السوريين والاعرقي . غروده غوردون مجموعة كبيرة من الخطابات إلى بيرنج والخليوي بالإضافة إلى مذكرات يومية بالأحداث وعرضة رفعت إلى الجباب العالي ووقعها أربعة وثلاثون من الضباط ورؤساء الدواوين والعلماء يتوسون فيها إليه أن يرسل حنده لاحتلال لبلاد وكسر شوكة العصيان (١) .

أصدر غوردون أوامره لإثنين من لبواحر بنصحب « ل عباس » إلى أن تتعصى مناطق الخطر ثم تعودان ادراجهما . ورسم أن الاسطول الثلاثي قد تعرض لهجمات لأنصار مذ مغادرته الخرطوم إلا أنهم تمكنوا من احتياز دبر دون خسائر في الأرواح .

ومن هناك عادت بانخرنا لحراسة متحدثين طريقهما جنوب . ولم يكن خافيا على الأنصار الذين كانوا يتابعون تقدم الاسطول من الشواضي أن « ل عباس » قد أصبحت بمفردها . ولعلمهم أيقنوا أنها في سبيلها إلى مصر فانتشر الخبر بينهم بضرورة منعها من مواصلة رحلتها . ولقد درج الأنصار على صطياد الجو سيس ومؤيدي الحكومة ، فكيف إذا كان بين هؤلاء بعض الأجانب الذين لا نخطئهم ليعين . ولقد ذكر المؤرخ محمد عبد الرحيم

(١) الهدى ، غوردون ، ٢ محرم ١٣٠٢ ٢٢ أكتوبر ١٨٨٤ ملحق و

أن الحماس كان « يتأجج في نفوس الثوار والآن يمكنو رجلا أبيض اللون
شاحب البشرة أن يفت من بينهم ولو اتخذ تقفا في الأرض أو سلما في
السماء » (١) .

وقد واثت الأنصار الفرصة عندما « صططمت » العباس « بصخرة في
شلالات ود قمر في أرض المناصير (٢) فسارع شيخ قرية هبه ، الفقيه ود
عثمان ، تبليغ أمر السفينة الحانحة إلى سليمان نعمان ود قمر ، فما كان من
هذا إلا أن نصب كميناً لقافة ستيورت فأيدمت في غمضة عين . وقد استولى
سليمان على كل المكاتبات التي كانت على متن البخرة وأرسلها إلى يربو
لتبعث من هناك إلى المهدي .

وبهذا جاءت خسارة غوردون مزدوجة ، فقد فشلت مهمة ستيورت
ووقعت وثائقه لسرية في أيدي خصمه . ولقد استعاد المهدي بمرحة كبيرة
من هذه الوثائق في نوقيت محومه على المدينة .

ويلاحظ أنه قد تسم تلك الرسائل في الوقت المناسب ، وذلك بعد
وصوله لمنطقة الخرطوم مباشرة . فأمدته بقاعدة متينة يركز عليها في تقرير
خطته بصورة محددة ونهائية . فقد استفاد من يوميات ستيورت في معرفة
قوة الحامية ونوربعها ، ومواطن الصعف في خط لار من حيث نوعية الجنود
والاستحكامات . ووقف على حقيقة شعور السكان ومبى التعاطف لدى
بعضهم بينهم . وفوق كل شيء ، تأكد له موقف المدينة التعوينى والوسائل
التي يتخذها غوردون لمواجهة الأزمة العذائية . فكان أن وطد عزمه على
تشديد الضغط على الخرصوم وانخضاع كل منافذها للمراقبة الدقيقة حتى
يضطرها إلى استهلاك مخزونها .

ولعل المهدي قد اعتمد على هذه الوثائق في تقدير المدة التي عليه أن

(١) محمد عبد الرحيم - ص ٨-٩ .

(٢) يقول سلاطين إن الصيطان كان قصاري ، وقد أوقع الاصطدام عن نفسه .

ينتصرها قبل أن بوجه ضربته ، فقد كان يسعى إلى إمتصاص الحياة من رجال
الجمية حتى يجبرهم على التسليم أو تصبح مقاومتهم هجومه ضربه من
الاستحيل .

المشكلة المالية :

إن حار لنا أن نعتبر الجيود فى المرتبة الأولى من سلسلة إحتياجات
غوردون ، فإن المال بلا شك يأتى فى المرتبة الثانية .

ولقد فطن كل من بيرنج والحكومة المصرية هذه الحقيقة فوعدوا
غوردون باطلاق يده ليصرف أى مبالغ يرى أنها ضرورية . ولكن يبدو أن
هذا الوعد كان حمرا عن ورقى ، إذ سرعان ما أخطره بيرنج أن يقتصد فى
النفقات إلى أقصى حد ممكن . إذ أن مصر بوضعها حينئذ لم تكن تستطيع أن
تتحمل أى أعباء مالية فى السودان .

عاد غوردون القاهرة وبجوزته ١٠٠ ر. ٤٠ جنيه ولقد أنصرت سلطات
القاهرة محبوظ أسير أن يدفع له مبلغ ١٠٠ ر. ١٠ جنيه أخرى ، ولكن
غوردون - قرر ألا يحمل معه كل هذا المبلغ تحسبا لأخطار الطريق فى رحلة
صويلة عبر صحارى ومناطق غير آمنة تماما . فترك المبلغ فى اسوان على أن
يرسل له بصورة سرية لا تثير انتباه أحد فيما بعد . وأكتفى فى رحلته
بمبلغ ألبى جنيه .

وقد تمكنت سلطات اسوان من جمع ٥٠٠ ر. ٥٠ جنيه بالفعل ، إلا أن هذا
المبلغ لم يقدر له أن يصل إلى البحر طوم .

لم تكن بربر قد سقطت بعد ، ولكن كان الطريق إلى الخرطوم محفوف
بالمخاطر . ولما سال كس تلك الأموال ربما يعرضها لضياح . ففضل الحكام
الإحتياط بها فى خزبتهم بانتظار ظروف أكثر ملاءمة . ودعم كل ذلك
احترق فقد وقع المبلغ فى أيدي الأتصر عندما سقطت بربر واستولى محمد

الحير على الخزينة . وما لبث المهدي أن بعث بـإبراهيم ود عدلان لينقل
محتوياتها إليه

ولم يكن مبلغ الألفي جنيه الذي أحذه غوردون من القهزة يساوي
شيئا أمام احتياجات مدينة في حالة حرب . فبالإضافة إلى بنود الصرف الثابتة .
كان لا بد أن تشأ مع الحصار جبهة إمرات يعتبر الوفاء بها أمرا حيويا
لإستمرار صمود المدينة . وحده غوردون أرملة مالية في إنتظاره تعود ذبوحها
إلى ثلاثة أشهر خست . فلقد كانت الخزينة سخاوية : وسبق أن طلب دي
كنلوجن من سلطات القاهرة أن تبعث له بـ ١٤٠.٠٠٠ جنيه ليدفع رواتب
الموظفين والجنود المتأخرة .

ولعل الملابس والطروف التي أحاطت به لجة مسألة لسودان قد
أنست الحكومة المصرية الأمر تماما ورعا : تجاهلت الطلب نهائيا بعد تقرير
سياسة الاحلاء . لإعتقادها أنها لم تعد في حاجة لخدمات أولئك الموظفين
والجنود . وقد كان على غوردون أن يتحصن نتائج تقاعس السلطات المصرية .
رذ وجد أن نقاء هؤلاء المستخدمين في خدمته أمرا لا بد منه . وعليه فمس
الضروري أن يجد المخرج ليفي بالتزامات الحكومة المالية بحاجتهم ، فأضطر
إلى الإستئانة من بعض التجار ، ولم يمض على وصوله إلى الخرطوم شهر واحد .

لم يغب عن باله من ناحية أخرى أن السياسة لسليمة التي وصدها عن
إنتهاجها من أجل كسب المؤيدين لحكومته كانت في حاجة إلى أمال لتثبت
أركانها . فشرع منذ وصوله في توزيع العملات الذهبية على كل من يتقدم
له بشكوى أو ظلامة . كما كان يدفع مكافآت لاولئك الذين يمدونه بمعلومات
عن تحركات الأنصار ويسوع إعانات مالية مستظمة للعلماء والفقراء مقابل
قيامهم بإقناع الأهالي ببطلان دعوى المهدي .

وقد كان من حين لآخر يضطر لدفع بعض التعويضات للسكان الذين
يؤى استخدام منازلهم في أغراض عسكرية

وكان أيضا بحاجة إلى المال لمواجهة جملة مشاكل أخرى ، من ذلك مثلا إغراء الجواسيس بمبالغ كبيرة لحمل رسائله إلى مصر . وكان عليه أن يتبع كميات من الأغذية لسكان المدينة ، من سنار وبعض القرى المجاورة لجأ غوردون كما سبق أن ذكر بالاستدانة من التجار والضباط الذين ليسهم بعض المدخرات لإيجاد حل للآزمة المالية . وكان يحوز لكل مدين إيصالا بالمبلغ على أمل أن يتمكن من سداذه حالما تتوفر لديه الأموال ، أو على أسوأ الفروض أن تقوم سلطات القاهرة بسدعه اذا ما قدم إليها الإيصال . ويبدو أنه على سبيل الإغراء كان يدفع لهم ربحا قدره قرش واحد على كل مائة قرش (١) ونحدثنا بعض المصادر أن إحدى السيدات ، وهي أرملة التاجر الشركسي مصطفى تيرانس ، أمدت غوردون بمبالغ كبيرة فأنعم عليها « بنجمة الحمر » إلا أن بعض التجار الذين هبوا لمساعدته في بادئ الأمر أحجموا عن مساندته إلى ما لا نهاية ربما لإقتناعهم بأن موقف الحكومة يضعف يوما بعد يوم ، وأصبحت إمانيه وصول أى أموال اليه بعسيدة التحقيق .

ومن ثم حاول غوردون وسيلة إغراء جديدة لعلها تنجح في إستمالة التجار ، وهي توزيع القاب الباشوية والبكوية عليهم . كن حسب وضعه الإجتماعى ، غير أن هذه لم تحرز نجاحا بعيد المدى ، إذ دعا التجار يتساءلون عن ماهية هذه الألقاب إذ استمر الوضع كما هو وقعوا بنهاية الأمر فى أيدي الأنصار . فاستقر رأى غوردون على إصدار عملة ورقية محلية عرفت « بأوراق البون » ولعل ناريخ إصدار هذه العملة ٢٥ أبريل — يكشف أن غوردون كان يعاني فعلا من أزمة مالية بعد مرور شهرين تقريبا على وصوله . وكانت « أوراق البون » عبارة عن أمر دفع بصرف فى القاهرة ويحمل توقيع غوردون وختمه بجانب ختم الحكمديرية . حملت كل ورقة نمرة مسلسلة وعبارة فحواها أن هذا « المبلغ مقبوع وسيدفع من الخزينة دى

(١) الملهق بـل غوردون ٢ محرم ١٣٠٢ (٢٢ أكتوبر ١٨٨٤) ملحق و .

الخرطوم أو القاهرة في أي وقت بعد مرور ستة أشهر على هذا التاريخ ٢٥
أبريل ١٨٨٤ .

كانت جملة الأوراق التي طبعت في بادئ الأمر تساوي ٥٠٠٠٠٠
جنيها من فئات ١ - ١٠ جنيها إلا أن مبلغ ١٠٠٠٠٠ جنيها قد صبح فيما
بعد من لفئات الصغيرة ذات القرش والخمسة والعشرة .

واظب غوردون بعد ذلك على توفير كل ما يحتاجه من ما من بهذه
الوسيلة . فأصدر ذات مرة ٦٠٠٠٠٠ جنيها ثم ٧٠٠٠٠٠ جنيها فيما بعد .
يقال إنه دفع منها زيادات في مرتبات المستخدمين ، وأرسل جزءا منها لحماية
سار ، ويقدر جملة المبلغ الذي طبعه غوردون بـ ٢٢٠٠٠٠٠ جنيها .

وكان استقبال أهالي الخرطوم لأوراق البون متفاوتا ، يعكس إلى درجة
كبيرة مدى ثقة كل فئة منهم في الحكومة : فقد تشكك السودانيون عموما
في قيمة العملة الحقيقية ، وكان الاتجاه بينهم هو محاولة التخلص من أبة
كمية تقع بأيديهم ، في حين أن طبقة التجار بما فيهم الأغريق والسوريون
والمصريون وربما بعض السودانيين قد ، أندوا إستجابة ، طيبة وقبلوا التعامل
بها على أمل أن تساعد هذه في تقوية مركز الحكومة المالي وبالتالي تتمكن من
الصمود في وجه الأنصار . ولكن يبدو أن فئة منهم رفضت التعامل بها ، الأمر
الذي دفع غوردون إلى إعلان عقوبات صارمة بحق هؤلاء تراوحت بين
السليم للعدو والإعدام رميا بالرصاص . وقد اضطر لحبس أربعة عشر
تاجرا في طابية اسرايا الشرقية في مواجهة مدافع الأنصار عقابا لهم على
رفضهم العملة الجديدة ، ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن قطعوا وعدا
بالاعتراف بها .

غير أن كل هذه الإجراءات لم تجعل تداول العملة أمر يسيرا ، إذ
مرعان ما برزت مشكلة التزوير . فبعد ظهورها بفترة وجيزة أكتشف أحد
رجال الحكمارية ورقة مزورة من فئة لعشرين قرشا وقد أثبتت التحريات

أنها من فعل أحمد وصابر، بنى الشيخ عبد الغنى السلاوى، فقدمنا للمحاكمة .

بالاضافة إلى هذا فقد حاول بعض التجار شراء كميات كبيرة من أوراق البون بمبالغ زهيدة أقل كثيرا من قيمتها الرسمية، حتى يتمكنوا من إستخدامها متى ما توفرت النفود بقسمتها لحقيقية، إلا أن غوردون تمكن من كشف هؤلاء، وكان بينهم السيد محمد طه، وعلى اغا بربازى - ومحمد سعيد الدباغ - ومحمد حسن حبر الله . وقد عاقبهم بالحبس فى اسرايا اشرقية وهددهم بالسليم إلى الأبد إذا ما هم عادوا بعملتهم تلك .

إلا أن المخطر الحقيقى الذى كان يهدد بدور العملة الجديدة هو هبوط قيمتها . فلقد لوحظ بعد حوالى شهرين من إصدارها أن قيمة الجنيه قد هبطت إلى ٨٠ - ٩٠ قرشا .

ولم يكن لارتفاع الأسعار هو السبب فى هذا، بل على الأرجح أن عدم الثقة فى أوراق البون هو الذى أدى إلى هبوط قيمتها . وباشتداد الحصار حول المدينة أخذت هذه المشكلة تتخذ شكلا أكثر حدة، حتى أن قيمة الجنيه هبطت إلى ١٥ - ٢٠ قرشا فقط . وكان من الطبيعى أن يخلق هذا الوضع موجة تدمير عالية فى صفوف البعد والموظفين، ولتلافى هذا عمل غوردون على إعطائهم أجور اضافية وهبات مالية فوق الرواتب حتى يعوضهم عن الخسائر بين القيمة الرسمية للعملة وقيمتها الحقيقية فى الأسواق .

مشكلة المأون :

كان لابد أن تواجه الخرطوم . شأنها شأن أى مدينة فى حالة حصار ، مشكلة المواد الغذائية . وقد أضفت هذه المشكلة إلى غوردون عبئا جديدا، إذ أصبح لزاما عليه توفير الطعام لما يقارب الخمسين ألف شخص إلى أجل غير محدود . فاضطر إلى تخوض معارك ضارية ضد جموع الأتباع حتى يجبرهم على التراجع ويبقى الطوق المؤدية إلى المناطق الزراعية التى تعتمد عليها المدينة مفتوحة له .

وكان أنصار يرون من ناحية أخرى ، أن تحقيق محاجة في الخرطوم هو هدف رئيسي ووسيلة فعالة لحملها على التسليم

نجح أنصار الشيخ العبد وود البصير منذ البداية في عزل الخرطوم عن مناطق تموينها التقليدية . وجاء أبو قرجه ليفرض مزيدا من الرقابة على أعراب الجزيرة حتى لا يدخلوا إليها شيئا من الحلال والأبقار . وواظبوا في ذات الوقت على شن هجمات على بواحر غوردون متى ما ظهرت على مرمى البصر . وعند وصول أنصار التجرمي إكتملت لهم السيطرة على كل المناطق المتاخمة للمدينة سواء من جهات الجريف والحلقاية ، أو الجزيرة ، وتمكنوا بالتالي من فرض حظر شامل على دخول أى مواد غذائية إلى المدينة .

رغم أن لخرطوم كانت تحوى ضمن تخطيطها حملة أراضي صالحة لزراعة يمكن إستغلالها في وقت الشدة ، إلا أنها كانت تعتمد في تموينها على المناطق التي تحيط بها من الجنوب وشرق وعلى مناطق الجزيرة الممتدة إلى سنار . ولقد بدأت أزمة الخرطوم حينما قامت القبائل لقاطنة في تلك الجهات لصرة المهدي . فهجر بعضهم الزراعة تلقائيا لإيمانه بأن الجهاد أفضل ، وثمة بعض آخر إستغفر بواسطة دعة المهدي لنذ مباحج هذه الدنيا الزائفة والمساهمة في إقامة دين الحق . فتركوا مزارعهم تحت رعاية صغار الأبناء والرفق (١) . وقد فطن المهدي منذ البداية إلى الدور الذي يمكن أن تؤديه هذه القبائل في إمداد الخرطوم بالعداء ، فأصدر لهم منشورا يأمرهم فيه بقطع علاقاتهم التجارية مع أهالي العاصمة ، والإمتناع عن تسويق الغلال بداخلها .

وقد تمادى بعض دعاة المهدي في تحذير رجاء القبائل بالقول إن من دخل الخرطوم فهو كافر : يؤخذ ماله وأولاده غنيمة ، ولعل الإجراء الذي إتخذه الحكومة بشأن شراء كميات من الغلال في آخر ١٨٨٣ وأول ١٨٨٤ كان رد فعل لهذا المشور . فعند انسحاب حاميش الكوة والدويم سارع رجال الحكومة إلى شراء كميات من بذرة من فرى النيل الأبيض حري

(١) بابكر بدري - ص ٢٠ .

تخزينها بالشوكة . كما يمكن حاكم سدر من الحصول على كميات أخرى
بعث بها إلى العاصمة في مطلع ١٨٨٤ .

إذن وحده غوردون عند وصوله أن موقف المواد الغذائية لا عيار عنه ،
فقد قُبرت كمية الذرة بحوالي ٢٣٥٠٠ أردب ، بالإضافة إلى ١٠٠ أردب
من القمح وكميات من الأرز والبقسماط و ١٤ قنصرا من الحنظل و ١٠٠٠
من الزيت و ١٠٠ قنطارا من الزبد (١) . ولقد كانت هذه الأرقام مسجلة
في دفاتر الحكومة ، إلا أن غوردون إكشف فيما بعد إختلاسا في المواد قام
به حسين سرى المخزنجي ، وانضح أن الكميات الموجودة تقل كثيرا عما هو
مفيد في الدفاتر ، قدر غوردون إستهلاك الجنود اليومي بحوالي سبعين أردبا
من الذرة ، ولو اقتصر الصرف الحكومي عليهم لأمكن تدبيره . خاصة وأنه
قد تمكن من الحصول على كميات إضافية من الغذاء فيما بعد . ولكن
غوردون كان مضطرا لاعامة فئات أخرى

فما أن وصل إلى الخرطوم حتى بعث ، ١٠٠٠ أردب من الذرة إلى
بربر ، يبدو أن حسين باشا خفيفة كان قد طسها منه . ولعله كان يريد إغراء
المدينين ليبقوا على تأييدهم له عن طريق صرف المواد الغذائية لهم من محارن
الحكومة ، حتى أنه كان ينفق عن حى بأكمله قدر عدد سكانه بأربعة آلاف
شخص تقريبا . ولما كان لابد من إتخاذ الاحتياحات اللازمة لتوفير الغذاء
في المدينة حتى تتمكن من الصمود . فمهما كان تعداد رجال الحماية ، وما
يحملونه من سلاح ، فلم يكن متوقعا أن يتمكنوا من صد هجوم يشنه الأنصار
وهم جوعى . بالإضافة إلى أنه من الصعوبة إقناع المدينين التمسك بحكومة
عاجزة عن توفير أول متطلبات الحياة لهم .

ومن هنا جاء قرار غوردون الذى اتخذه حاب وصوله إلى الخرطوم
بعدم إستهلاك المواد المخزونة في الصرف اليومي والاحتفاظ بها لوقت الشدة .
وحاول في ذات الوقت إيجاد مصادر لموين المدينة باحتياجاتها اليومية .

ولما أُناحت له الظروف ثلاثة مصادر بذل جهداً خارقاً في استغلالها لأقصى درجة .

أ لغارات على مواقع الأنصار :

شكلت معسكرات الأنصار - التي بدأت في الظهور على مشارف الخرطوم منذ مطلع شهر مارس - أولى مصادر غوردون التموينية ، إذ قام أهالي المناطق الزراعية المناخمة بخرطوم بمد المحاصرين بكميات وافرة من الذرة حري تخزينها داخل المواقع العسكرية . فحرص جنود غوردون أثناء هجومهم على الاستيلاء على تلك المخزونات . فاضطحت الحملات ذات فائدة مزدوجة ، فهي بالإضافة إلى هدفها العسكري لدى يتمثل في إجبار الأنصار على التراجع تقدم حلاً جزئياً لأزمة العداة في المدينة .

وعند وصول قوات أبي قرجة وإتحاد مواقعها أمام طابئة يرى بعض غوردون قوة لمهاجمتها ، فنجحت في إنزال الهزيمة بها ، وتراجع الأنصار مخضعين وراءهم كميات من الذرة قدرت بأربعمئة أردب .

وفي أغسطس أرسل غوردون فرقة لتعقبهم في معسكرهم الجديد الذي أقاموه في الجريف ، وتمكنت من الإستيلاء على ٦٠٠٠ أردب من الذرة وبعض الأبقار . أما هجمات سني بك فقد تركزت على تجمعات الأنصار في السبب الأبيض ، حتى تمكن من غيمة ١٠٠٠ رأس من الأبقار . ونتج من جراء العمليات العسكرية حول الخرطوم أن هجر أهالي النضعة الشرقية لنيل الأزرق ديارهم في محاولة لإيجاد مأوى آمن . فبعث غوردون أحد قادته - محمد علي باشا - لاستكشاف ما إذا كان الأهالي قد حلفوا وراءهم أي مواد غذائية .

وقد صدق حسن غوردون ، إذ تمكنت القوة من وضع يدها على كميات من الأغذية منها بعض البقول ، وكمية من الذرة قسرت بألف أردب .

كانت منطقة الحلفاية فيما مضى مركزا لتجميع القبائل وسوقا لبيع
الغلال ، إلا أن تصاعد العمليات العسكرية فيها قد أدى إلى شل حركة تملك
أسواقها ، ولم يعد بإمكان الأعراب الحضور بيضائعهم ، ولم يكن بإمكان أهالي
الخرطوم الخروج لشراء احتياجاتهم منها . وقد تفاقم غوردون بعد إرغامه
أبى قرجه على التراجع ، فحاول أن يعيد الحياة الطبيعية إلى المنطقة ، فأوفد
كلا من محمد علي بدش وفرج الله بك على رأس قوة تهدف لإجبار العباس
العبيد على إخلاء الموقع ، فأنحرت الحملة هذه المهمة . وعادت محمية بكريات
من الثورة و المواد الغذائية . وسيحة للهدوء السيسى الذى ساد المنطقة فقد ظهرت
الغلال مرة أخرى ، وتراجع أهالي الخرطوم على شرائها ، وهبطت الأسعار
إلى مستواها العادى لأول مرة منذ بدء الحصار .

وفى إحدى المحطات على منطقة أم درمان استولت قوات لحكومة على
ما يقرب لتسعين رأسا من القمح ، وفى معركة أخرى تم الإستيلاء على
ثمانين منها .

ب - الحملات العسكرية إلى الجزيرة

كانت سنار وما جاورها من القرى هى المصدر الثانى الذى اعتمد
عليه غوردون فى مباد المدينة بالغذاء . وهذا فقد كان يرقب تصاعد العمليات
العسكرية فى تلك المنطقة بكثير من القلق ، إذ أن سيطرة الأنصار على طريق
سنار - الخرطوم ، كان لا بد أن يعجل بوقوع أزمة عدائية فى الخرطوم يصعب
تفاديها . ولعل كولوبيل دى كتلوجن قد فطن إلى هذه الحقيقة قبل وصول
غوردون ، فعثت بصلح المد على رأس قوة من أساشورق إلى لداسى فحمر
تحتلها هناك وتحصن به ليحمى طريق سنار - الخرطوم .

ورغم أن هذه لقوة قد صمدت بعض الوقت أمام هجمات الأنصار
إلا أنها استسلمت أخيرا لقوات أبى قرجه ، وتقطع منذ ذلك الحين أى اتصال
بين الخرطوم وسنار ، ولم يتمكن غوردون من إيلاء أى عثات إلى سنار إلا فى

أغسطس ١٨٨٤ حينما دحر أنصار أبي قريحة وإصطبرهم إلى نواحيه ، فأصبح الطريق آمنا بعض الشيء . وبعدها أرسل غوردون قوة تحت قيادة محمد علي باشا لبعض قرى النيل الأزرق في محاولة لشراء مواد غذائية ، وقد توجهت من نوها إلى قرية أبي حراد التي عرفت بثرائها لكونها مركزا هاما لتجارة الحبشة ، وقد نجح محمد علي باشا في رفع الحصار عنها واستولى على ١٨٠٠ أردب من الذرة ، و ٨٥ قطار من اللبن ، و ٣٢ قطار من السمسم ، قبل أن يعود أدراجه إلى الخرطوم .

بعث غوردون بعد ذلك بعثتك بطراسكي إلى سنار بهدف الحصول على كميات أخرى من الذرة ، وبعض المؤن التي كانت سنار غنية بها ، ويبدو أن أهالي سنار كانوا على علم بأزمة الخرطوم التموينية ، فتسابقوا في إرسال المواد الغذائية لدويهم في العاصمة ، فعادت السفن محملة بها . إلا أن نصيب الحكومة لم يتعد الألف أردب من الذرة ، ولهذا أوقع غوردون الجزاء على بعثتك بك فمقد وظيفته

وكان مدير سنار ، حسن بك صادق . يعي تماما دور مدينته في تموين الخرطوم بالعداء ، فذل غاية جهده لمقاومة تلك الإحتياجات رغم أن سنار كانت تحاول هي الأخرى التفكاك من قبضة الأنصار ، ومع هذا فقد أمر السكان بضرورة جمع الذرة من القرى المحيطة بهم كما سمحت لهم الفرصة ، وأخذ يقوم من جانبه بين النية والأخرى بالهجوم على معسكرات الأنصار المنتشرة حول المدينة ليستولي على ما يجده فيها من مؤن . ذات مرة أرسل فرقة من لجهادية بقيادة أربعة من السناجك إلى شاطئ النيل الأزرق الشرقي ، حيث كان الأنصار قد حاربوا كمية من الذرة ، وبعد مفاوضات دامت ثمانية عشر يوما نجحت قوة سنار في الاستيلاء على تلك المخزونات .

وفي سبتمبر أرسل غوردون محمد نصحي باشا في بعثة على الباخرتين « النوردين » و « قل الحوين » إلى سنار ، فأمدته حسن بك بصلير من تلك الكمية

لنى تم لاستيلاء عليها (١) فأخذ حمولة بلغت ثلاثة آلاف أردب . كان نصيب الحكومة منها الثمان . وما تبقى كان هدايا من أهالى سار ، إلى ذويهم فى الخرطوم مع كميات من الزيوت ، وأنسجم .

إلا أن ذلك الوضع لم يكن ممكنا أن يستمر ، فما أن وصل عبدالرحمن النجومى حتى سعى مرة أخرى للسيطرة على الطريق . جيش طابية فى لجريف ، عليها قوه من رجاله ، لا تستهدف شيئا سوى بواخر غوردون مى ظهرت فى الأفق . ومنذ ذلك الحين فشلت كل محاولات غوردون فى تخراق ذلك المحصار . فقد دلتى مصدرا من مصادر تموينه الرئيسية .

ج - حملات داخل المدينة .

واضطر غوردون لاتحاد بجملة إحصاءات لتفادى خطر المجاعة لنى أصبح حنوثها وشيخ الوقوع ، فعين بعض ضباطه لاستيلاء على كل الغلات الموجودة فى لمدينة . وأصبحت الحكومة سيعها لدورها للمستهلك الذى يقدر على الدفع . ثم أمر سكون جزيرة توتى بزراعة أراضيهم وجلب المحصول إلى الشونة . وكذلك كون لجنة خاصة لتابعة هنا الأمر برئاسة فوج باشا لزينى ، وقد تم حصد حوالى ٢٠٠ أردب من الذره ، وفى آخر نوفمبر ١٨٨٤ تأرم الموقف بشكل حاد ، إذ أن كل ما أمكن جمعه من مؤن قد نفذ تماما من محارن الحكومة . فشكل غوردون لجنة أخرى برئاسة الفتنص اليونانى نكولا ليونديس يقوم من جديد بحملة تفتيش شاملة فى المدينة تأتى بكل ما تجده فى حوزة السكان إلى الشونة تاركة هم مؤونة عشرين يوما .

وقام هو من جانبه بتحرير إصصالات لكل من صودرت غلاله يقضى بلفع ١٢ جنيتها للأردب حال وصول القوات الإنكليزية . ورغم أن هذه اللجنة قد واطبت على القيام بمهمتها يوما لمدة شهر كامل إلا أن كل ما أمكن الحصول عليه بلغ حوالى ٣٠٠ أردب فقط .

(١) اسمعين أشع ابراهيم ، قة رير وإفادات عن حصار الخرطوم وسار .

دعا غوردون قاده للتشاور في كيفية تدرك الأمر فأستمر الرأى على
الاعتناء بنصف التعيين المقرر للجنود . ثم كونت لجنة أخرى برئاسة أحمد
بك على حلاب : وعصوية إبراهيم فوري ، وإبراهيم أبو ديبى ، وكولا
يونديدمس ، والمعاون فتح الله ، وكولا بك الطيب اليوماى . لتحرى بحثا
دقيقا في المدينة عن أى مأكولات مخروطة لدى السكان .

وكان نتيجة هذا البحث حصص حول ٦٣ أردنا من التميرة وبعض
الابقار الخاترة القوى .

لجأ غوردون بعد ذلك إلى الطيب يستعمر عما إذا كان هناك عائق
صحي في سبيل تغذية الجنود بالصمغ المستحضر بجمار الخيل . وقد أفنى
الطبيب بأنه لا ضرر منه . ولعل غوردون كان أول المعارض بأن هذا الغذاء
لا يمكن أن يكون غذاء لحامية مطوب منها أن تدافع عن مدينة يقف على
أبوابها ألوف مؤلفة . وانصح في ذلك الحين أن عالية الجنود قد فقدوا
المقدرة حتى على حمل سلاح ذهيك عن استعماله .

وإزاء هذا الوضع كان لا بد أن تمشي ظاهرة التمرد والعصيان
وتكررت حوادث الفرار إلى معسكرات المهدي .

وفي ١٦ يناير ١٨٨٥ كانت المدينة قد قصت تماما عن كل ما يمكن
أن يؤكل سواء بإستشارة الطيب أو بدونها (١) . كان الجنود يقتنون من
الصمغ منذ أول يناير . فقد معظمهم الحد الأدنى من اللياقة لخدمة اثني ثوبهم
لخوض معركة لدرجة أن غوردون أصدر مرسوما بعفيهم من الوقوف لتحتيته .
وقد وصلت صحتهم درجة من الوهن بحيث لم تكن لتسمح لهم بصد أى
هجوم يشبه الانتصار لإفتحام أبواب المدينة وحطوط دفاعها .

(١) شهادة عبد القادر حسن في المحكمة التي عقدت في القاهرة في أبريل ١٨٨٦ لتحاكم

حسن بك بهنساوى Wingate, Mahdism

and the Anglo-Egyptian Sudan, pp. 556-90.

أصبح أمل عوردون معلقا بوصول فرقة الإنقاذ . ولعله كان أملا يرتكز على عدم معرفة حقيقة بحجه هذه الحملة . فبه تكن سوى ناشرين عليهما بضعة مئات من أرادب الليرة .

ولا بد للمرء أن يتساءل عما إذا كانت هذه الكميات الضئيلة كافية لتعبد الحصاة إلى سفن الحامية ، بدو حة تمكسهم من الصمود أمام القوات التي اقتحمت أسوار المدينة عشية السادس والعشرين من مايو . وقد أجاب أحد قادة عوردون بالنفي القاطع عندما سئل إن كانت مساهمة حملة الإنقاذ في حاله وصورها قبل سقوط المدينة ستساعد بأي صورة من الصور في تغيير مجرى الأحداث (١) .

لقد كانت الظروف تعاني من أزمة حادة ، وأصبح سقوطها نتيجة لتفشي المجاعة أمرا يكاد يكون مؤكدا . ولعل حملة الإنقاذ لم تكن لتفعل سوى القليل . كانت مشكلة الجنود هي الانهك الجسدي الذي تعرضوا له في الآونة الأخيرة ، وفقدوا من جرأته لياقتهم ومقرتهم على الحرب ، وهذا فمن الصعب قبول الرأي القائل بأن المدينة سقطت لأن حملة الإنقاذ قد وصلت متأخرة ، أو لأن الأنصار قد علموا بواسطة الجواسيس أن هناك فتحة في التحصينات يمكن اجتيازها بيسر إلى الداخل .

لقد حشد لمهدي قواته حول المدينة قرابة عام كامل مارس خلاله حرب إستراتيج بطيئة ، انهكت قوى جنود الحكومة لدرجة أنه لم يكن في مقدورهم الصمود أكثر من يوم واحد على أكثر تقدير بعد ٢٦ يار .

وإذا ما إقترعنا أن الأنصار قد هاجموا المدينة من الجانب المتهدم من الخندق ، فإن المجاعة هي التي تسببت من بقاءه على ما هو عليه خرج عوردون على أمر جنوده بترميم كل جزء نجف عنه الماء ، إلا أنه اضطر إلى إهماله عندما تدهورت حالة الجنود الصحية . إذن فقد كان مصدر الضعف الأساسي

(١) حسن بك بهسروي، تقارير واتقادات عن حصار الخرطوم وسائر .

هو المجاعة التي لا بد أن تكون آثارها قد إنعكست على أداء لجند سواء في صد الهجوم أو تقوية وسائل الدفاع . كان الحصار المصروب حول المدينة شاملا طويلا ، اضطرت الأسكك خلاله إلى استهلاك كل ما وقع بين أيديهم .

مشاكل المهدي :

كان لا بد أن يواجه المريد الآخر مشاكل شبيهة بتلك التي واجهها فورردون . إلا أن هناك عدة عوامل ساعدت في تخفيف حدة الأزمة عند الأنصار . وتأتي في مقدمة هذه طبيعة الدعوة نفسها .

فهي نداء لكل مسلم ليسير طهره لهذه الدنيا الفانية فلا يلتفت لجمع أموال ولا يلتفت وراء سلطان ويكتفي في مأكله بما سد رمقه ، وفي ملسه بما ينم عن التواضع العجم .

أما العامل الثاني فهو الانتصارات المتعددة التي حققها المهدي في جملة معارك قبل تقدمه نحو الخرطوم . ويأتي العامل الثالث في حجم وطبيعة تفقات الأنصار . فلم يكن المهدي يمتد حيث من العسكريين والديين يضطر إلى دفع رواتبهم شهريا حتى يحفظون له الولاء . أما العامل الرابع فهو نجاح المهدي في كسب تأييد الرعاة من قبائل كردفان الذين لم يشعروا من عضده ليسيظروا على مديريتهم فحسب . بل ساروا معه حتى تمت له السيطرة على الخرطوم .

المشكلة المالية :

بدأ المهدي معركته في حروبة أنا وهو حالي الوفاص ، علوة الإيمان لصديق بادعوة ، وحتقار عنيف للملوك الديوية من مال وجاه ومنصب ، إلا أن هذه الأسلحة لم تكن وحدها كافية لإنزال الهرينة بقوات الحكومة على الدوام . فاستعان أنصاره بسيوخهم وحرابهم لمواجهة فيران قوات رؤوف باشا . ولم يبرز في ذلك الوقت مشكلة إمداد الأنصار بالمال لمعشتهم فقد كانوا بضعة مئات يعيشون مع أسرهم بالوسائق التي درجوا عليها

إلا أن الهجرة إلى العرب وما تبعها من تكاثر أعداد مؤيديه، وتوسع نشاطهم قد حتم عليه أن يجد وسيلة ما لتمويل الدعوة . فدكى تنقى تلك الجموع المؤلفة في معيشتهم كان عليه أن يوفر لهم سبل الحياة إذ هاجر أغلبهم من دياره وقد باتت في مصدر معيشتهم .

لم تكن أمامه وسيلة سوى استثمار المؤسرين من أتباعه ليعودوا به يفيض عن حاجتهم . فوجه لهم المشورات والرسائل التي تحثهم على نبذ مظاهر الدخ والسرف والاكتفاء بالقليل الذي لا بد منه . وقد جاء في إحداها قوله « ... إنكم بايعتم الله ورسوله وبايعتموني ورضيتكم بي وبيعني على نصره الدين ، فقد قبلتكم ، ونسأل الله أن يقبلكم ، ولكن لازم أن تعملوا بما يرضيني من ليل ليلتكم والقبض عليها لله ورسوله ، فإنه على قدر الغيرة عن الحسن بريد . اتعبد من الملكوت القلبي . فاقبلوا من النظر إلى ظاهركم ، لترنو من القلبي الملكوتي الذي يدوم لكم ، ولكن نظركم في خدمة ربكم فقط ، فإن حب المال والعاج الذي هو إصلاح ظاهركم فإن وعلى قدر الأمل في ذلك والإكثار يظلم القلب . ويشترك في المصيب الشيطاني كما ورد أن حب المال والسوء ينتن العاق في القلب كما نبت الماء السفل .. (١) وكان يكرر لهم درما قوله تعالى « هل أدلكم على نجاة تخرجكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله . وتجاهدون في سبيل الله بأمواتكم وأنفسكم » فالتضحية بالمال تأتي من النفس . وعليهم أن يتحذروا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم أمثال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان فتوة يحتنون بها في هذا المجال . فقد كانوا يصرفون من ماضم الخاص لتجهيز الجيوش . وكان الذي لا يقدر على ذلك بجهر أدايه ومعضهم الاثنين والثلاثة حتى يكون البعض الذي لا تحوله أيدي لصحابة يجهز من بيت المال .. (٢) .

(١) انتهى إلى ادعاءه عبد كورين ومن تبعهم ، جمادى آخر ١٣٠٠ إدارات ب ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢) انتهى إلى حقيقته في السنة من الرس و آخر ١٣٠٠ جمادى آخر ١٣٠٠ إدارات ب ص

ولم يكن المهدي يستولى على أموال أتباعه عبوة بل كان يسعى عن طريق الوعظ والمنشورات لإقناعهم بتقديمها لبيت المال من تلقاء أنفسهم ، ولكن هذه حالة واحدة اعتبر فيها الاستيلاء على أموال الأنصار مباحا . وهي تنطبق على أولئك الذين أقاموا في أحد المواقع التي تعرضت للحصار ، إلا أنهم خرجوا للمهدي قبل سقوط الموقع . في هذه الحالة « نعم جميع أشياءهم إلى بالفقرة وترك إلى خرجت معهم كثرت أو قلت » (١) .

ورغم أن المهدي أعطى تجرد أصحابه من ثرواتهم الخاصة بعض الأهمية ، كما تدل رسائله ، إلا أنه بلا شك لم يكن مصدر تمويله الرئيسي . كان من الطبيعي أن يراكب إنتصاره العسكري على قوات الحكومة في عدة مواقع امتلاء في خزينته . ولقد جاء أول الغيث مع هزيمة رشيد أيمن حين تمكن من الإستيلاء على ما كان بحوزة حملته من مال وعندما جاءت هزيمة يوسف الشلالى عنهم معها « شيئا كثيرا من الثغور » .

ولعل كسب المهدي الأكبر قد جاء بعد سقوط لايبس حيث إستولى على خزينة الحكومة . بالإضافة إلى الأموال الخاصة . إذ كانت الأبيض مركزا تجاريا هاما حدثت عددا كبيرا من الأجانب الذين تمكنوا من جمع ثروات وسطوا بالمدينة .

وبصف أحد شهود العيان الأموال التي استولى عليها لانتصار عند دخولهم بقوله « أما من جهة الغنائم التي جمعها أحمد ولد سليمان بخلاف التي أخذوا الأعراب من الذهب النقيش والفضة شيء لا يوصف وأما من العملة من الجنيحات ، والفرج بالله . واستنقى . والمحر ، والمحمودية والنجيدية ، والخيارية . والربيعية عملة الذهب شيء كثير بخلاف عملة لفضة المجيدي وأوشيكو . وأمصري ، وأبو مدفع ، وأبو مسلا ، والطبر ، والدمج ، مال لا يأكله إلا ب جميعه بيد أحمد سليمان أمير بيت المال بخلاف سلاسل الذهب الكيس في الكيس لغاية سقف المربعة .

(١) المهدي إلى محمد الخير عيالله خوحي - احكام ص ٢١٦ - ٢٢ .

ويبدو أن بعض أتباع المهدي قد تمكنوا عند سقوط المدينة من لاسيلاء
على بعض الأموال كما ذكر هذا المصدر .

و نالبت المهدي أن أصدر مشورا يحذرهم فيه من مغبة هذا الفعل
« فتأروا رجعوا عن ذلك وأوردوا بيت المال كثيرا من الأموال والرقيق
والمصاغات » (١) .

و كان المهدي صارما في مسألة العتائم هذه . حرصا أشد الحرص .
بأن تعود بكاملها لبيت المال . وقد كتب في تبرير هذا عدة مشورات ورسائل
دهور يحاطب مجموعة من قادته في هذا الأمر قائلا « أحيائي إنه لا يخفى
ما كرر عليكم فيه والأمر كلها بيد الله وهو القائل لأعدائهم لا أنتم ولا
غيركم وإنما ساقكم للجهاد ... » . وقد تشدد معهم في هذا إلى درجة أنه
قال « من حيا شيئا من العتائم ولو قبيلة فليس من أصحابنا وإنما هو من
أصحاب إبليس والدجال » (٢) .

تمكن المهدي أيضا من لاستيلاء على الأموال التي كانت بحوزة حملة
هكس باشا . وتلك التي وجدت في خزانة بربر . ويبدو أن ما حدث في
الايض من أمر إستيلاء بعض الأشخاص على الغنائم تكرر في بربر . فما
وكن من المهدي إلا أن أرسل أوامره الشديدة لاسترجاع تلك المبالغ التي
قدرها معاونه أمين بيت المال بمائة ووحيد وستين ألف ريان وثلاثمائة وخمسة
سبعون .

وقد أمر المهدي ألا يترك في حوزة من استولوا عليها دينارا أو درهما
« ومن أخر شيئا من ذلك يؤخذ منه كرها ويخرج اسمه من دفاتر أنصارنا » .
كانت تقعات المهدي تنحصر أساسا في إغشة المحاربين من أتباعه
الذين ثبت فعلا أنهم لا يمتشكون ما يقتاتون به ، فيقوم بيت المال بالتكفل

(١) المهدي إلى محمد آقاي بر عبد الله خوجا ٣ صفر ١٢٠٢ انذارات ب ص ٢٠٣-١٢٠٣ .

(٢) المهدي إلى محمد عثمان بن تروحه وعبد الله بن جبريل محرم ١٢٠١ انذارات ب ص

بصر ورياتهم من مأكول ومشرب وملبس (١) . أما الأسلحة فلم يكن يصرف عليها كثيراً ، إذ أنه استفاد من تلك التي عندها من المعركة السابقة ، والمواقع التي استسلمت له وديا . وكان بدوره يقوم بتوزيعها على من يستحقها من المجاهدين ، شريطة أن يكون إيمانه تامهده لا يرقى إليه الشك .

مشكلة الغذاء :

لم تبرز قضية الغذاء عند الانتصار كأزمة بالصورة التي عناها سكان آخر طوم طرس مدة حصارهم لأمدينة . وهذا يعود إلى موقف المهدي المبدئي من مسألة منبت الدنيا وأهوائها . إذ آمن بأن المسم الحق هو الذي يكرس حل وقته لذكر الله ورسوله ولا يجعل قضايا الرزق وكيفية الحصول على الطعام تشغله عن هذه العناية (٢) .

وم فتيء المهدي يذكر أتباعه بهذه لتعاليم حتى أصبح أمر ماذا يأكلون أو كيف يأكلون لا يستحوذ إلا على قدر قليل من إهتمامهم . لم يكن المهدي يدعوهم بالطبع إلى الموت جوعاً ، بل إلى الاكتفاء بتقليل الذي يسد الرمق ، وبذلك الغذاء البسيط الذي لا يتطلب توفيره جهداً يعوقهم عن الغرض الأساسي من الدعوة .

ولقد حرص قائده أشد الحرص على الالتزام التام بذلك المبادئ ، حتى أنهم كانوا يستشيرونه متى ما أحرهم صاري على الجهاد عنها

فكتب له نفر منهم ذات مرة يقول . « ثم سيدى إننا حضرنا بجهة متدرون !حوانا الفقراء لما رأينا مأكولهم البيلة فقط أدناهم بتعاطى قليل من البص والويكة والسهم مع ذلك أنه ليس موجودا ، وقد رأينا ذلك ليس مخصصا عند الله تعالى بلا رفع الأمر لسيادتكم ، وحيث أن الإخوان حاصل لهم التعب

(١) المهدي إلى محمد الخير عبدالله حوجن ، أحكام ص ٦ ٢-٢٢

(٢) المهدي إلى عبد الرحمن نجومى ، عبد الله التور ، محمد عثمان ، أبو ترحة ، در الحجة ١٣٠١ (قبل ١٢٠ أكتوبر ١٨٨٤) المذكرات ص ٢٢٥ - ٢٧ .

ولا معاهدت سوق يشتركون منه للملاح والملاح. والآن معنا أنقار قليلة فالمرمت
بتحرير هذا العرص لمبادنتكم رجين الإذن في راحة الأخوان بما عندما لآن
من البقر القليلة وفيما يوجد من الآن فصاعدا من الأصناف المذكورة والمساهمة
فيما مضى، وأن تبنوا لنا انجيز تعاطفه منها والممنوع لسدوت طريق ارشاده» (١)

مكشف هذه الرسالة حزم وصراحة المهدي هي الا يقتات أتباعه إلا
بأبسط الغذاء، حتى أن قاداته يستشيرونه ويطلبون الإذن إذا ما بتفوا، يدخل
بعض العناصر إلى وجبة طعامهم. ونلاحظ التزام المهدي مرة أخرى في الرد
الذي بعث به «... وأما البصل والسمن والريكة وغيرها من المأكولات
فجائز لمجاهد أن يأخذ لضرورة من غير ادخار وتمول، فالأكل في بيته
له جائز كما فص ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإذن منه
وأما البقر فأنها منموه فاذا حوا للأكل بالإذن لزوم الضرورة...» (٢)

وكذلك حرص المهدي على التشديد على قاداته بالا يصرهوا إلى أمر
تدبير الطعام ويملوا تنفيذ ما أمرهم به. إذ أن من شأن ذلك أن يدخل في
قلوب الأصحاب الالتفات إلى غير الله من حيث لا تقصدون ذلك لأنكم
مفتدى بكم ومنبعون وتناس حسن ظن بكم لأنكم من الأولين السابقين
المشار إليكم من حضرتنا كثيرا» (٣).

وعندما إشتكى له عبد الرحمن النجومي وعبد الله ود النور ومحمد
عثمان أبي قرجه من أن أولاد ود البصير لم يستجيبوا للأمر الذي وجهوه
إليهم بجلب الدرة لمسكرت الأنصار كتب المهدي رسالة مطولة يومهم
فيها عني طلب الرزق من غير الله... وتعلمون أحبائي إننا لما كنا في أبا
ما كانت لنا حجة نعرف اتيان رفقنا منها، حتى هاجرتنا منها إلى قدير بأمر

(١) عبد الرحمن النجومي وحيدان أسى صفة إلى المهدي احكام ص ٣٦ - ٧

(٢) المهدي إلى عبد الرحمن النجومي وحيدان أبو منعه، رجب ١٣٠١ احكام ص ٣٧ - ٩

(٣) المهدي إلى عبد الرحمن النجومي، عبد الله النور ومحمد عثمان أبي قرجه، إدارات

ب ص ٢٢٥ - ٢٧.

سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، فكان يأتيها رزقها من الله من حيث لا تحسب
 كما جعل الله رزق المتقين من حيث لا يحتسبون ، كما قال الله تعالى ومن
 ق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وكذلك على طريق الهجرة
 في قدير حيث نزلنا به فلا نعرف وجهة آيات الرزق إلا من الله ، وإن حبس
 الله علينا الرزق حمدنا إيتاراً لما عند الله وإقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم
 .. فعلى ذلك حتى أتيت بالابيض فما رأيتم إلى طلبت قوماً عيبتهم لأن تأتي
 أرزاقهم منهم ، ومع ذلك ففقر عن الدنيا وعن إلتفات إليها ويأتينا رزقنا من
 حيث لا نحسب » .

ومن الواضح أن المهدي لم يكن يرمى من وراء هذا إلى القول بأن
 السماء ستمطر لهم غللاً لا عاشتهم ، وعليهم ألا يحركوا ساكناً في انتظار
 هذا الرزق الموعود . بل كان يرمى إلى ألا تكون قضية الطعام أمراً يقتل
 عليه ، وتصبح مجالا لشكوى بين القادة . كان يسعى دوماً لتذكير أتباعه
 ألا يستحوذ مسألة توفير الطعام على تفكيرهم حتى لا تعصى الأسبقية على
 الجهاد والقيام لنصرة دين الحق . فتعرض هذا في فدائه للقبائل لشاركة
 في الزحف نحو المخرصوم بقوله « بادروا وأسرعوا للسفر ولا يهكم شيء
 من الزاد بل يورقنا الله الملك لحلاق »

فإذا كان المهدي قد أهاب بالمجاهدين بصرف النظر عن كيفية إعاشتهم
 فقد تصدى نفسه لمعاشتها . فكان يحرق الرسائل لفادته الذين يوفدهم
 للجهاد ميئاً وميلة تأمين الرزق . بين هذه رسالته التي بعث بها إلى عبد الرحمن
 النجومي ، يطلب منه الاسعانة بأبي فرجه ومحمد عثمان حاج خالده ليوجهوا
 أتباعهم سبل النيرة إلى معسكرات الأنصار حول الخرطوم (١) .

وقد استجاب أبو فرجه هذا لنداء ، فأخذ أنصاره يجمعون النيرة من
 القرى الواقعة على ضفتي النيل الأزرق بواسطة الباخرة « محمد علي » التي
 استولوا عليها عند تسليم صالح الملك في فندقي .

(١) المهدي إلى عبد الرحمن النجومي ، فيودات ١٧٨/٣ .

ولقد واطب بعض دعاة المهدي في مسار على جمع الغلال الموجودة
في منطقتهم وإرسالها إلى القوات المرتبطة حول الخرطوم .

ومن هنا ساء وقوع منطقة الجزيرة تحت سيطرتهم عاملاً هاماً في وفرة
الغذاء في معسكراتهم . ولم تنشأ أية أزمة في الغلال إلا بعد وصول تلك المجموع
الهائلة التي صاحبت المهدي .

ورغم هذا لم تحتف من الأسواق بل ارتفعت أسعارها بصورة خيالية
لم تألفها البلاد من قبل .

أما العامل الحاسم الذي جنب المهدي شرور المجاعة فهو إستفاره
لبقاة كردفان ، فساروا في ركابه بكل ما يملكون من مواشى . فكان أن
توافرت اللحوم بأسعار زهيدة طوال أشهر لحصار ، وكانت خير تعويض
لهم عن ندرة الغلال .

عوامل حاسمة في تقرير نتيجة الحصار

لم يكد يمضي زمن طويل على وصول غوردون حتى تحدثت معام القصة التي مصطرع حوها المريقان . تلك القصة التي هي في جوهرها محاولة كل فريق ليسيطر على السودان بأكملة عن طريق إستلامه لمقاليد الحكم في الخرطوم .

ورغم أن العوامل التي من شأنها أن تحسم الصراع كانت تكمن بالدرجة الأولى في المسائل الإدارية العسكرية إلا أن هناك عاملين لا يجب إغفالهما . أولهما هو الاستنوب الذي اتبعه كل من غوردون والمهدي لتدعيم موقفه بكسب مزيد من التأييد مع المحافظة على قواعد الجماهيرية وتوثيق العلاقة بينه وبينها . هذه العلاقة التي من شأنها أن تخلق نوعا من الترابط والألفة لا غنى عنها بكل من وجد نفسه في ذلك الموقف . أما ثاني هذه العوامل فهو المسلك الذي إتخذه كل فريق تجاه الآخر ، ذلك المسلك الذي لعب دورا بارزا في تعقيد الأزمة والوصول بها إلى نقطة يستحيل الرجوع منها ، وكان لا بد أن تستخدم القوة لتحسم الصراع .

غوردون وأهواله :

كان غوردون يستمد قوته من التأييد المعسوى والمادي الذي تسبغه عليه حكومتا الخديوى وصاحبة الجلالة ، بالإضافة إلى الدعم العسكري الذي يتقاه من القوات الأجنبية والسودانية التي كانت ما تزال تحفظ الولاء القديم لحكام الخرطوم ، وبعض المدنيين من الأهالى ورعايا الإمبراطورية العثمانية ، ورغم أن هذا الوضع قد أمن له السيطرة على الخرطوم في بادئ الأمر ، إلا أن فشله في إستقطاب أى تأييد خارج المدينة جعل تلك السيطرة أمرا مؤقتا . ولقد شرع غوردون فور وصوله في توزيع المنشورات على مشايخ

قبائل المنطقة ، والزعامات النديبة عيها موضحا لهم تفاصيل الحطة لاصلاحية
التي يسوى تنفيذها .

ثم أوفد سنيورت في رحلة إلى منطقة النيل لأيبصر بذات الهدف ،
ورغم أن هذه المشورات قد فقدت إلا أن الوقائع تثبت أن المهدي كان
أقلر عى بسط نفوده بين تلك لجماعات . ولا يستبعد أن يكون أسلوب
غوردون في مخاطبة هؤلاء صمن لأسباب التي أدت لذلك المثل ، إذ تميز
أسلوب معاملته لأعوانه داخل الخرطوم بالتحمس وعدم التقدير ، فقد كان
يعتقد أن في مقدوره التصدي بمفرده لكل مشاكل الحصار ، وجاءت -
بالتالى - إستفادته من الآخرين وتجربهم ضئيلة . بل أنه سعى في حالات
بعينها للتخلص من شخصيات كان يمكنها أن تلعب دورا فعلا وعمليا في
صمود المدينة والدفاع عنها .

حاء غوردون إلى السودان وهو لا يصحب معه من الحند أو الاداريين
سوى سنيورات باشا ، وأبراهيم فوري ، ولم تكن المهمة التي أوكل أمر إنجارها
من ليسر أو الوضوح بحيث يمكن تنفيذها بواسطة هذا العدد الضئيل ، رعا
توقعت حكومة الخديوى أن يحند غوردون لخدمته بعض الرجال الذين
ما زالوا في الخرطوم أمثال الكولونيل دى كتلوجن الذى وجدته غوردون
قائما بأمر وكالة الحكمدارية حلفا لحسين باشا سرى .

إلا أن غوردون سارع بعد يومين من وصوله يأمره بمغادرة البلاد ، إذ
أن لخدماته لم تعد مرغوبة . وقد برر هذا الإجراء بأن العمليات العسكرية التي
كان يسهم فيها دى كتلوجن قد أوقفت ، ولعله قد تسرع في إقرار هذه الحقيقة
إذ أنها ما لبثت أن استؤنفت بعد أقل من شهر من صدور هذا الأمر ، وحتى إذا
اعتبر رأى غوردون هنا سليما . فقد كان بإمكانه الإستفادة من دى كتلوجن
في المواحي الإدارية التي لا بد أن تتطلبها عملية الإخلاء بكل تعقيداتها
ومشاكلها .

ولم يكن بالخرطوم . من ناحية أخرى ، كثير من أصحاب المعرفة والخبرة في هذا الشأن . فم تستوعب حملة هكس باشا كل من له مقدرة على القتال فقط ، بل أولئك الذين يمكن أن يؤدوا مهاماً إدارية .

كان من بين الذين صحبوا هكس باشا وقتلوا معه كل من علاء الدين باشا وكيل الحكمدارية الذي خلف عبد القادر باشا حلمي . ومحمد بش أحمداني مدير الخرطوم . وساحي بك المحسني باشكانت لمديرية . ونقي في المدينة كل من حسين باشا سرى وكيل لحكمدارية وأبراهيم حيلبر باشا لواء العسكرية . ولكن غوردون أبرقهما قبل وصوله الخرطوم بأمرهما بالتوجه فوراً إلى مصر .

لم يكن دى كتوجن الرجل الوحيد الذي شاء غوردون ألا يستفيد من خدماته ، فقد تجاهل عدة عروض تقدم بها بعض الأوربيين الذين كانوا مع المهدي للعمل معه . وقد اتخذ هذا الموقف على أساس أنه لا يثق في الشخص الذي يتخلى عن دينه من أجل إنقاذ حياته .

وكان مفهومه أن أولئك الأوربيين قد اعتنقوا الإسلام وساروا في ركاب المهدي من أجل حماية أنفسهم من اهلاك فأصبح الدين بالنسبة هؤلاء رداء يمكن إستبداله في أى لحظة وفي الوقت المناسب . ولم تفلح كل المحاولات التي بذلوها لينالوا فرصة لشرح وجهة نظرهم . فقد بعث له سلاطين ثلاثة خطابات قوبلت بالتجاهل التام ، ولم تشفع له قوته إنه قد حارب سبعا وعشرين معركة ضد الأنصار . ولم يرتكب في حياته ما يشين إلى أحد الذي يمنع غوردون من الرد على رسائله .

كان يمكن أن يؤدي سلاطين خدمات جليلة لمدينة سوء من لجانب الإداري أو العسكري ، إذ عاصر المهدي فترة مكنته من الإلمام بنفاصيل أماليه الحربية ونفوقه المعنوي وعذته وعناقه .

ومع تقدم الحصار وشداد ضغط الانصار واجهت غوردون مشكلة جديدة تتمثل في صعوبة إيجاد شخص مؤتمن يحمل رسائله إلى مصر وهنا طلب سلاطين من غوردون أن يبعث له بمكاتباته وسيجدد هو وسيلة ما لإرسالها لوجهتها، إلا أن غوردون قرر ألا يتيح له هذه الفرصة

وشاء غوردون أيضا الاستغناء عن رجل كان بمثابة ساعده الأيمن، وهو ستيفورت ناش، فسفحه لمعادرة المدينة في وقت حرج، ولا بد أنه لم يضع في الاعتبار إحتياجات لخرطوم لبشرية في ذلك الوقت بالذات، إذ كان شهر مستمر بداية للرحلة أكثر عنفا في تاريخ الحصار. فقد وصل عبد الرحمن النحومي بحيوشه وعسكر خارج بوابات الخرطوم في انتظار جموع أخرى في طريقها إليه فتصافت بهذا مشاكل غوردون وأصبحت فوق قدرته وحده كما اعترف بنفسه فيما بعد. وربما كان رائده في إرسال ستيفورت هو محاولة إنقاذ الآخرين من مصير مجهول، وكان لا بد لغوردون أن يجند كل الطاقات الموجودة لديه حتى يتمكن من إيجاد مخرج لهم.

ولقد علق غوردون بعد سفر ستيفورت مباشرة بأنه يحمل فوق أكتافه كل مسئولية الحصار، فهو يشرف على الجنود وتدريبهم، ويقوم بتفتيش الطوابي، ويخطط للعميات العسكرية، ويراقب الثموين والمالية، ويشرف على المرضى وكان يحس أنه في حاجة ماسة لمعاونة إلا أنه لا يجد بين موظفيه من يمكن الاعتماد عليه في أداء واجب ما خارج عمله الروتيني، وقد كشف غوردون في عدة مواقف عن رأيه في اعوانه، ففي الواقع لم يكن يضع دة من الثقة في العسكريين منهم، بل أعلنها صريحة أنه خلال تجاربه الطويلة لم يتق مضابط أو جندي أكثر خعة من الجندي المصري، أما البشورق الأتراك فهم عديمو الفائدة ولا أمل يرحى منهم على الإطلاق، ثم وصف عساكر الشايقية بأنهم يفتقرون إلى الحد الأدنى من لشجاعة المطلوبة في الجندي، وهم فوق هذا مترددون متخاذلون، ولا توجد فئة من البشر في العالم بأسره يمكن أن يستنفذ انصبر مشهم.

ولا بد للمرء أن يتساءل إذا كان هذا هو رأى غوردون في قواته
المحاربة أما كان الأجدر أن يخضع الأمر برمته للمراجعة . إذ لا يستقيم
تقييمه هؤلاء مع تصميمه على القتال . ولا بد أنه لم يكن يرى بارقة أمل
في احراز النصر ، وكان الاحتمال المتفق في هذه الحالة هو قبول دعوة التسليم
لتي كثيرا ما وجهت إليه .

إلا أن إصرار غوردون على الاحتفاظ بالمدينة والدفاع عنها . يثير
قلالا من الشك حول عدلته تلك الأحكام التي أطلقها . ولعل الموضوع بنهاية
الأمر ، هو مبالغته في مقدرة النائية . وإعتقاده الشخصي بأنه ليس هناك من
يستطيع أن يؤدي عملا بلوجه الأكمل كما يفعل هو . ولقد أثبتت الوقائع
بعض الاشراف لحروده الذين خاصوا معارك كثيرة ضد الأنصار ، وتمكنوا من
الانتصار في بعضها رغم كل النقائص التي تعاني منها الحامية . كذلك أظهر
بعض الصباط من الشجاعة والناس ما جعل غوردون ينعم عليه برتب وألقاب
مختلفة ، من بين هؤلاء محمد نصحي باشا ، ومحمد بك طلعت ، وحسين بك
هنسوى . وأبراهيم بك فوزى . كما أن رجلا مثل خشم الموسيقى بك لا يمكن
أن يوصف بالتردد أو النحادر . فقد عمل بهمة في الدفاع عن المدينة أثناء
وجوده فيها ، وأدار ظهره لكن المحاولات التي بذلها أعوان المهدي في منطقة
الخرطوم شنقوا لحمه على هجر معسكر الحكومة والاضمام إليهم .

لم يسلم رجال الحكومة البريطانية بما فيهم ممثليها في القاهرة من حملات
التشهير البعيدة التي كان يشنها غوردون ، ولعل هجومه المتواصل على بيرنج
قد خلق نوعا من التوتر استحال معه التعاون المشترك . « لا بد أنه قد أخفى
برقته » هكذا كتب غوردون مشيرا لبيرنج « وهذا على أية حال لا يدهشني »

وم يحف غوردون بحقيقة مشعره تجاه رجال وزارة الخارجية .
وكتب يقول إنه لا يتصور وجود مجموعة من الرجال عديمي الفائدة كهؤلاء
بما فيهم « كلارندون دربي ، دلكي ، حرائيل ، ولاني أنعجب كيف تقوم

سياسة بريطانيا العظمى الخارجية على أكتاف هؤلاء »

كان عود دون يتمتع بميزة شخصية جعلته يمين دوما إلى التثليل من شأن الآخرين ، رؤساء كانوا أو مرؤوسين ، فحامت ثفته فيهم صنيعة ، وتبعدت انشقة بينه وبينهم ، وقد غاملى لتضامن والتعاطف انفسى اللذين من شأنهما أن يساعدا كثيرا ، خاصة في ذلك الموقف الذى وجد نفسه متورطا فيه .

دبلوماسية المهدي :

درج المهدي منذ بداية دعونه على انتهاج أسلوب نمير بالتواضع واحترام الغير ، وهو يسعى إلى ترغيب الآخرين في المهدينة بلا إرهاب أو عنف ، لذلك تمكن من إستقطاب تأييد جماهير القبائل السودانية التي حققت له انتصارته على رشيد أيمن ، وبوسف الشلاي ، ونضا عنب أعدادها كرد فعل لإستيلائه على مراكز الحكومة في كردفان ودارفور ، فدحرت حمسة هكس باشا في شيكا ، وواصلت نشاطها في أجزاء أخرى من البلاد ، ولم تغر تلك الانتصارات المهدي ، بل التزم بنفس المسلك حتى يحفظ ثقة مؤيديه إلى أن يستكملوا المهمة بفرص السيطرة الكلية على البلاد .

كانت وسيلة المهدي الاعلامية لث الدعوة هي المنشورات العامة والرسائل الخاصة ، يبعث بها للجماعات والأفراد سواء كانوا من الذين عرفوا بتعاطفهم معه أو بعدوهم به . وبمراجعة نماذج من هذه الخطابات يتضح أن المهدي لم يلجأ فيها لأسلوب الارهاب أو الاستمراء ، بل كانت وسيلته الكلمة الطيبة التي لها - في أغلب الأحيان - سحر لا يقاوم . وقد أثبت هذا الإنجاء فعاليتها وإيجابيتها ، فأقتنع كثير من مشيخ القبائل وزعماء الدين بصدق الدعوة عند إسلامهم لتلك الخطابات .

وكان من بين الذين إتصل بهم المهدي عن هذا الصريق محمد عثمان بن محمد لحسن اديرغنى ، زعيم القومية المقيم بكسلا ، الذي عرف بمعارضته له ،

وظل الوحيد من بين رجال الدين في السودان الذين وقفوا ضد المهدي وقاوموا دعوته إلى النهاية . ولم يكن رفض الختمية للدعوة سبباً بل حاولوا انقيام عن بشاطه مصاد . واستجابوا لدعوة الإنكلز عندما نصن هؤلاء إلى إمكانية زج العرات الطائفية في المعركة . فرافق محمد سر الختم المرعى — لذي كن مقصداً بحصر — بيكر باشا في رحلته إلى شرق السودان في ديسمبر ١٨٨٣ . وهناك طلبوا منه القيام بحولة محاولون خلالها إثناء رجال القبائل بالطرق السلمية عن مناصرة المهدي ، فأرسل هو وخلفوه « إلى جميع العربان كتب يخبروهم فيها بأن هذا الأمر ليست إلا فتنة محصنة وليس هناك المهدي . وأمرهم بالرجوع عن هذه الحانة » (١) . وقد وحه رسالة شخصية لعثمان دقة بدأت المعنى ، فرد عليه هذا الأخير معرضاً عن لمصباحة ، وحث بكل هذه الخطابات إلى المهدي حتى يتمكن من الوقوف على حقيقة الأمر .

بالإضافة إلى هذا كان نشاط حباء المرغنية ونسائهم في منطقة شندي على أشده ، فما أن وصل أسطول عوردون الصغير المكلف باستطلاع أنباء الحملة الإنكليزية حتى تعاونوا معه في إجراء سلسلة من الاتصالات تهدف لحمل رجال القذافي على محار المهدي والرجوع مرة أخرى إلى طاعة الحكومة (٢)

لم تش هذه الوقائع المهدي عن محاولة خلق وشائج المودة المبينة على اسعى بكسب محبة الله بنه وبين زعيم المرغنية ، فهو يصفه بأنه من « أولوا الشرف والمقام وذوي الألباب الذين قال الله فيهم إن في خلق السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار آيات لاولي لألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض » (٣) . ويعطن المهدي إلى أن حقيقة كونه زعيماً دينياً قد تخفق حساسية من شأنها أن

(١) دفتر وقائع عثمان دقنه ، قسم السودان ، مكتبة جامعة الخرطوم

(٢) جوردنل الحوادث .

(٣) المهدي ، محمد عثمان بن محمد حسن مرعنى ، مجلد ٣٠٦ ، إدارات ب ص ٨٠٦٤ .

تقف صائفاً في سبيل إستجابته لتداء المهدي .

فيصم إحدى رسائله اعترافه بتلك الزعامة ، وتقديره لها ، ويحاطبه بثقة في علمه بأنه « كمن يطيب رضاء الله ولو تقطعت في ذلك إربا وفانت عث جميع المطالب النفسية بما نعلمه من عظمة الله ونعمته وشدة عقابه لمن وقع فيه ، وكل ذلك أت جند به وشأنك أن تربى من انك هكذا . . . » ويقول له أيضا « وإنث أعظم من يقبل انصح تواصعا لله الذي خلق أحيا واليه المرحع ومن أحص المؤمنن الذين بسمعون القول فتبعون حسنه . » (١) وأشار اليه بوضع حد لتردده وترك به الخيار ، فَمَا أن بهاجر اليه حيثما يكون ، أو يعين نفسه عاملا له ، ويشنها حربا على الحكومة بجهته . ولكن محمد عثمان لم يحرك ساكنا ولم تب منه إشارة تتم عن أنه ربما يتخذ موقفا مغايرا ، ورعم هذا لم يشأ المهدي أن يغض له لقوب ، بل ظل يدعو : « حبيبي في الله ، المكرم محمد عثمان . . . » ويعاتبه بأنه كان أحق بقاء للمهدي من عامة الناس ، لأنه من المظنون فيهم الخير ، أولئك الذين لا يروون في الدنيا شيئا ، وإنما يشتيقهم دوما إلى ذي الجلال والإكرام (٢) ثم كرر له ذات العرض الذي قدمه له في لرسالة لسابقة ، ووعده بحسن المعاملة والأمان الشامل ، ووصيا المذكور وأخواته عليكم بملاحظتكم وشعوب النظر فيكم ومنع التعدي عليكم من أي أحد كان ، وعدم حصول أدنى ضرر بكم ، لا في نفسكم ، ولا في أموالكم ، ولا في أحد من جماعتكم الخصوصيين ، أما اذا صمم محمد عثمان على تجاهل هذه الرسائل فيسطل الباب مفتوحا له حتى يأتيه البتة . ويبدو أن زعيم البرغية قد تأثر بهذه المعاملة ، ولم يشأ أن يرد عليها بمواصلة نشاطه المصا ، وكان في هذا مكسب للمهدي ، فقد نجح على الأقل في حمل أشد معارصيه على التحفظ ، واتخاذ موقف سلبي من الدعوة .

(١) المهدي إلى محمد عثمان بن محمد الحسن ، محرم ٣٠ - انذارات ب ص ١٦٤ .

(٢) المهدي إلى محمد عثمان بن محمد الحسن ٩ شعبان ١٣٠٢ انذارات ب ص ٢٩٤ - ٧

كذلك اتصل المهدي عن طريق لرسائل بالشيخ محمد الأمين الضرير رئيس ومميز علماء السودان الذي كان مقيماً في الخرطوم وبقي فيها حتى سقطت، إلا أنه نجا من المذبحة التي أعقبت دخول الأنصار. وقد تضاربت الروايات حول الوسيطة التي أمست له النجاة، هناك من يقول إن أخاه علي كان من قدامى أعوان المهدي، فسعى إلى الانقاء على حياته عند سقوط المدينة، ولكن مصادر أخرى ذكرت أنه لم يكن ثمة تمكيد لدى الأنصار لقتل محمد الأمين، لأنه كان من مؤيدي المهدي، وقد أجرى اتصالات سرية مع آخرين عبر فيها عن هذا التأييد. ورغم تباين الروايات فمن المؤكد أنه قد حرر أكثر من رسالة يعن فيها رفضه لدعوة المهدي جملة وتفصيلاً، وجاءت إحدى هذه الرسائل في وقت متأخر من الحصار (١). وقد كتب له المهدي عدة رسائل شارحاً له حقيقة الدعوة التي يبدو أنها كانت ما تزال حافية عليه. ورغم أنه لا يثبت بقاءه لرسمي في هذه الخطابات إلا أنه يخاطبه بنجلة «الأستاذ المعظم الشيخ محمد الأمين جعله الله من المكرمين» (٢).

وهو يسهب في إعرائه لقول الدعوة وانقضاء نفسه من المهالك حين يقول «ولا تعاون الظلمة بعد هذا، فإنه لا يحفل ما أحدثوه في لاسلام». وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم فيهم بأخبار كثيرة، ومثلت تكشبه الإشارة» وأراد المهدي أن يؤكد له اعترافه بعلمه فدعاه «سلم الشريعة المحمدية المستفيض من رحمة ربه بالعلوم الثقلية» (٣). ولعل السعة الطيبة التي كان يتمتع بها محمد الأمين كرجل دين له أتباع. ويمكن أن يؤثر تأثيراً مباشراً على موقف فئات أخرى، وهو الذي دفع المهدي لمعاودة الاتصال به ولاخاح عليه ليترف به ومن جهة أخرى. يبدو أن تلك الرسائل قد أدخلت الطمأنينة في نفس محمد الأمين بالمهدي. لا يعاديه ولا يضمه به شر، ولعبه لهذا أثر

(١) قرينة الموجهة إلى عبد القادر إبراهيم وعبد الرحمن النجومي ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١

(١٣ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج

(٢) المهدي إلى محمد الأمين المزارات ب ص ٣٢-٣٣.

(٣) المهدي إلى محمد الأمين، ربيع آخر ١٣٠١، المزارات ب ص ٩٤-٨.

أن يضع موقعه على المرائض التي أرسلت سرا إليه .

حول المهدي أيضا استمالة زعماء القبائل الذين ما زالوا على ولائهم
سحكومة المصرية بالترغيب والمدح . كان على رأس هؤلاء الشكرية ، فكتب
المهدي لهم ممدحا ما عرفوا به من حسن تدبير وثقتهم لأمر الدين والدنيا ،
ولا يعقل أن يبقى من هو في مكانهم بعد عن الدعوة الدلة إلى سكة الله
ورسوله وإذا بعكم جوازي هذا وكنتم مصدقين كما أحسا فيكم
الطن بحسب محاولتكم وما أسررتكم من بعض الإحسان على الأهل بحس
الطن وكل ذلك لا يخلص لإسناد الأصفاء وحسن تصديقه لما عند الله الذي
يوجب إثارة ما عند الله ، فإن الذين كانوا حملاين على ما هم فيه من الحياه والمال
واحتجبوا عن الاتباع برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كانوا يستظرونه
ويستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به خرف من هرات لذل والمجاهة (١)
ولعل هذه الخطابات كانت ضمن الأسباب التي جعلت لشكرية ينقسمون
على أنفسهم . فاعل حرم منهم تأسده للمهدي وساهم مساهمة فعالة في
عمليات محاصر الخرطوم منذ بلاليتها .

وعمل المهدي أيضا ليكسب تأييد شيخ العبيد ود بدر الذي كان
نمىع بمكانة دينية مرموقة ، ليس بين سكان منطقة الخرطوم وحمها ، بل في
أنحاء متفرقة من البلاد . فأرسل له عدة مكاتبات حاول فيها أن يستميله إلى
صبيه بالحنى وبلا استئزاز . وكان أن أعترف له في إحدى الرسائل بأنه من
« أعظم من يعد ووطن بالصداقة والاختلاص لما عند الله » وجاء فيها أيضا
قوله « وما عهدتك إنك تتباطأ على قدر هكدا مع إنك حد عارف بعظمة
ما عند الله وخسة لدي وما فيها .. وإنك ممن لم يكن دينه على مرض فإن
أصابه خير إطمأن به وان إصابته فتنة إتقب على وجهه ، بل أنت ممن يصلب
ما عند الله ولو قدصعت أرد أربا وفاتتك جميع المطالب النفسية لما تعلم ما هو
(١) المهدي إلى عبد الكريم احمد أبو سن (وآخرين) ربيع أول ١٢٠١ ، إدارات

ب ص ٩١-٩٢ .

عبد الله من العصمة لئلا توازيها جميع المطالب» (١) ويصعبه أيضا بأنه « من أعظم من يقبل لمصح تواضعا لله الذي يحق » « وإنك من أخص المؤمنين الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم الألباب » (٢)

وحتى عندما تجهل الشيخ العبيد هذا الخطاب أعظم المهدي بأحر وانترم نفس لأسلوب الذي تبعه في الرسالة الأولى فجاء فيه « ... أنتم أهل دارية ومعرفة ، وقد علمتم إذا خلا القلب من غير الله يكتفىء نورا ورفيضا منه إلى خلق الله ، ولا شك أن الرباني بالتمسك بالله كأمثالكم شأنه هكذا وسيمناه وعلاقته هي عدم الخشية من أحد غير الله ، وللاذن أنتم معبودون عند لأجل ذلك ... » (٣) . وبعد صوت تردد أعرض الشيخ العبيد مسافده لمهديه ، فكان لهذا أكرر الأثر في حصار البحرطوم كما أوضحنا في غير هذا المكان .

أما أسلوب المهدي في معاملة أعوانه فقد ساعد إلى حد كبير في تماسك فريقه طوال مدة الحصار . ولم تنزعزع ثقتهم فيه وإيمانهم به قيد أنملة ، فقد بقي رجل ، يدين الذي ينظر اليهم جميعا كأئساد له لا يقلود عنه من حيث انهم والدارية والمكانة عند الله طالما أنهم وهوا أنفسهم في سبيل تلك الدعوة وهو الثائل لهم « يا أحيائي إنكم قد صرتم من أخصار الذين وصرنا لسا أولى به منكم » (٤) .

أما قدومه العسكريون والادريون فقد كان بصعهم في مصاف داته ، وقد اعتمد عليهم اعتمادا كاملا في القيام بأمر الدعوة في مطلق كثيرة ووجه الأهل إلى اتباعهم وعقد لواء أمورهم لهم .

(١) المهدي إلى العبيد ود بدر ، - إدارات ب ص ١٢٩-٣٢

(٢) المصدر السابق

(٣) المهدي إلى العبيد ود بدر ، إدارات ب ص ١٣٧ - ٩

(٤) المهدي إلى عمر الياس ومحمد بن امريق ومن مبعده من لاجد ١٣ حادي آخر ١٣٠٠

إدارات ب ص ٦٧-٩

وقد كتب في منشور تعيين أحد هؤلاء بقول «... فتحن عيناه لأجل
 السجود في سبيل الله، وإقامة دين الله، وإحياء سنة رسول الله، وأحرثاه في قتال
 الترك الذين أمر الله ورسوله بقتالهم... وحيث عيستم ذلك فإن المذكور
 أرسلناه إليكم لأجل أن تجتمعوا معه أنتم رهطه جميعين ومن انضم إليكم
 من سائر القبائل من المسلمين أن يورده وتصروه وتقوموا معه بكامل
 المهمة والمروءة.... فاصبروا أمره ونهيه فممن أطاع أمره فقد أطاعني ومن
 خالفه فقد خالفني...» (١).

وقد سمعت مكنتاته مع قائده العسكريين تحمض اعترافا كاملا
 بجهودهم. فقد ساء بهم بكل طاعتهم لأحرز النصر. وخصوا المعركة بلوا المعركة
 بدافع الإيمان الخالص فحاط بهم المهدي بقوله «فجزاكم الله خيرا وإحسانا
 وشكرا سعياكم وأحسن مآلكم وما لكم يا أيها أصحابي شاكرون لفضلكم
 وعافيتكم لقدركم وندعو لكم بالخير والبركة وأنتم عندنا كبعض الجسم
 من نحو عين وبه وقد قررت بكم أعين...» (٢). ولعل هذا الأسلوب
 قد دفعهم لبذل المزيد من الجهد والتفاني لاستكمال سيطرتهم على البلاد.

كان بالطبع بين قادة المهدي من يعطى ويلحق الضرر بنفسه وبالآخرين،
 وكثير ما كان المهدي يتصدى لمعالجة هذه الحالات بشخصه. فجاء أسبوعه
 حارب من حلقة في انقول أو اليوم العتيق، مثال هذا ما حدث لمحمد البين
 حامد عامله في لجزيرة الذي نهون في بعض مشنوں الدين. مما كان من
 المهدي إلا أن بعث له بخطاب جاء فيه «... حبيبى منذ أنك من أجل من
 سقى وتحقق صا وعلما أن الراحة والعزة في دار الأند وأن ارادة اعلو ولكثرة
 هو عين الانقلاب من سواء الصواب، وبأ حبيبى حيث أن لك اقتبهاً بكثرة
 معين بهم ما نطلمه عند ريث، ولا تعان لطلب نفسك في وقتك فإن ذلك عرض

(١) المهدي إلى كدة قبيلة دار مطرب غرب، في الصفحة ١٢٩٩، انذرت ب من ٢٥-٦

(٢) المهدي إلى عبد الرحمن الشجوى، وعبد الله التور، ومحمد عثمان أبي عرسه انذرات

رائس وقصد عبدالله عاطف ، وحيث اني أعهد فيك الصفا واتباع مسكة المصطفى
وتعلم كثرة أتباع بعض الصحابة ولصدق طلبهم ما عند الله إتبعوا من هو
دونهم أتباع وشجاعة وتديرا وذلك لصدق الطلب ما عند الله . فيا حبيبي
عامل اخوانك بالمعاملة التي ترحى بها ما عند الله وسرع بذلك إلى مغفرة
الله ومحبه فأنت محتاج إلى ذلك » (١) .

أني هذا المسلك الذي انتهجه المهدي بأطيب النتائج ، فقد كسب به
الرجال الذين اطمأنوا اليه لما عبر عن ثقة فيهم واحترام لهم . فزاد إيمانهم
بالمهدي وجدوا في مؤازرته وهياؤا له سبل البصر باستعدادهم لتضحية
بأنفسهم وأولادهم وممتلكاتهم ، فشكّلوا قوة دفع هائلة تمكنت في النهاية من
فرض سيطرتها على السودان كله .

العامل الثاني :

أما العامل الثاني الذي كان له أثره في معركة فاصلة ، فهو مسلك
كس فريق تجاه الآخر وأسلوب معاملته له . كما كشفت عنها الرسائل التي
تبودلت بين أمراء المهدي وغوردون وقادته ، وبين المهدي وغوردون أيضا .
لجأ فريق غوردون إلى الإستفزاز ، ولتحقير ، وهي في غالب الأعم الأساليب
التي يستخدمها من هو في موقف الضعف . في حين حاول فريق المهدي تهدئة
الخواطر باللين قبل انشدة إلا أن إصرار الجانب الآخر على موقفه دفعهم
إلى تصعيد عملياتهم العسكرية ومواصلة الضغط على المدينة حتى يتمكنوا من
لاستيلاء عليها بالوسيلة التي اختارها حكمها .

غوردون وأمراء المهدي :

وَنَشَأَتْ علاقة بين غوردون وأمراء المهدي طوال مدة الحصار ، كشفتها
ت حملة الرسائل التي تبادلوها . ورغم أن بعض هذه الخطابات وجد مع
يوميات غوردون إلا أن من المرجح أن يكون بعضها قد فقد خاصة تلك

(١) المهدي إلى حمد النيل حامد ١٣٠٦ ، مقارنات ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

التي تبوؤت في السنة أشهر الأولى من الحصار . بين الرسائل التي وجدت مع اليوميات ، ثنتان من الشيخ عبد القادر إبراهيم مع ردود غوردون إليه ، ولأن هذه قد بعثت خلال سبتمبر فلم يتمكن من وضعها مع الوثائق التي حصلها . ولعله قد فعل بالنسبة لتلك التي وصلته قبل هذا التاريخ والتي أشار إليها الشيخ عبد القادر في رسائله الملحقة باليوميات (١) .

كما أن نصحي باشا قد ورد في تقريره ملخصا لأحد خطابات الشيخ عبد القادر ، ومع مقارنتها مع النصوص ينصح أنها لا تصابق أبدا منها ، فلا بد أنه يشير إلى رسالة أخرى ما زالت مفقودة . وجدت أيضا مع اليوميات ثلاث خطابات من عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور إلى غوردون مع رسالتين بعث بهما غوردون إلى عبد الرحمن النجومي .

تميزت هذه الخطابات بأربعة مظاهر ، أولا أ. أمر المهدي أبدوا دائما حرصا على محاطة غوردون بتقدير واحترام . فاثبتوا لقبه الرسمي ، وأصافوه عبارات أخرى للتحية في بعض الأحيان ، ثانيا أ. أنها قد تضمنت نداءات صريحة لغوردون ليسلم المدينة بلا قتال . ثالثا أ. أنها قد أعطت غوردون وعدا قاطع بعدم التعرض له أو لسكان الخرطوم بسوء في أرواحهم أو ممتلكاتهم في حالة التسليم . وربعيا أ. أنها لم تورد بشكل صريح مسألة اعتناق غوردون للدين الإسلامي كشرط مسبق لنجاته أو نجات من معه .

فخطبه عبد القادر إبراهيم في رسالته الأولى بقوله « سعادة غوردون باشا ولي عموم السودان » (٢) وإثبات لقب الوالي هنا لا يعنى بالضرورة أنه يعترف به بصحته هذه ، إلا أنه أراد إثباتها لأنها لقبه الرسمي وأعلى استجابة غوردون لهذه الروح كما كشفها رده بالشيخ عبد القادر جعلت الأخير يكتبني في رسالته الثانية : « غوردون باشا » فقط (٣) والتزم عبد الرحمن النجومي

- (١) عبد القادر إبراهيم إلى غوردون ، غاية ذي القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق بـ
(٢) عبد القادر إبراهيم إلى غوردون باشا ، ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحقاً
(٣) عبد القادر إبراهيم إلى غوردون باشا ، غاية ذي القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق بـ

وعبد الله بمحاطبته « غوردون باشا » في أولى رسائلهم (١) وفي أخرى
 « غوردون باشا عزيز بريطانيا ولنديويه » (٢) . ورغم أنهما قد اكتبيا في
 ثالثة بذكر اسمه مجردا ، إلا أنهما امتدحاه في ذات الوقت بالقول « أنت من
 أهل المطانة والمعرفة لعقلية » (٣) .

ولقد أوضح الأمراء في أكثر من رسالة أن الحركة ليست يسهم
 وبين غوردون ، بل عرفوا به تعاطفه مع السودانيين بصفة عامة كما تجنى
 في سابق رياراته للبلاد ، فهم لا يضمرون له حقدا وليس يسهم وبه عداوة
 شخصية . وقد ورد في إحدى رسائل الشيخ عبد القادر قوله « وما
 نعلمكم به سعادتكم أن ما أنتم عليه من الحلم والشفقة على الأهالي وإكرامكم
 لما نحن بالأخص معنوم عندها ومشوت بالقصاب من يشتد حولكم بالسودان
 في المرات الأولى والثانية هذه وما أعلنتم به بالمشيدات الصادرة منكم حال
 حضوركم بالسودان هــله المدفعة صار معلوم عنا نا وعند الخصص
 ولعام » (٤) .

بدأ حليا أن الهدف من تلك المحاطبات كان حصن غوردون على
 التسليم وتجنب إراقة الدماء . وظن الأمراء يكررون هذه انداءات طوال
 فترة الحصار . فكتب الشيخ عبد القادر يقول « وكنا قبل ذلك نخطنا
 سعادتكم بأمرات العديدة وهي كل منها أوصحها ما فيه الكفية من له قلب
 وفي جميع المكتبات أوضحتنا لكم طريق السلامة والنجاح ، فلم تفلوا ذلك
 ولم نظروا إلى عواقب الأمور فيما دعوناكم إليه لأنه سبب لسلامتكم من

(١) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور ، ٢١ ذو القعدة ١٣٠١ (١٣ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج

(٢) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور ، ١ غوردون باشا ٢ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د.

(٣) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور ، ١ غوردون ٣ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق هـ

(٤) عبد القادر بر هيم ، ١ غوردون باشا ، ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق أ.

عصب الدنيا والآخرة أنتم وأهل لبدر لأن كثير منهم أحبابنا وأهلينا وقد تركتم ما أوضحناه لكم مرار وتكراراً وصرتم تسمعون كلام العلماء
وحاول الشيخ عبد القادر أن يقنع غوردون من جانبه بصدق دعوة المهدي .
وأنه بحق المذكور في الكتب السماوية ولا مجال لتكرانه وإدارة الظهور به .
وهذا هو السبب الذي بعده عن مساندة غوردون . ومن ثم أصبحت المفاضلة عنده بين خيارين : أما الانحياز إلى مباهج الدنيا التي يعرضها غوردون في شكل إحسانات وإعامات ، وأما اختيار سكة الله ورسوله . فأختار الأخيرة .
لم ينطرق الشيخ عبد القادر إلى دين غوردون أو اعتناز التحلي عنه شرطاً مسبقاً للتسليم . بل يخطره بأنه قد حصل على تفويض من المهدي بالمحافظة على حياته وضمان سلامته الشخصية (١) . ومن يسم هذا إلا في حالة تسليمه . يقول الشيخ عبد القادر : . . . بل انما الرجوع للحق وبذ الباطل بجميع أصنافه وتسليم الأمر لهذا الإمام عليه السلام ، فلا نجاة إلا في ذلك ، ولا سلامة إلا فيما هنالك ، فإن كنت لك محبة معي كما حكيتهم فأقبوا هولي و تنصروا به وسلموا أنفسكم والمسلمين . . . (٢) إلا أنه يعود في رسالة أخرى لينقل به استعدادده لتأمين سفره إلى بلاده مع سنيرت باشا وسكوتيره إبراهيم بك رشدي منى ما أعين تسليم الهدية له ، ومن جهة أخرى فقد أرسل عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور عدة نداءات لغوردون يسلم . وكذا له أن المهدي يعطيه وعداً بعدم التعرض لحياته أو حياة أسكان أو مملكاتهم أو أموالهم . ولن يؤثر ما سبق من صدام مسيح بين القرينين في وضعهم مستقبلاً في دونة الهدية بل سيتمتعون بنفس الحقوق ويلتزمون بنفس الواجبات (٣) .

(١) عبد القادر إبراهيم إلى غوردون باشا ، ١٨ ذي القعدة ١٢٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ، ملحق أ .

(٢) عبد القادر إبراهيم إلى غوردون باشا ، عية ذي القعدة ١٢٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) .
صحيح ب .

(٣) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور . إلى غوردون باشا ، ٢ ذي الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) ، صحيح د .

ولكن استجابة غوردون جاءت على غير ما رغب الأمراء . حيث أوضح هم أنه ليس على استعداد لمقابلتهم بتلك الروح التي يوزت فسى خطاباتهم ناهيك عن قبول بداء التسليم . فكادت رسائله استفزازيه تحبس بين طياتها عبارات التحقير والاستهانة بهم . ولم يحارب في أى منها الإشارة إلى المهمة التي أوفد من أجلها . بل أبدى إصراره على الدفع عن المدينة مهما كلفه ذلك ، وأضاع بهذا الفرص المتكررة التي تبيحت له لإنقاذ نفسه ومن معه .

حرص غوردون على صياغة تلك الرسائل بنفسه مستعيناً بقاموس يديه (١) فجاءت أغلبها خالية من عبارات السجدة والامجامة التهديدية . فهو ، يحاطب الشيخ عبد القادر بأسمه المجرد (٢) ويشير إلى المهدي : « محمد أحمد » (٣) . وعلى زودده على عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور يتجاهل الأخير تماماً ويوجه حديثه للنجومي وحده (٤) وعندما وصيه خطاب من محمد عثمان أبى قريجة لم يكلف نفسه مشقة الرد عليه ، لأنه حسب قوله لا يرأسل مع العبيد . ثم نعتة في رسالة للنجومي بأنه مسكير لا يتوقع منه أن يفلح في شيء خارج هذا المضمار (٥) ولم يحارب غوردون إخفاء حقيقة رأيه فيهم . فهم مجموعة لصوص وقاطعو طرق «...» وإن كان إنسان له رغبة أن يعمل دروساً فحسن لا نعبه ومن جهة العلماء إذا كوين عنهم بأنهم كذابين وكلامهم جميعه في غير محله فأنهم ما قالوا شيئاً إلا بحسب المنصوص عندهم في الكتب بل وجميع علماء الإسلام مصرحون بذلك ولم يرضوا أن يناموا على الأرض ويسلبوا الدراويش أمبتعتهم وعقريبات نيامهم...» (٦)

(١) غوردون إلى عبد الرحمن النجومي ٢٢ ذو القعدة ١٢٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج .

(٢) غوردون إلى عبد القادر إبراهيم ، بعد ١٨ ذو القعدة ٢٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق أ .

(٣) ملحق «أ» ، «ب» ، «ج» .

(٤) غوردون إلى عبد الرحمن النجومي ، ملحق ج : د .

(٥) غوردون إلى عبد الرحمن النجومي ، ٢ ذو الحجة (١٣٠١) ٢٤ سبتمبر ١٨٨٤ ملحق د .

(٦) غوردون إلى عبد الرحمن النجومي ، ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ح .

أما محمد الخبر عامل المهدي على بربر فقد استوفى على الأموال العامة لحوالها
لمنعته الشخصية، ووضح لأخصاره أن «الأمر كنها غش في غش» (١)

لم يشر غوردون إلى أنه جاء للسودان ليفقد سياسة الإخلاء وسحب
الجنود والمدنيين إلى مصر . بل أسيغ على نفسه صفة الحاكم على البلاد «معين
فيها» . من طرف دولتين عظام ولدت مجبور على رؤية مصالحها بحسب
ما تقتضيه شؤون صباقتي وشفتي على المسلمين» (٢) . وهو يربهم بأن
الحكومتين اللتين أوعدتاها قد أرسيت بحوشها لضرب العصاة والتمردين
وإدخالهم في الطاعة فعرا ، وقد حاول معهم هذا الأسلوب لعله ينجح
في حملهم على التراجع . فقال في رسالة أخرى «ورد لنا جواب من رئيس
جيش الإنكليز بأن الجيوش الإنكليزية التي وصلت لدنقلا قتت الشريف
أهندي والشريف محمود اللذين كنا أرسلنا من طرف محمد أحمد لمحاصرة
دنقلا ، وقتل كافة من معهم من الدراويش ومنوجهين دوعري - وأن
الوابورات التي أرسلناهم بالاسبوع الماضي وصدوا بربر فوجدوها قد
صفصها ودخرو فيها واستلموا الاثنين والوابورات الموجودين فيها من سابق ،
وأن محمد الخبر هرب من هنا» (٣) . أراد غوردون أن يشعلها حرب نفسية
على الأنصار : فكان يعلنهم من حين لآخر بأنه سوف يشرع في ضربهم بكافة
أنواع الأسلحة بما فيها البصاريخ التي لا بد من تحديث هزة أرضية عنيفة
يحشى عليهم من نتائجها .

وكان غوردون يهدف من وراء تلك الرسائل إلى رعدة ثقة الأنصار
في أنفسهم ، فهم لن يتمكنوا من استلام مقاليد الحكم لأنهم لا يملكون
السند الديني للدعوة ، إذ أفنى العلماء بأن محمد أحمد لا يمت بصلة من قريب
أو بعيد إلى المهدي المذكور في الكتب السماوية . وهم لا يملكون لسند

(١) غوردون إلى عبد القادر إبراهيم ، ٣٠ ذو القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق بـ .

(٢) غوردون إلى عبد الرحمن السجسي ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق جـ .

(٣) غوردون إلى عبد القادر إبراهيم ٣٠ ذو القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق بـ .

الإجتماعي لأنهم يتمتعون لصيغة من الدرجة الثانية . وهم بالأصافة إلى هذا لا يملكون المقدرة العسكرية لمجابهة دول عظام تفوق عليهم كثيرا برجالها وعتادها . لم يدع هذا الأسلوب الرعب في نفوس الأنصار — كما تصور غوردون — بل ساعد على إزدياد حده التوتر . فقد تأكد لهم أنه لن يستجيب لنداء التسليم ، فشرعوا في ممارسة مزيد من الضغط على المدينة حتى يستولوا عليها عنوة .

أمراء المهدي وقادة غوردون :

لعل لأسلوب الذي برز في رسائل غوردون من جهة وأمراء المهدي من جهة أخرى كان يعكس فلسفة النظام الذي يمثل كل فريق . ومثما برز هذا الإتجاه في الخطابات المتبادلة بين غوردون ولأمراء المهدي برر أيضا في الرسائل المتبادلة بين رجال الحكومة والأنصار . فعاء هذا البركي نادر الاختلاف ، فبزداد كل فريق تمسكا بموقفه ولعله من المفيد هنا مراجعة بعض تلك الرسائل وهي تشمل المجموعة المتبادلة بين محمد نصحي بش ورجال اسطوله الصغير امربط في جهاب شدي و لمسة وأمراء المهدي المتوط بهم اقيام بأمر الدعوة في تلك لجهات . بالإضافة إلى خطابات من أحمد مصطفى الأمين ، والصديق اطهر ، وحامد ولد إدريس الشايب ، عمال المهدي في منطقة جنوب أمدرمان ، إلى خشم الخوسي بك قائد لاشوري السابقه وعثمان بك قائد طابية أمدرمان .

تميزت هذه الرسائل بظاهرتين ، أولهما أنها في جملتها التزمت الموضوعية في النقاش وصيغ لأسلوب حار من أي استعراز أو عطفة في القول . فقد معى الأمراء لكسب رجال غوردون بالترغيب والتأليف ثانيهما أنها حرصت على تأكيد الأمان وحسن المعاملة لكل من يعلن مسافدته هم بصرف النظر عما ارتكبه في الماضي في حقهم .

فكتب محمد الحبر عبد الله خوحي خطابا موجهها إلى « امك خشم

الموسى بك وسعادة محمد نصحي باشا « (١) حاول فيه إقناعهما بأن المهدي ليس بجمع ولا محتال وإنما هو قائم بدعوته رفقا بالمسلمين ومن أجل إقناعهم من المهالك التي تردوا فيها ردحا من الزمان . ويظهر وأضحاحا ما تأثر محمد الخير بأسلوب المهدي في الكتابة حيث يركز على تبجيس هذه الحياة الدنيا والاستخفاف بها فهي « ليست دار البقاء بل هي دار العناء والعقل يتروذ فيها بالعقوى » (٢) ويقول أيضا « إني أدعوكم يا عماد الله إلى الدين الخالص والانضمام لحرب الله ... وأنه الإمام المهدي ومن شك فيه فقد كفر لا يدعو الناس إلى الرياسة والجاه إنما لعادة الله »

وأكد لهم محمد الخير في كل رسائله حسن المعاملة وعدم التعرض لهم بسوء متى بشم التسليم « وإن سلمتم سلمتم ولكم لأمان في دياركم وممتلكاتكم ونسائكم ولكم من الإكرام ومزيد الإحترام ولا يحسبكم سوء ولا مكروه » .

وبعد كتب أمراء شدي وبعض سناجق الشايقية حطانات مدمنة إلى محمد نصحي باشا ومرافقيه أوضحوا فيها أن القضية ليست بأية حال بينهم وبين قادة الإسطول . فهم أحباب وإنخوة في الدين ، وليس هناك ما يدعوهم للاقتتال . ثم حاولوا عرض لمشكلة على أساس أنها معركة بينهم وبين الإنجليز وعلى الفريقين أن يتحدا في مواجعتهم . أما تطلعهم لحملة الإنقاذ فأمر غير مقبول ، ويشهونهم في ذات الوقت لما حدث في بلادهم بالقول « يا أيها الضباط والعساكر من بر مصر تذكروا عدوان الإنجليز على بلادكم وما حدث لعربي وتملكهم على بلادكم وأرضكم وأمواكم » (٣) .

وقد أعطاهم الأمراء أيضا الأمن على أنفسهم وأمواتهم ونسائهم . أما قاضي شدي محمد أحمد عرض السيد عقد حرر رسالة إلى حوارته السابق

(١) محمد الخير عامل المهدي لعموم مديرية شدي ، إلى ذلك خشم الموسى ، جوديات الحوادث .

(٢) محمد الخير عامل المهدي لعموم مديرية شدي إلى ذلك خشم الموسى ، جوديات الحوادث .

(٣) كتابة الأمراء والمقاديم إلى سعادة محمد نصحي باشا ، جوديات الحوادث .

خشم موسى، معبراً فيها عن شقيقته عليه لبقائه خارج حظيرة المؤمنين ناديه، ويسعوه للإصرار بالانضمام، مؤكداً له أن هذا سيقابى بالاعتباط وشرحاب. ويبدو أن المهدي كن حريصاً على كسب رجال الاسطون لما كان يمكن أن بحمله تأييدهم له من سند مادي ومعوي، فقد تركزوا هناك في ثلاث بواحر تحمل من الحمد والدخيرة ما يفيد كثيراً بالإصافة إلى أن إعلان تأييدهم سيفقد الحروطوم هذه الفرة الاستطلاعية التي كانت بانتظار حملة الانتاذ. ومن ثم فقد وجه المهدي الخيفة عند الله لبحرر لهم خطاباً ضمن إطار محاولات الإقناع التي كان يقوم بها أمراء شندي، فوجهه إلى « أحبائه في الله المكرمين خشم موسى بك وكفة من معهم من الضباط والعساكر » ولقد جوت الرسالة مناقشة ديبية على نمط تلك التي يجربها المهدي عادة في رسائله فهو يبشر بزوال الدنيا وخستها وحقارة ما فيها من حاه ومال، والعقل من عمل لآخرته لأنها دار الحلود الأبدى وفي خاتمتها يعطيهم الحليفة الأمان عن أرواحهم وأموالهم.

ووجه المهدي أيضاً خطاباً إلى هذه المجموعة، ورغم كل ما أبدوه من نعت وإصرار على موقفهم فما زالوا « أحبائه في الله المكرمين خشم موسى بك ومن معه من الضباط والعساكر بجهة شندي » (١). وحاول إقناعهم بالترغيب والتأليف دون أن يتوعدهم أو يغلظ هم القول فيقول « .. إعلموا وتحققوا أحيائي أني لست قايماً هذا المقام إلا لدعوة الخلق إلى الله وسعادتهم لكبرى ونيل مراتبهم العلى ولا أريد جها ولا غناء ولا مال إلا غناء بالله، ولا تطوا إنا نطلب أميو لكم وما ملكت أيديكم، إن سمنتم لنا وصرتم من أصحاب ... » ويعددهم - « إن سلمتم عفوناكم ورضينا عنكم ويكنتم من الأصحاب المكرمين الذين لهم عند الله حسن المكاثة الأبدية ». ولقد جاءت رسالة أحمد المصطفى إلى « سعادة نوا وقومندان وابورات السفرية محمد نصحي باشا » تحمى كذلك مناقشة لمألة علاقتهم بالمشكة

(١) المهدي إلى أحبائه في الله، جردنال الحوادث

القائمة في السودان . فهم يتعاونون مع الانجليز ضد إخوتهم في الدين مع العلم بأن هؤلاء قد دخلوا بلادهم عنوة و غتصبوا الحكم من « لخدبو وسيرره جسم بلا روح » واختتم رسالته بالوعد أيضا « فإن سلمتم لكم مائة وعليكم ما علينا وأنت وأولادك وما لك في ذمتي ولو ضاقت منك إبرة تدفع من بيت أمال » .

« لكن محمد نصحي باشا وخشم موسى ومن معهما قرروا تجاهل الروح التي بيت في رسائل الأمراء ومقابلتها بأسلوب الاستغزاز والتحقير ، ولم يفكرا لحظة واحدة في الاستجابة لنداء التسليم ، وكان لقب أمراء المهدي السائد في رسائلهم هو « الأشقياء » في حين يوصف المهدي بالذجال تارة والشقي المتمهدي تارة أخرى . خاطبوا الأمير أحمد حمزة بقولهم « نحن لا نقبل مثل هذه المخادعات وتلفيقاتكم هي أوهى من بيت العسكوت ، ولا ترسو لنا بعد هذا محاطات الا إذا كانت بشأن دخولكم في الحكومة وإن قبلتم نصيحتي دعوا اناس يذهبوا لمواشيهم » . لم تكن مسأله التسليم وإرادة عن الاصلاح ، وقد وصفها خشم موسى بأنها بعيدة « بعد المشرقين » حتى لو وعده المهدي بتنصيبه حاكما على البلاد من أقصاها إلى أذنها ، أو حمل اليه كل ما تحويه خزائنه من مال .

ويبدو أن الشيخ أحمد المصطفى قد درج على الاتصال ببعض سكان المدينة عن طريق الرسائل . فعث بحطاب إلى خشم موسى بك الذي تربطه به صلة النسب ، وآخر لأحمد بك عن جلاب مدير الخرطوم ، واحد الذين وضعوا توقيعاتهم على لعريضة التي بعثت بها مجموعة من أعيان المدينة إلى المهدي يؤكدون فيها ولاءهم له . سلم خشم موسى رسالته لغوردون فالحقها بيوميته ، ولكن يبدو أن جلاب قد آثر الاحتفاظ بها ، وسواء أن بعث أي منهما رد أم لا فهو أمر لم يثبت حتى الآن .

ركز أحمد المصطفى في رسالته لخشم موسى عن الجانب لديني

تحمّا كما يفعل رفاقه . « فهنا الإمام هو المهدي المنتظر الذي يتوجب على كل المؤمنين اتباعه وسماعه زمام أمورهم . أما ما يردده علماء الخوطوم فهو قول باطل من أساسه ولا يحق للعقلاء الاستماع إليه . » وجاء فيها أيضا قوله « ولا زلتم في بائنا حتى سعيينا لكم في أخذ الأمان وأنتم دخل الخوطوم فوجدناه لكم ولأموالكم وأولادكم وأنفسكم ومن تبعكم صريحا بحسم ودرسم لا يعقبه مكر . » وكتب محتهد في ادخال تلك الشارة اليكم داخلما فما وجدنا مسين فأجاب الله دعائنا وما خيب رجائنا فيكم » (١) ويبدو أنه قد فطن إلى إمكانية الاستفادة من العناد العربي الذي يمكنه أتباع حشم الموسى د حل المدينة، فكتب إليه أن يخرج للملاقاته عما معه من ذخيرة وسلاح . ثم إذا تعدر ذلك فليترك كل شيء حتى محسكاته الشخصية التي بالتأكيد ستزد ابيه عند فتح المدينة . وربما اعتقد الشيخ أحمد المصطفي أن تردد حشم الموسى يعود إلى تخوفه من انتقام الأنصار ، إذ كان هو أحد قادة غوردون الذين اشتركوا في عدة عمليات صدهم فسد له هذه الثغرة بقوله « وما جرى بيسكم وبين لقمراء بالشرق لا تحشروا منه ، فإنه لا شئ في عمو الإمام عليه السلام ، وما فعلتموه أنتم لا يكون سببة من سيأت صالح الملك بقتله لليعقوباب وإنتهابه لأموالهم وأولاد المكاشفى وسبييه لأولادهم ومثلهم مع كونهم أشرف ، فمع ذلك كله الآن هو أقرب الناس من الإمام ، وعفا عنه وأعطاه صريح الأمان ، فلا تحسبوا ما جرى منكم حسبة فاحضروا إلينا ولو سرا » .

كتب الصديق الطاهر وحامد ولد إدريس الشايب خطابا إلى عثمان بك قائد طابية أم درمان ومن معه من ضباط وعساكر أوضحا فيها أن المعركة ليست صدهم فهم « أخوان في دين لله وجيران وما كلين عيش وملح » (٢) . وحاو الكاتب أن أيضا اقناع لعساكر المصريين بوجوب تأييدهم للهمدى فقد

(١) حيد المصطفي الفقيه الامير إلى حشم للموسى الملك ١٩ هـ القعدة ١٣٠١ (١١ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج .

(٢) نصديق الطاهر وحامد ولد إدريس الشايب إلى عثمان بك : ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د .

سبق أن قبل السودان الحكم التركي ردحا من الزمن، وعليهم الآن أن يقلوا بالمهدية . بلاضافة إلى أن حكم الأتراك قد زال من بلادهم نفسها وآلت الأمور إلى الانكليز .

وفي الختام وجهوه للانضمام لمعسكر الشيخ أحمد المصطفى ، حيث يشملهم قرار المهدي الذي نص على أن كل من خرج لملاقاته من أمدرمان أو الخرطوم مع انشيع المذكور فعليه وعى أولاده وأمواله أمام الله ورسوله . أما إذا رفضوا هذا العرض فما عليهم لا تسيم الطابية والتوجه إلى وطنهم وستقدم لهم كافة التسهيلات حتى تتم الرحلة بأمان .

بذل أمراء المهدي - إذن - جهدا من أجل إقامة جسر بينهم وبين قادة غوردون عن طريق الحوار الموضوعي والشاهم المتطقي حول القضية القائمة . وكان يحدوهم الأمل في أن يستجيب هؤلاء لتلك نداءات المتكررة ويدفعوا تحت لواء المهدي . ولكن القادة تمسكوا بموقفهم فغير بعضهم عن عظيم استحقاقه بالدعوة نفسها ، وآثر آخرون الصمت المصق فلم يكلف نفسه حتى مشقة الرد على الرسائل التي بعثت إليهم .

مسلك المهدي كما كشفته رسائله لغوردون :

تمكن غوردون من الوقوف على نوايا المهدي المتعلقة بسياسته نحو البلاد من مصادرها الأصلية دون أن تتعرض لتحريف أو تشويه ، إذ كانت لديه المعلومات والحقائق التي ضمنها المهدي في الرسائل التي بعث بها له . وقد كان في هذا قائمة جملة ، لأنها أعطته أساسا بإمكانه أن يقرر على ضوءه ما ينوي اتخاذه من خطوات فيما يتعلق بموقفه الشخصي أو بمصير البلاد السياسي بصورة عامة . وكان إتجاه المهدي هذا منسجما تماما مع ما درج عليه في علاقته مع قادة المراكز الحكومية ورؤساء حملاتها العسكرية فلم يستثن غوردون من هذا . ورغم أن لمبادره جاءت من غوردون إلا أن سنجابة المهدي كانت سريعة فتوالت خطاياه بصورة منتظمة طوال فترة

الحصار ، مكتوب له آخرها هل أسوعين فقط من سقوط المدينة .

بعث المهدي لغوردون بنمات رسائل حملت أولها تاريخ ٧ جمادى أول (٥ مارس ١٨٨٤) حيث كان المهدي آنذاك بالأبيض (١) . نصبت تلك الرسالة بوصفها أول إتصال من طرله وجهة نظره في كافة القضايا المتعلقة بالدعوة موصفا طبيعتها ومراميها بصورة شاملة ، بالإضافة إلى تعليقاته على بعض ما ورد في رسالة غوردون الأولى إليه ، فحاتت صوبلة تعوي ١٤٥٠ كلمة تقريبا . وقد بعث المهدي معها «كسرة الزهاد» وحرر لغوردون بصعة أسمر عنها . ولأنها كتبت في صيغة لخصاب فقد رأى بعض المؤرخين تصنيفها كرسالة قائمة بذاتها (٢) ، ثم أرسل المهدي برسائته الثانية من الرهد في شوال ١٣٠١ هـ (بعد ٢٧ يوليو ١٨٨٤) (٣) وتقارب هذه في مضمونها الرسالة الأولى . فهي تحمل شرحا تفصيليا «لدعوة وتداء لغوردون لإعلان تأييده ، فحاتت في م يارب ١٢٠٠ كلمة . بدأت مسيرة المهدي إلى الخرطوم بعد ذلك بفترة وجيزة ، ولم يتصل بغوردون حتى وصل إلى مشروع القبة بالقرب من أم درمان ، فبعث برسائته الثالثة بتاريخ ٢ محرم ١٣٠٢ (٢٢ أكتوبر ١٨٨٤) (٤) ذكر المهدي فيها بآ اعتيال ستورث وقادته . وأورد مقتطفات من المكاتبات التي كانت بحوزته حتى يجرم غوردون بصدق قوله . ولا بد أن هذه الرسالة قد أثرت تأثيرا كبيرا في نفسية غوردون ، إذ أثار آخر أمل له في لاتصال بالخارج لتبليغ المسؤولين ما تعانيه المدينة . وبعد أن ستر المهدي في ديم أبي سعد بعث برسالة رابعة تحمل تاريخ ١ صفر ١٣٠٢ (١٩ نوفمبر ١٨٨٤) (٥) ولأنها كانت تحمل بآ وصوله إلى الخرطوم فقد توقع أن يهتم غوردون بالرد عليها ، فبقى رهاء الخمسة أسابيع في

(١) المهدي إلى غوردون ، اعدادات ب س ١٠٩-١٨

(٢) Hall, "The Sudanese Mahdism and the Outside World," BSOAS XXII, 2 (1958) pp. 276-90

(٣) المهدي إلى غوردون ، النجوم ٢٦ .

(٤) المهدي إلى غوردون ، ملحق .

(٥) المهدي إلى غوردون ، نجوم شقي ص ٨٤٦-٧

وأكره القصر وتعزز لسلطين ونهزم عن الحق المبين لما حلو عليه من حب العجاء والمال والبنين ، وهذا هو الذي صدمهم عن صلاحهم . وأخذ نصيبهم من ربحهم ، فأخذوا لقائي وتركوا الباقي واشتعلوا بما لا يكون من القاتيات ولم يسمعوا قول الله ورسوله .

ثم أوضح المهدي طبيعة مهمته ، فهي دينية بحتة لا غرض منها سوى هداية الناس إلى طريق رسول الله ، وذلك بالابتعاد عن النعيم القاني والسعي إلى النعيم الباقي . ولم يكتف المهدي بإثبات هذا القول بل دعمه بموقفين برزا في تلك الرسالة . أولهما أنه رفض بصراحة ولاية كردفان التي عرضها غوردون عليه في رسالته الأولى « فلا حاجة لي بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا في مال الدنيا ولا زخرفها ، وإنما أنا عائد إلى الله وإلى ما عنده » . فالسلطين والمملوك - في رأيه - هم سبب ضعف الاسلام لاشتغالهم بغير ربحهم . وثاني تلك المواقف هو رفضه ولاية غوردون التي أرسها إليه وكتب معينا « أما الهدية التي أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جراك الله الخير وهداك إلى الصواب وأعلم أنه كما كتبنا لك إن لا نرعب متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وإنما هي قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب . فهذا هي رسالة إليك » .

ولأن الدعوة دينية ، فهو يرفض الاعتراف بغوردون كحاكم عن السودان مستندا على الآية « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض » . فهو يسعى إلى إقامة دولة تركز على الاسلام . يتمكن حكامها من إصلاح حال المسلمين ، وبهذا لا يمكن أن تكون الولاية لغير المسلم . ويرد على غوردون فيما يشبه الاستنكار « فإن كنت شقيقا على المسلمين فبالأولى أشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها وقومها على اتباع الدين الحق باتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . فظهر نفسك أولا بالدخول في مته ثم أشفق على مته بدخول مته ، فعند هذا فأنت الشفيق ، ومن غير هذ فمالك من المحققين رقيق .. » فالسولة الاسلامية لا يقيمها إذن إلا المسلم . من هنا

حاء رفصه لعوردون كحاكم على البلاد ، وهو مدنيا وليس شخصا ، بل
 لقد كان المهدي يعطى عوردون كشخص بعض الاعتبار ، فهو يقول له : « قد
 سمعنا مر را فيك الخير » (١) ويذهب إلى أبعد من هنا حين يؤكد له إمكانية
 الاعتراف به كوال في حالة اعتناقه الإسلام : « ... وأعلم أنك إذا أتيتنا
 مسما زيك وأريك من نور ما يضمن به قلبك ويرويه طمعك في الدنيا
 وما فيها ثم بعد ذلك إن رأينا فيك خيرا وصلاحا لمسلمين وليناك كما فعلنا
 بمحمد خالده ... »

أوضح المهدي ، إذن ، أنه لا يعترف بعوردون كحاكم على بلاد
 المسلمين . وسوف يسعى لوضع نهاية لتلك السلطة بألومائل السلمية أولا ،
 وذلك عن طريق تنازل عوردون عنها . وأنه لن يقبل حلا وسطا فما يتعلق
 بهذا الأمر . أما مصير عوردون الشخصي فقد كشف المهدي عن إمكانية
 التفاوض حوله . فهو يقول في أول رسالة له : « وبعد هذا البيان إن اتحدت
 وسلمت لي وأتعتني حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأحرار جميع
 من اتبعك ، وإلا هلكت فكان عليك إثم وأثم جميع من اتبعك لا (٢) هنا
 يشترط المهدي عليه التسليم لكي يسجد بحياته ، ولكنه لا يطالبه صراحة
 بالإعراف بالمهدية أو اعتناقه الإسلام (٣) . إلا أنه في الرسالة الثانية يخبره
 بين التحول في الإسلام أو الخلاك . وفي ذات الوقت أعطاه وعدا بالإبقاء
 على حياته وحياة من معه وممتلكاتهم في حالة أسلم . « لقد فوض محمد
 عثمان أبو فرجة لمرة عادة تنفيل هذا الوعد إذا استجاب عوردون للثناء

ربما فهم مصعبا أنه إذا سلم عوردون للمهدي فإنما هذا يعني أنه قد
 عرف به ليس كحاكم فقط بل بصفته الدينية .

(١) المهدي إلى عوردون ، اند رات ب من ٢٥٣ - ٤ .

(٢) المهدي إلى عوردون ، اند رات ب من ٦٠٩ - ٦١٨ .

(٣) المهدي إلى عوردون ، النجومي ٢٦ .

ولكن يبدو أن المهدي أراد أن يضع حدا شرطا صريحا - وضمته في رسالته الثالثة « فإن أتت إلى الله تعالى وأسلمت وسلمت وصدقتم بمهديتنا أرسل مخاطبة منك ومن معك جميعه إلينا بعد وضع السلاح ورفع المحارقة ، ليرسل لكم من يؤمكم وبذلك تحوزوا خير الناسين » (١) . ورد على هذا أنه في حالة لرفض فليس أمامهم «سواء الاستعداد لحرب من عند الله ورسوله وهم بلا شك هالكون فيها كما هلك الذين يفوقونهم عدة وعدد » . وفي هذه الحالة سوف تؤخذ أموالهم وممتلكاتهم وأولادهم غنيمة للمسلمين . جاء محتوى بقية لرسائل منشأها في جوهره مع ما سبق أن ذكره المهدي في خطابات الأولى باستثناء رسالته السابعة والتي ظهر فيها أن تغييرا قد طرأ على رأي المهدي فيما يتعلق بمصير غوردون . فهو ما زال يصر على تسليم الخوارج . ولكنه يبدو إستعداده لضمان حرية غوردون الشخصيه إذ يقول « فإن أراد الله سعدت وقلت نصحتنا ودخلت في أماننا وضماننا فهو المطلوب . وإن أردت أن تجتمع على الإنكليز الذين أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاكهم فنوصلك إليهم » (٢) . هناك عدة عوامل يبدو أن المهدي أخذها في الاعتبار عندما قرر أن يرجع قبلا عن مطالبته لغوردون بعتناق الإسلام أو الاعتزاف بالمهدية ، ربما كان يسعى في البداية إلى كسب غوردون إلى جانبه حتى يتمكن من الاستفادة منه في بدء الدولة التي يزمع إقامتها في السودان ، ولا بد أنه سيكون مفيدا له تماما كما هو الحال مع سلاطين باشا وغيره من الأجانب . إلا أنه تدارك عن هذا الطلب حين تأكدت له أنباء وصول الحملة الإنكليزية ، فرأى أن يحرض على غوردون إمكانية تأمين سفره إلى حيثما تكون لحملة .

و توقع المهدي أن يعود الحملة من حيث أتت في حالة قبول غوردون للعرض لتجنبهم بالتالي - إراقة المزيد من الدماء . ثمة عامل آخر أيضا ،

(١) المهدي إلى غوردون ، ملحق ز .

(٢) المهدي إلى غوردون ، اندارات ب ص ٢٥٢-٥٣ .

ربما أخذ المهدي في الاعتصار بمسك غوردون بدسه وتقصيه نه مهما كلفه الأمر ، وقد وضع هذا حلي على تحاضيه الحام للدمات المتكررة التي وجهت له في عدة رسائل لاعساق الإسلام كي يسجى بحياته . فأبقى المهدي في تلك المرحلة من احصار أن غوردون أن يسسم حتى لو كان في هذا فقدان حياته فأكبر أن يتخلص منه ويأمن شر الحملة .

ومشما كان الحال بالنسبة للمهدي فقد اتخذ غوردون الرسائل وسيلة للاتصال بخصمه ، إلا أن عدد المحطات التي بعث بها غوردون إلى المهدي ما زال خاصصا لاجتهاد المؤرخين ، فلهذا تصاربت روايات المصدر حول هذا الأمر وتباينت . فهناك نسخة عربية لرسالة واحدة هي أولى رسائل غوردون إلى المهدي والتي حطت ضمن مجموعة المسمى (١) . كما أن هناك نسخة من رسالة برقية بعث بها غوردون إلى مرجح لله ذلك ، وطلب منه نقلها إلى المهدي ، وقد أرفقت باليوميات (٢) . إلا أن نصحي باشا أورد في تقريره ترجمة لرسالتين أخريين . وذكر أن غوردون قد بعث بالأولى في مارس ١٨٨٤ بعد تسميه لرد المهدي على تحضايه لأول . ولقد اختار نعوم شقير الثانية وجاء بالنص العربي لها . وذكر أنها أرسلت كرد على رسالة المهدي التي تحمل تاريخ ١٩ نوفمبر ١٨٨٤ (٣) ولا بد للقارىء أن يحصع رواية التقرير لتأمل ، إذ لا توجد أصول لأي من هذه الرسائل . ربما فقدت الأولى باعتبار أنها أرفقت مع يوميات سنورت ، لأن غوردون قد كتبها قبل ١٠ سبتمبر — مريخ مغادرة سنورت لمدينة — لكن إذا كان تاريخ شقير صحيحا فالحق الرسالة الثانية بيرويات غوردون كما فعل مع بقية الرسائل التي وصلته أثناء تسجيلها كان أمرا متوقعا . إلا أن كونه لم يفعل لا ينفي حدوث الواقعة ، وربما أبعدنا لسبب أو آخر ويكنى أمين إلى الاعتقاد بأن نعوم شقير قد أخطأ

(١) غوردون إلى المهدي ، ١٢ ربيع أول ١٢٠١ (١٠ فبراير ١٨٨٤) وردت ج ١/١٥١

(٢) غوردون إلى مرجح لله بك ، ٣ محرم ١٣٠٢ (٢٤ أكتوبر ١٨٨٤) ملحق لـ .

(٣) نعوم شقير ، ص ٨١٧ .

في تاريخه، وأن غوردون أساساً لم يبعث تلك الرسالة، وإنما بعث فقط بالبرقية المشار إليها سابقاً. ولقد درج مؤلفو التقرير على ذكر نصوص الرسائل معتمدين على معلومات سماعية فقط، وبعضهم لهذا نقسو برقية غوردون مع بعض التحريف على أساس أنها رسالة.

ولكن هناك دلائل أخرى تشير إلى خطاوت بعث به غوردون إلى المهدي بالإصافة لتلك التي وردت في التقرير وما زالت أصولها أو نسخ منها مفقودة

حاء في إحدى رسائل المهدي لغوردون قوله « وقد بلغني من جوابك الذي أرسلته إلينا أنك قلت إن لا تكليز يريدون أن يفسوك وحملك منا عشرين ألف جنية » (١) فربما تكون الإشارة هنا لرسالة ما رالت مجهولة المكان. ولا أن الاحتمال الثاني، أن يكون الخطاب المعنى هو ذلك الذي بعث به غوردون إلى عبد القادر إبراهيم وعرض فيه إستعدادده لدفع عشرة ألف جنيه مقابل إطلاق سراح الأسرى الأوربيين (٢). وجعل الخلط في المعنى مرده رداة خط وسلوب ذلك الخطاب.

ولكن المهدي يشير في آخر رسالة كتبها إلى غوردون إلى خطاب وصله منه، فهو يؤكد له أن « جوابك رد المخرج من وصل إلينا وفهما مضمونه » (٣) فإذا كان غوردون قد بعث بخطاب للمهدي قبل أسبوعين تقريباً من سقوط المدينة، فاحتمال أن يكون قد بعث برسائل أخرى قبل ذلك التاريخ غير مستبعد على الإطلاق

كشفت رسالة غوردون لأوى أنه كان يسعى لمعالجة المشكلة في بادئ الأمر بدبلوماسية وبلا إستفزاز ودون أن يتورط في شيء، فخطب

(١) المهدي إلى غوردون، ٢٠ ربيع أول ١٣٠٢ (٧ يناير ١٨٨٥) انقارات ب ص ٤٠٢٥٣.

(٢) غوردون إلى عبد القادر إبراهيم، بعد ١٨ ربيع أول ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق أ.

(٣) المهدي إلى غوردون، ٢١ ربيع أول ١٣٠٢ (٨ يناير ١٨٨٥)، انقارات ب ص

المهدي باحترام وكأني أحد رجال الصوفية « مولاي السيد محمد أحمد بن عبد الله » (١) ، لم يكن تغادي غوردون لذكر لقب المهدي سهو بل ، كان على الأرجح أمرا مقصودا . وقد ركز في تلك الرسالة على الجوانب السياسية للأزمة ، متجاهلا عن عمد الصبغة الدينية التي عرفت بها الثورة .

ولعل الموقف الذي اتخذه غوردون تجاه الأنصار طوال مدة الحصار بدأ في تلك اللحظة التي خط فيها رسالته الأولى للمهدي . فهو لم يأت للبلاد في مهمة مؤقتة ، بل جاءها كحاكم صاحب سلطة شرعية لم يبد أي استعداد للتنازل عنها قيد أنملة . ولكي يدخل شيئا من الرهبة في نفس المهدي ذكر به أنه جاء منتدبا من قبل حكومتى دولتين عظيمتين هما مصر وبريطانيا ليتولى شؤون البلاد ، وبشيء إليه بهذه النصفه موافقته على تنصيبه سلطانا على كردفان .

لم يتطرق غوردون من بعيد أو قريب إلى طبيعة مهمته ، ولم يشير إلى أنه جاء من أجل إخلاء المحاميات والمدنيين . ولو فعل هذا منذ البداية ربما كان في الامكان رؤية صورة مغايرة تماما لأحداث تلك الفترة .

وعندما تسلم غوردون رخص المهدي لمكتوب لسلطنة في مارس ١٨٨٤ « استشاط غضبا وركل كسوة الزهد بوجهه » وفي حية حرر خطابا ختفى ، فيه أسلوب التحفظ الحذر الذي ظهر في الخطاب الأول واستعاض عنه بأسلوب الاستفزاز المباشر فهو يدعو « محمد أحمد المتهمدي » . وقد أكد في هذا الخطاب ولائته على السودان مرة أخرى : ووضع أمام المهدي خيارين ، فأما أن يقبل منصب السلطان أو يجهز نفسه لحرب لا هوادة فيها ستقضى بالتأكيد عليه وعلى رجاله .

ويبدو أن المهدي لم يلق بالالتهييدات غوردون ، فواظب على ندائه له ليضع حدا بمشكلة بلا إريقة مزيد من النداء . تجلت استجابة غوردون في قوله « أن لا يمكن أشوف كلام محمد أحمد زيادة عن الرصاص » (٢)

(١) غوردون إلى المهدي ، ١٢ ربيع أول ١٣٠١ (١٠ مارس ١٨٨٤) فصوصات ج ١/١٠٦

(٢) غوردون إلى مرجع الله بك ، ملحق ، د .

وكشف بهذا عن تصميمه على القتال سوء، جاءت نجمة مساعدته أو لم تأت، وهو يدعو أنصار المهدي صراحة إلى التقدم نحو خطوط النار الرئيسية للملاقة جوده .

ولم تبد في أي رسالة منه إشارة إلى أنه ربما يقبل تسوية سلمية يمكن التفاوض حول أسسها، خاصة وأن المهدي أبدى إستعداده لاختلاء سبيله وأمر سفره إلى حيث تكون القوات الإنجليزية . وكان بالامكان إجراء مشاورات تهدف إلى تأمين سلامة الأهالي من حنك ومدن ولعل التعرف من ردود فعل إنتقامية لا أساس له . فقد سبق أن قتل أفراد حامية الأبيض لأنصار بضرورة وأزولوا هم من الخسائر ما يفوق كل ما أنزله بهم حدود خدمة الخرطوم طوال مدة الحصار . ومع ذلك لم يفقد أي منهم حياته عند التسليم .

بالإضافة إلى هذا فقد جاء في إحدى رسائل المهدي تأكيد لأهالي الخرطوم بأنه على إستعداد لنسيان الماضي وقبوحهم بين رحانه متى ما أصنوا تأييدهم له، فهو يخاصهم بقوله « وحيث فهمتهم ما ذكر فإنني لا وأخذكم بما فاتكم ولا تريب عليكم اليوم، يخبر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأتبوا إلى ربكم واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بعنه وأنتم لا تشعرون، وعليكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وليس عليكم حرج فيما مضى وغايته أن من سلم سلم .. ولا تحشوا من شيء يحصل عليكم فإننا مناظرون منكم آية قوله تعالى (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآبائنا فقل سلام عليكم) .. (١) .

لقد أراد غوردون كسر شوكة المهدي وهذا هو الأمر الذي أقعده عن تسليم المدينة، فأنخذ موقفا عدائيا منه منذ البداية، على أساس أنه هو صاحب الحق والسطوة، والمهدي إلا عتورد خارج على القاتلون يجب إخضاعه من

(١) المهدي إلى أهالي الخرطوم إدارات ب ص ٢٥٥ ٦ .

أجل الحفاظ على سيادة الدولة وحياتها وقد اتخذ هذا الموقف رغم أنه لم
يكن يملك مقدرات الانتصار، وكان واضحاً أن المعركة تتحول تدريجياً في
مصلحة الأنصار، وعدت محاولته لصدهم مغامرة محموفة بالمخاطر

/

من عمليات الحصار إلى سقوط الخرطوم

ما أن حل شهر مارس حتى تأكد غوردون أن سياسته اسمية التي كان يأمل لها أن تنجح في كبح جماح الثورة قد أصبحت أصناف أحلام .
م تعد أساء لنشاط اندي يقوم به الأنصار في كل المنطقة الممتدة من الخرطوم جنوباً حتى القطيفة وسار ، وشمالاً حتى بربر ، هي مجرد شذاعات ينقلهما المسافرون والرواة ، بل حتى سجنائها معانوته وحملت أنبائها بواخيره الاستطلاعيه .
وعد انهارت آخر آماله في تعمد تلك اللحظة بوصول رسالة المهدي الأولى إليه التي أوضح فيها رفضه لسلطنة كردفان . وإن شيئاً لن يقعه عن موصلته سره نحو الخرطوم . فأما أن يقتنع غوردون بصلق السعوة وينفذ نفيه ومن معه بتسليم المدينة للأنصار وإلا فإن « حزب الله » اصل الك ومزين لك عما شاركت به حلقك فاستدعيت ملك عباده وأرضه مع أن الأرض لله يودئها عباده الصالحين » (١) وهو لا يأتي للخصوص ليقتسم الأسلاب مع غوردون أو يتماوص معه بل ليستولى عليها وبالقوة إذا اقتضى الأمر . ثم يختم المهدي الرسالة بقرله : . . . وبعد هذا البيان فإن اهتديت وسلمت لي وأتبعني حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وأجر جميع من اتبعك . وإلا هكت فكرك عليك إنك ومثل آثام جميع من اتبعك » .

إلا أن تفكير غوردون لم يتجه ولو للحظة عابرة ، نحو تقديم الخرطوم لقمة سائغة للأنصار ، وهذا أصبح لاستيلاء عليها بواسطةهم قلداً لا مفر منه وليتم ذلك عنوة وبعد لأي مباشر من قوه هي إحراء مزيد من الاستعدادات الدفاعية تحسباً لأي هجوم قد تشنه فرق الأنصار المربطة حول المدينة وقأب لوصول المهدي .

(١) المهدي بك غوردون ، ٢ جادى أول ٣٠ (٥ مارس ١٨٨٤) إندارات ب ص

حاول غوردون استغلال ما لديه من إمكانيات إلى أقصى الحدود . فلم تكن المدينة تملك من الموارد البشرية والمادية التي تستخدم في الحروب إلا اليسير . كانت هناك حامية بالفعل ، إلا أنها كانت تعاني من عدة نقائص وقمت عائلتها أمام خلق شبكة دفاعية فعالة . وكانت هناك أيضا مجموعة من البواخر التي أدخل عليها غوردون من الوسائل ما أهلها لخوض المعارك الحربية ، إلا أن الظروف التي صاحبت تطورات الحصار قد شلت من حركتها إلى حد بعيد كما سيوضح فيما بعد .

حامية الخرطوم :

اشتملت الحامية على خليط من الجند المصريين واسودانيين النظاميين والأتراك والشابكية غير النظاميين ، بالإضافة إلى المملوطين ، وقد قدر عددهم بعد انسحاب حاميتي المدويم والكوه إلى الخرطوم في ٣ يناير ١٨٨٤ بـ ٦١٠٠ جندي ولقد اتجه تفكير غوردون عند وصوله في ١٨ فبراير ١٨٨٤ إلى سحب حاميات سار وبعض المراكز الصغيرة المتناثرة في الجزيرة إلى الخرطوم . إلا أن وقوع الحصار في كل من الخرطوم وسار أضطره إلى إلغاء ذلك المخطط .

كانت العقبة الرئيسية التي تشل إلى حد كبير مقدرة الحامية في الدفاع عن المدينة هي عسدها . إذ كان خط انتار طويلا يحتاج إلى ما لا يقل عن ١٢٠٠ رجلا لحمايته ، ولقد سبق أن أبقى لكونلونيل دي كتلوجن سلطات القاهرة قبل وصول غوردون موضحا أن حامية الخرطوم لن تستطيع أن تحمي حط الدفاع حتى لو تصاعف عددها الحالي بل أن بعض الناس كانوا يتشككون فيما إذا كانت الحامية بكامل قوتها ستتمكن من حفظ الأمن بصورة عادية في المدينة .

كان هؤلاء الجند يفتقرون إلى الحد الأدنى من التدريب العسكري الذي يؤهلهم إلى تنفيذ أية عمليات حربية ناجحة . ويلاحظ أن تكوين هذه الفرق

قد تم بصورة عاجلة عدم مجيء عدد القادر ناشأ حلمي . فقد اضطرت له حيل
جيود لحاميته للاسهام في العمليات العسكرية في منطقة الجزيرة ونسبته لقلة
عددهم فقد قام بتجديد ثلاث أوطرط من اسود ، واستدعى ست أوطرط من
لجنود النظاميين من لسنوداب الشرقى . ويبدو أنه استعان بالأشداء منهم في
العمليات التي شنها ضد أعوان المهدي ، أما لبقية فلقند ناطروا ٣ مسئولية الدفاع
عن الخرطوم . ولم تكن تتمتع بأى مقبرة عسكرية ، من وصفت بأنها « بقايا
جيوش .. » « أعليهم من العجزة والعميان » .

ولم يكن هذا الموقف ناعيا على مسئولى القاهرة . إذ كان يرجع على
علم بضعف حامية الخرطوم وبافتقار رجالها إلى التدريب ، فوصفهم بأهم
مجموعة ضعيفة من الجند الذين لا يمكن الاعتماد عليهم .

بالإضافة إلى هذا لم تكن مسألة إخلاصهم وتعاونهم في خدمة الحكومة
أمرا فوق اشبهات : فهذا خليل من الجند يعلمون تماما أن الدفاع عن المدينة
فوق طاقتهم لقلة عددهم وضعف خبرتهم الحربية . ولا بد أن يكون هدفهم
من الجنسية هو الارتزاق أكثر من العمل اسخلص لهدف معين . فعرف أن
حوالى ثلث الجند لم يكونوا يدينون بالولاء للحكومة . ولا يمكن الاعتماد
عليهم حتى لاحتفاظ على الأمن الداخلى .

كانت اللواثر الحاكمة في كل من الخرطوم والقاهرة على يقين تام
أنه إذا شن الأنصار هجوما على المدينة سيستحيل على الحامية صده ، إلا أن
عوردون تجاه هذه المعلومات ووطد عزمه على الاحتفاظ بالخرطوم مهما
كفاه الأمر .

ربما يتبادر إلى الذهن أن عوردون تحدد هذا الموقف باعتبار أن مستدا
عسكريا لا بد سيايته من الخارج . إلا أن هذا التقدير لم يكن يستند على أساس ،
إذ سبق أن أخطر رسميا ولم يمض على وصوله للخرطوم أكثر من شهر واحد
في رسالة بحث بها بيرنج إليه وكررها لوزير البحرية البريطانية ، فحواها

أن ليست ثمة نية في إرسال قوة عسكرية للسودان ، كذبت رد جرانفيل
على هذا برسالة يؤيد فيها رأى بيرنج وموضحا أن الحكومة البريطانية
ستعارض أى قرار تتخذه الحكومة المصرية بإرسال قوات سودان، إلا أنها
قد توفق على إيفاد قوة مصرية إلى سواكن بشرط أن يكون هذا ممكنا من
المالحة الفعلية ، وإذا رأى سردار الجيش المصرى (أى . وود) (A Wood)
بأنه عمل هادف ولم تكن الحكومة البريطانية على استعداد لموافقة
على إرسال قوات للسودان حتى وإن كانت بهدف المساعدة في تأسيس
حكومة موازية لمصر هناك ، ناهيك عن قوة تصبغهم عسكريا مع المهدي ومن
ثم أوضحت بريطانيا أنه يمكن إرسال فرقة لبربر إذا رأى أنها ضرورية لإنقاذ
حياة غوردون ، وأنها ملتزم بتنفيذ هذا الأمر فقط . ولقد كان هناك خلاف
حتى على إرسال هذه القوة ، إذ أن صغر حجمها سيعرضها لخطر حمة ، في
حين كان إرسال قوة كبيرة أمرا مرفوضا على الإطلاق من جانبهم . إذ كان
غوردون مدعيا بهذه التفاصيل فهناك احتمالان لتفسير موقفه ، أما أنه قرر
بصمة حارمة الاستعانة بالقوات التي تحت تصرفه للتصدي للأتباع في هذه
المواجهة ، وأما أن الأمل كان و ما يزال بروده في أن الحكومات التي
أوفسته قد ترضخ أخيرا لرغبته وتبعث به بحملة تنقذ المدينة من براثن المهدي
كانت حامية الخرطوم تتكون من ثلاث ورجل من اسود ، كل
اورطة تضم حواى ٩٠٠ رجلا، وكانوا جميعا تحت قيادة فرج بك الزينى .
وقد أنعم غوردون على فرج بك برتبة باشوية وعينه قائدا عاما للقوات لأنه
من قلائل الضباط الموجودين في المدينة من ذوي الخبرة العسكرية رغم أنه
قد عرف بميله بتمرد ، فقد عمل في مصر قبل ثورة عرابى وقام بتحريض
ضباط الآلاى لسودانى على التمرد عام ١٨٨١ ، إلا أن الجند كشفوا أمره
فشكت له وزارة الجهادية المصرية محكمة عسكرية حكمت عليه بالنفى
إلى اسودان ، ولكن رؤوف باشا الحقه بالجيش المصرى مرة أخرى عند
ولايته للبلاد ، ورغم أن كثيرا من ضباط غوردون قد قاتلوا الأتباع عند

دخولهم المدينة حتى سقطوا في الميدان، إلا أن فرج بك كان ضمن أولئك الذين تحلوا عن بزاتهم العسكرية وبعصوا وجوههم صوب الصحراء .

كانت هناك أيضا ثلاث أوط من الجنود المصريين الذين سبق وأجلاهم غوردون إلى أم درمان تحت قيادة محمد نصحي باشا مهيذا لإرسالهم مصر ، ولكنه أرحع إثنين منهم إلى الخرطوم وعين إبراهيم بك فوزي قومندانًا عامًا للقوات المصرية . وأوكل ليوسف أفندي عفت وفرج بك على قيادة كل أوط منتملة . كان الناشوزق من شافقة والأتر ك يشكلون إثنين وثلاثين فرقة قسم الواحدة الستين رجلا تقريبا . فوضع الأتر ك تحت قيادة السيد باشا حسن الجميلاني ومعاونه حسن باشا إبراهيم الشلالى .

إلا أن هذين الضابطين قد عدا في أوائل أيام الحصار لإتهامهما بالآمر مع الأنصار من أجل إزده الخزيمة بقواتهما عمد . تصارت الروايات حول حقيقة هذه التهمة ، إذ تقول إحداها أن الضابطين بريئان وقد اختلق التهمة فرج باشا الزينى الذى كانت بينه وبينهما ضغائن قديمة، وتقول رواية أخرى إن التهمة صحيحة وقد أثبت عليها الجنود، إلا أن الروايتين تتفقان في أن الحكم قد نفذ سرا . الأمر الذى يلقى بعض ظلال من الشك على أن التهمة لم تكن ثابتة بشكل قاطع . فتخوف غوردون من إعدامهما علنا .

ثم عين غوردون خشم موسى بك قائدا للشايقية الباشبوزق، وعين هادى حسن على رأس قوة من المتطوعين نزع قواتها السعمائة رجلا .

تحصينات المدينة :

كان عبد القادر باشا حلمى أول من بنى تحصينات للخرطوم في مايو ١٨٨٢ أثناء ولايته على السودان ، فشيّد خندقا نصف دائرى يمتد حول المدينة من لشرق إلى الغرب . وقد استعان في هذا بالضابطين أحمد ثابت وأخيه محبوب، وهما من أصل مصرى ولدوا بجنات دنقلا . ثم قام دى كتلوجن بتقوية وسائل دفاع المدينة كرد فعل مباشر لطريقة هكس باشا في

آخر عام ١٨٨٣ . فحمر خندق جديدة وزاد من عمق القديمة وشيد عدة طوابق على طول خط النار فبلغ طول الخندق ٥٩٠٠ ياردة في رمن فيضان النيل، إلا أنه كان يمتد إلى ألف ياردة أخرى عند انخفاضه وبلغ عمقه ٨ أقدام وعرضه ١٧ قلما في السطح و ١٠ أقسام في قاعدته .

ثم رأى غوردون عند وصوله ضرورة تقوية التحصينات ، فزاد مرة أخرى من عمق الخندق حتى بلغ ١٨ قدما وشيد سورا من الداخل وأقام فوقه حائط بارتفاعه خمسة أقدام وفتح فيه المراحل . وقام أيضا بربط الجراء العربي من الخندق بسلك شائك مع شاطئ النيل الأزرق ، ثم أتى ببعض المراكب محملة بعربات ناسفة وربطها مع هذا السلك لئلا يتفزع العدو ويخلق له حصار ماء النيل .

ولقد تخللت خط الدفاع جملة من الطوائف المسحقة بالمدافع . كانت هناك طابية الكلاكلة في أقصى الغرب عليها طابية المسلمية . وتجاوز كل منهما بوابة عرفت باسميهما . وفي أقصى الشرق قامت طابية برى بوابتها ، إلا أن هذه ضلت مغلفة منذ بداية الحصار . وقد وجه غوردون مستبورت باشا و خليل أفندي للإشراف على بناء طابية أكبر في مكان طابية برى القديمة ، وفي شمال المدينة توجد طابية في شكل مبنى ذي طابقين عرف بقصر راسخ أو السرايا الشرقية ، وهناك أيضا طابية بالمقرن وأخرى بامدوما . ونثر غوردون الأعمدة الخشبية ذات الرؤوس المدببة على بعد عشرين مترا خارج التحصينات ، ووضع العتبات النحاسية السريعة الانفجار حول جميع الطوابق كما وأن براميل المياه الفارغة قد ملئت بالديناميت ووضعت في النقاط الضعيفة من خط الدفاع ، ودرعت الألغام في جزيرة توتى وخور شمبات ومطقة الحلفاية .

بداية العمليات العسكرية :

كان غوردون بلا شك يتأهب لحوض معركة عسكرية ، ولا تشير الدلائل إلى أنه فكر في الانسحاب أو التسليم . وكان الانصراف في ذات الوقت

لا يقلون عن غوردون حماساً فيما يتعلق بالاستعداد الحربي . فقد وطد الشيخ لعبيد عزمه على تنفيذ توجيهات المهدي التي حو لها خطابه إليه ، فشرع أنصاره في لقاء حصار على لمدينة من جهة الشرق ، وقطعوا أسلاك التلغراف ، وبدأوا في إطلاق قذائفهم عن طاية قصر راسخ ، ثم تقدموا حتى وصلوا موقع الصبايى المتاخمة لمنطقة الحلفاية فتخوف غوردون من إحتلالهم لها ، فأرسل قوة من الشايقة في ١٣ مارس ١٨٨٤ للسيطرة عليها ، إلا أن أبراهيم لعبيد تصدى لهم مع أتباعه وأنزل بهم هزيمة ساحقة . فصار غوردون لإتقاذهم برسالة بخبرة محملة بالعتود تحت قيادة أبراهيم بك هوى . وبعد معركة حامت أكثر من ساعة انهزمت قوة غوردون وتمكن الأنصار من أسر مائة وخمسين من أفرادها وغنموا كثير من الأسلحة والخيرة (١) .

وبما أن لحلفاية كانت منطقة إستراتيجية بالنسبة للخصوم فقد عزم غوردون على إستردادها فأرسل قوة في ١٧ مارس ١٨٨٤ مؤلفة من أربع فرق من الجهادية والباشبورق . ثلاث منها تحت قيادة الصباط السودانيين اسمعيل باشا حسين ، وحسن باشا أبراهيم ، وشلالى ، ومولى بك سعيد لرباطي ، وعمدوا بوء الرابعة لميتو دغا تركي ، فعبرت هذه القوة النيل الأزرق واشتبكت مع الأنصار في موقع عرف بجليبقو . وقد حء وصف هذه المعركة في رسالة بعث بها الشيخ عبدود بدر سمهدى ، إلا أن هذه الرسالة ما زالت مجهولة المكان ولكن المهدي نقل محتوياتها في خطاب بعث به لمحمد خالد زقن يقول فيه : « وكذلك بيوم الأحد الموافق ١٨ جمادى أول ١٣٠١ هـ ساعة المضحى خرجت إليه حردة نسوى أربعة آلاف من قبقر قصر راسخ بالشرق ، فتقاتلوا مع المذكورين فهزموهم في أقل من نصف ساعة وقتل منهم أربعمئة نفر وامسلموا منهم مدفع وجبجينة أربعة جمال

(١) المهدي لى محمد خالد ٤ جمادى أول ١٣٠١ (٢ مارس ١٨٨٤) رتل ٢ هذه المصبرات - حصة لى حاشية الرسالة التي تحمل تاريخ ٨ جمادى ثاني (٦ أبريل) نعم شفيار حة - ١٨ جمادى ثاني ٤ ص ٧٧٦ .

والشهداء من لأوصال عشرون شهيدا » وقد كان بين المهدي مولى بك - أحد قادة الفرق الأربعة - وأخوه فضل الله .

استمرت بعد ذلك المناوشات بين الفريقين إلى أن وصل أول فرج من الجيوش التي بعث بها المهدي من الغرب بقيادة محمد عثمان أبو قرجة في مايو ١٨٨٤ .

وكان المهدي قد عين أبو قرجة أميرا على القوات المحاصرة للمدينة في وقت ما قبل ٣ مارس ١٨٨٤ . ورغم أن خطاب التعيين لم يظهر له أثر فيما بعد إلا أن المهدي ذكر في رسالة لمحمد خالد رقص أنه قد عين أبو قرجة « أميراً لقوات البحر » . كما أنه يشير لذات الأمر في خطاب بعث به لمحمد الطيب ود البصير .

تخوف المهدي من أن لا يقابل تعيين أبي قرجة أميرا للقوات المحاصرة بترحيب من ود البصير ، إذ كان هذا الأخير من أنسابه الذين شهرو السلاح في وجه الحكومة في مطلع أيام الدعوة . ولذا توقع المهدي أن يستاء من إسناد القيادة في منطقته بشخص غيره ، فبعث له المهدي برسالة يبرر فيها هذا التعيين ، وقد وضح أن بعض الأهالي ما زالوا يحفلون بحقيقة الدعوة ، فتباطأوا في الانضمام اليها . ولكي يتجنب المهدي استخدام القوة ضدهم أرسل أبو قرجة ليجادلهم بالي هي أحسن (١) وربما يتعذر لود البصير القيام بهذا الدور لأنه سبق أن اتسنت معهم في عدة مناوشات دموية ستقف بلا شك عائقا في سبيل إبرام تسوية سلمية . ويلاحظ أن المهدي سبق أن وجه رجال الشكرية وأتباع العبيد ود بدر بالعمل مع ود البصير . ولكن كلا الفريقين قد تردد في تنفيذ هذا التوجه . كما أن صلح ملك الذي أبدى استعداده للتسليم رفض أن يتم هذا عني يد ود البصير ، فآثر المهدي على ضوء هذه الوقائع أن بعث بتائد لا تربطه بأهالي المنطقة ضعائن أو أحقاد ، وكتب في ذات

(١) المهدي إلى محمد الطيب البصير يوم ٨ جمادى ثاني ١٣٠١ (٦ أبريل ١٨٨٤) فوارشات

الوقت لود البصير حتى لا يفقد وده وتعاونيه . ولم يأنه لشرح الموقف لقدته الآخرين أمثال العبيد ود بدر وعبدالقادر أبراهيم ، ربما لأن تاريخهم في المهديّة ما زال قصيرا . فقد ظل أولهما على احياد حتى أول عام ١٨٨٤ حتى تأكد له أن المهديّ منتصر بلا ريب فأعلن انولاء له ، أما الثاني فقد كان أكثر إيجابية ، فبنى على تأييده للحكومة ، وأقام بداخل الخرطوم حتى وصول غوردون . ولكن عندما اتضحت له حقيقة مشاعر الأهالي غادرها نهائيا إلى قرية الكلاكلة . لم يكن أي منهما . إذن ، في موقف يمكنه من استنكار عقد لود قيادة المنطقة لقائد عريق مثل أبي قرجة .

إصحب أبو قرجة أربع فرق من جنود كردفان بأسلحتهم البارية بالإضافة إلى دوى الأسلحة التمليدة المدين تزايد عددهم بوصوله إلى شواطئ النيل الأبيض خاصة في منطقة القطيعة حيث تقيم عشيرته . وما أن حظ رجاله بالقرب من الخرطوم حتى بعث برسالة غوردون يطلب منه التسليم (١) . ولقد كشف هذا التزاما بالمهيج الذي يتبعه المهدي في مثل هذه الظروف . فهو يستعد للحرب إلا أنه يحذر الطرف الآخر ويقدم له فرصة أخيرة لحل النزاع سلميا .

وعندما تجدهن غوردون النداء أبقر أبو قرجة أنه لا يصبر شيئا سوى الحرب ومن ثم شرع في وضع الترتيبات النهائية لمواجهة . وكان قد عسكر عند وصوله في منطقة الجريف ، إلا أن بعض أعوانه نصحوه بأن يرى قد تكون أكثر استراتيجية فارتحل إليها ، وكان أول من شيد الطوابي المضادة لحصون الخرطوم هناك . ثم وضع عليها المدافع وأقام الأبراج ، وما لبثت أن أصبحت مراكز غوردون هدفا لقد نف الانصار ، يطلقونها عليها من وراء تحصناتهم وهي في طريقها إلى سنار ، ومنذ ذلك الحين أخذت المناوشات العسكرية بين

(١) اسماعيل بن عبد القادر ص ٣٢١ ، هذه الرسالة مضمومة ولاها قد رسلت في حوالي يونيو ١٨٨٤ وربما أرفقها غوردون بالوثائق التي حينها استوردت إلى مصر في سبتمبر وتنافسها الايشي حتى وصلت إلى المهدي وأخفى أثرها .

القريتين تتحد صابعا أكثر عنها وإن افتصرت عن المعارك المحدودة الصاق، إذ
كان كل منهما في انتظار تعزيزات يأمل أن تأتي في القريب ولم يشأ بالتالي
أن يرمى بثقله في معركة غصيلة . كان غوردون يذل جهدا لاحتفظ بالمدينة
تحت سيطرته حتى تصه قوات من مصر . ويبدو أن تعليمات المهدي لأبي
قرجة كانت لقاء الحصار حول الخرطوم والانتظار خارج بواباته حتى تصل
نباعا جيوشه التي مركزت في الرهد .

فاقتصرت نشاط الأنصار على نصديهم لحدود غوردون متى ما طهروا
خارج الطواي والخنادق أو على ظهر البواحر، وشددوا في ذات الوقت
رغبتهم على دخول أي مود غذائية للخرطوم .

لم تشتعل البران في الجبهة الجنوبية شرقية وحدها بل قام فضلو أحمد
بالعاون مع عبد القادر أبراهيم بفتح جبهة في لزاوية الجنوبية الغربية . فشيدا
طاية في الصمة الشرقية لنيل لأبيض واستعانا بنسب من جهادية أبي فرحة في
إطلاق انفدائف الدرية التي كانت كثيرا ما تصيب أهدافها داخل أسوار
المدينة . لم يقف غوردون مكتوف الأيدي إزاء هذا الوضع بل بعث قوة من
رحاله بقيادة عبد القادر أفندي حسن وساني بك لإسكات مدافع الأنصار ،
ورغم تمكهم من هدم الطاية وتدمير سور الكلاكة التي كانت تتحصن
فيها القوات المهاجمة إلا أن الأنصار تجمعوا مرة أخرى وعادوا لاحتلال
مواقعهم . وفي ذلك الحين كانت أفوج من جيوش المهدي تشق طريقها ناعا
نحو الخرطوم، فرردت أنباء عن تقدم قوة بقيادة حميد عبد الله الدقلاوي،
ريبدو أن هؤلاء هم الرجال الذين إستمرهم أبو قرجة من القطة وهو في
طريقه إلى الخرطوم . وفي ٤ يوليو قاد ساني بك فرقة للاستبلاء معهم ووقف
تقدمهم، ولكن الأنصار انقضوا عليها في هجوم عيف أبادوا فيه لفرقة وقتلوا
قائدها . ومن ثم واصل الفوج سربه حتى استقر في قرية الكلاكة . فسارع
غوردون بعد خمسة أيام بإرسال فرقة أخرى بقيادة سيد أفندي أمين، ورغم

أن الانتصار قد فقدوا في هذه المعركة ما يقارب الألف قتيل إلا أن قوة غوردون فشلت في إرغامهم على إخلاء الموقع .

بقي غوردون في انتظار الفيضان حتى يتمكن من إستخدام بواخره في المعركة المرتقبة ضد أبي فرجة . وفي ١٨ رمضان ١٣٠١ هـ (٢٧ يوليو ١٨٨٤) شن أول هجوم له على معسكر الأنصار في بري . فبعث بقائده محمد علي باشا على رأس قوة من الجهادية مدفوعة على ظهر ابواخر وادخل نخشم موسى بك على رأس قوة من الباشبوزق . فنجحت هذه الحملة في إزاء الخزيمة بالأنصار واستولت على ١٦٠٠ بندقية وبعض الحرب والسيوف . ومن ثم تراجعت قوات أبي فرجة إلى معسكرها الرئيسي في لحريف . ولكن غوردون لم يمهلهم بل تعقبهم إلى هناك . ودارت معركة في ٤ شوال ١٣٠١ هـ (٢٢ أغسطس ١٨٨٤) إنهزم فيها أبو فرجة وفقد أخويه نصر ومصطفى . وأجبر الأنصار على إخلاء معسكرهم وتراجع إلى قرية ودجار التي جنوبى المحروم ، كان وقع هذه الخزيمة شديدة على الأنصار ، إذ كانت بالفعل ثانی هزيمة كبرى تلحق بهم بعد الهجوم الفشل على الانص . وبما أنها كانت هزيمة لأحد كبار قادة المهدي فقد أرسل خصم لأبي فرجة يواسيه . جاء فيه : « ولا تنس ما حصل فإن الله تعالى أراد أن يميز الخبيث من الطيب » .

فمازل غوردون بعد هذا الإنتصار فبعث محمد علي باشا وفرج الله بك على ٧ شوال ١٣٠٢ هـ (١٥ أغسطس ١٨٨٤) لاستعادة منطقة الحنفية حيث نجح هذان فعلا في إجبار أولاد الشيخ العبيد ود بدر على إخلاء المنطقة ، وأحسن سكان المدينة لأول مرة منذ مدة أن حدة الحصار قد خفت كثيرا ، وغرت الإنتصارات الأخيرة - التي أحورها الحمود - غوردون ليحاول القضاء نهائيا على تجمعات الأنصار في المنطقة . وكان الشيخ العبيد قد أصدر مشورا لرجال القبائل يدعوهم فيه لتجتمع في العيلقون . فاستجاب له ١٠ ألف رجل ، كما استنفر الشيخ مضوى ٥ آلاف محارب ، فحاول هؤلاء إقامة معسكرات لهم على شاطئ النيل الأزرق حتى يتمكنوا من مثل حركة بواخر

غوردون أثناء قيامها بدوريات استطلاعية، أو في رحلاتها إلى ستر، وما أن
أيقن غوردون من غرض الأنصار حتى بعث محمد على باشا في ٢١ شوال
١٣٠٢ هـ (٢٩ أغسطس ١٨٨٤) على رأس قوة مختلطة من الجهادية،
واسشوبزق، وكان هدفها انقضاء عن الأنصار قبل احتلالهم لأي مواقع
يهددون منها سير الملاحة، ولعبت الواخر دوراً رئيسياً في انزال الهزيمة
لأنصار واستولت القوة على كميات من المؤن الغذائية.

وربما لهذا السبب تعقبهم محمد على باشا حتى بوقت قومه دخن غابة
أم ضبان، ولكن بجهل محمد على وقواته بالمسالك أدى إلى تعرضهم لثيران
الأنصار المتخفية. فكانت ضربة قاضية، فقد فيها غوردون محمد على باشا
و ١٦٠٠ من خيرة جنوده الذين ينتمون للألأى السوداني لأول

أسطول الخرطوم :

كان الأسطول النهري الصغير الموجود بالمسبة دعامة من الدعائم التي
ارتكز عليها غوردون في دفاعه. فبالإضافة إلى لاستعدة من تلك المراكب
في وظيفتها البسيطة كوسيلة لنقل المؤن الغذائية والمكاثبات من العاصمة وإليها،
فقد أثنت السفن النهرية فعالية شديدة في التصدي لحجمات الأنصار من جهات
الليل الأبيض والأزرق. كما أنها استعملت للقيام بحملات تفتيشية منتظمة على
الشواطئ لمراقبة تحركات الأنصار وما يندب من نشاط في معسكراتهم. (١)

كان لبواخر الأسطول تاريخ بدأ في عهد محمد سعيد باشا حين
وصلت إلى الخرطوم أربع سفن هي «الفاشر» و «المسلمة» و «النوفقيه»
و «نمرة تسعة» (٢) وقد وصل فوج آخر من السفن عندما أوكلت لصموئيل
بيكر قيادة حملة للمديرية الإستوائية، وضم هذا الفوج كلا من «تل الحوين»
و «البوردين» و «لصافية» و «المصورة» و «شبين» و «امبابة»

(١) Datsun, "The Campaign of Gordon's Steamers" *The Royal Engineers Journal*, 21st October 1888, p. 8.

(٢) Hill, *Sudan Transport*, pp. 3-5.

و « الإسماعيلية » و « الخديوي » و « فيانزو » و عهد محيى غوردون إلى السودان في عام ١٨٧٧ صلب باخرتين إضافيتين هما « العباس » و « محمد علي » إلا أن تجهيزهما للعمل لم يتم إلا في عهد رؤوف باشا ١٨٨١ - . وقد تم أثناء حصار الخرطوم تركيب باخرتين هما « الحسينية » و « الزبير » فاعدت الأولى للاستعمال في أكتوبر ١٨٨٤ والثانية في ٢٧ نوفمبر ١٨٨٤ (١) . إلا أن غوردون لم يتمكن بسبب احترق من الإحتياط بكل المجموعة تحت تصرفه طوال مدة الحصار . ففقد أولا « المسلمية » و « المباشر » التي استولى عليها الأنصار في بربر . ثم فقد « محمد علي » في قدسي وقد استعملها محمد عثمان أبو قرجة فيما بعد في نقل الذرة من قرى شراطيء النيل الأزرق إلى معسكره جنوب الخرطوم .

كما أن « العباس » التي حملت ستيورت وقادته إلى مصر في سبتمبر قد تحطمت على صخرة في قرية ده بين مروي وأبي حمد . ورأى غوردون تعطيل « سيرة سبعة » و استعمال أحرائها في إصلاح بقية البواخر ، وحطمت قوات الأنصار « الحسينية » بعد فترة وجيزة من إنزالها للماء بالقرب من المقرن . تبقى لغوردون بعد ذلك اسطول يتكون من « التوفيقية » و « الحزين » و « الصافية » ، و « المنصورة » ، و « لورد دين » ، و « الإسماعيلية » .

كانت تلك بواخر صغيرة الحجم ولم تكن أساسا تستخدم في أغراض عسكرية . إلا أن غوردون استطاع أن يدخل عليها من التعديلات ما جعلها قادرة على القيام بمهام حربية ناجحة . فكان أن ثبت قطعا خشبية صميكة على جانبي كل دخرة من الخارج ، وقطعا حديدية من الداخل . وبلغ كلا منها بمدفع جيبى وضع في المقدمة ، وآخر في المنتصف ، مع مجموعة تتكون من خمسين جنديا مرودين بكمية من النخيرة واثون الفذنية .

و استخدم غوردون البواخر في نقل المكائبات بين الخرطوم وبربر حينما قام الأنصار بقطع الخط التلغرافي . فكان أن بعث في أيام الحصار

Hill, "Gordon's Steamers".

يوسى بك شرفى لبأتى بالبريد من بربر على ظهر الباخرة « العاص » وتحت
حراسة سفيتين ، وظلت هذه وسبكه فى نقل الرسائل إلى القاهرة حول مدة
الحصار ، إذ بات يبعث بها إلى بربر بواسطة إحدى بوأخره ، ويحملها
الجواسيس من هناك إلى دقلا .

كان دور البوأخر فى القيام بمراقبة تحركات الأنصار كبيرا ، فم
أن تقاصرت الأنباء عن تقدم قوة للأنصار من جهة نقطية حتى أصدر
غوردون أوامره لساتى بك ليقوم بحملة على ظهر الباخرة « المصورة » ذات
هدف مزدوج ، إذ عليها أولا تقدير قوة الأنصار وموقعهم ، ثم الاشتباك
معهم . وقد أدى سائى بك هذه المهمة بنجاح ، فأعقبها غوردون بأخرى
على ظهر « تل الحوين » و « البوردين » واستمرت هذه الحملات إلى أن
نمت هزيمة أبى قرحة ، وتراجع إلى أنجريف ، فداوم غوردون بعد ذلك على
على إرسال باخرة لتسكشف تحركات الأنصار وتهاجم أى فئة منهم تحاول
الوصول إلى نوى أو المنطقة التى تحاولها .

تمركزت فئدة الأسطول بأسرجه الأولى فى قدرته على صد هجمات
الأنصار المتتالية على المدينة . فما أن بسمع غوردون عن هجمات لهم خارج
الأسوار حتى يبعث بجند على ظهر البوأخر للتصدى لهم وإجبارهم على
التراجع . إلا أن الأنصار سريعا ما قطعوا إلى الدور الذى يقوم به لاسطول ،
فشيدوا طائية فى شجرة محو بك ، ودأبوا من هناك على ضرب البوأخر أثناء
قيامهم بالحملات التفقدية . فأرسل غوردون سائى بك على رأس مجموعة
من الجند على ظهر كن من « البوردين » و « المصورة » و « الإسماعيلية »
فكان أن أنزل سائى بك نصف مجموعته إلى الشاطئ ، واحتفظ بالنصف
الآخر فى البوأخر ليقوم بحماية المهاجمين عند تراجعهم وقد نجحت
هذه الحملة فى تدمير الطائية والإستيلاء على المسفع الذى كان فيها .

ورغم النشاط المتعدد الجوانب الذى كانت تقوم به البوأخر ، إلا أن

صغر حجمها كان يشكل نقطة ضعفها الأساسية . فعمر غوردون الاستفادة من المركب الشراعية وتقويتها بقطع من الخشب السميك وتسييحها بالمداقع ، فكور من حراء هذا أن ارتفع العدد الذي يمكن أن تحمله الباخرة إلى حوالي المائتين جنديا .

وقد تمكن بعد هذا من إبعاد ثمانمائة من الحوود الضاميين و باشبورق على ظهر كل من « البوردين » و « تل الحوين » و « المنصورة » و « العباس » لمهاجمة قوات أبي قرجة في معسكرها ببرى . وقد أدت الحملة مهمتها بنجاح ، بل أن هذه العملية تعد من أنجح العمليات التي قامت بها قوات الحكومة على الإطلاق . إذ طبقت في الهجوم نخبة إزال قوات لنهاجم ، وأخرى لتبقى في البواخر لترسل لقذائفها نحو الأنصار ونحامي في ذات الوقت حط ترجع لقوت لبرية ، فأجبرت أنصار أبي قرجة على إخلاء المعسكر والتراجع حوالى ١٠٠٠ متر جنوب لخرطوم ، كما تمكنت من الاستيلاء على كميات وافرة من المواد الغذائية . وقد أثبت أسلوب يشارك البواخر مع المشاة في الهجوم فعاليتها ، فكان أن اشتركت كل من « المنصورة » و « تل الحوين » و « الصفيه » محميه بثمانمائة جندي في معركة العيلتون التي هزم فيها محمد عى باش أنصار لشيخ العيد وأجبرهم على التقهقر إلى قرية أم صنان .

ومن ثم يمكن القول إن العمليات الناجحة التي حققها غوردون أثناء الحصار كانت في حملتها تلك التي ساهمت فيها لبواخر بمفردها أو بمساعدة قوات لبرية .

كذلك استعملت السفن في حملات إمداد المدينة بالأغذية من سنر والقرى المجاورة ، فأرسل غوردون أولا محمد عى باشا عى صهرست لبواخر إلى أبي حرار لجمع ما يجده فيها من مؤن .

وقد واصلت إثنان من البواخر رحبتهما إلى سنر تحت قيادة بخيت بك بطراسكى وقد عاد قائدا الحملتين بكميات من الفرة والمواد الأخرى ،

ولعل نجاح هاتين الحملتين قد شجع غوردون ليعث نصحي باشا بعد أربعة أسابيع سنار مع مائتين من الجنود على ظهر «البوردين» «وتل الحوين» وقد عادت محملتين بحصيلة من الذرة تعتبر أكبر ما أدخل بمدينة حول فترة الحصار .

إلا أن ذلك النشاط القليل قد نقص كثيرًا عندما قرر غوردون التحلي عن بعض قطع أسطوله . ففي ١٢ سبتمبر ١٨٨٤ تخلى عن الباخرة «العباس» فرحلت وعلى ظهرها ستورت باشا وقاصيل إنجلترا وفرنسا وألمانيا وبعض التجار الراغبين في العودة إلى مصر . كما رحلت «المنصورة» و «الصفافية» مع هذه القافلة لتأمين خط سيرها حتى تتعدى منطقة الخطر عند مشرف بربر . ورغم أن هاتين البخرتين عادتتا إلى الخرطوم مرة أخرى في العشرين من نفس الشهر ، إلا أن مهمة أخرى خارج نطاق الحصار كانت معلقة عليهما ، إذ قرر غوردون أن يبعث بهما لانتظر حملة الإنقاذ في شندي مع باخرة أخرى هي «تل الحوين» فعادت هذه المجموعة الخرطوم في ٣٠ سبتمبر ، وأرسل فيما بعد «التوفيقية» وهي تحمل البريد، وأمر بصحي باشا الذي عقد له لواء قيادة أسطول انتمة بالإحتفاظ بها ورسالة تل الحوين بدلا عنها إلى الخرطوم .

وعند وصول هذه ، بعث بها مرة أخرى مع «البوردين» ومع تعليمات لخشم اموسي بث بالبقاء في شندي على ظهر «المنصورة» في حين يتوجه بصحي باشا في «التوفيقية» و «تل الحوين» و «الصفافية» إلى المنمة وتعود «البوردين» مرة أخرى إلى الخرطوم .

ومما لا شك فيه أن غوردون ارتكب خطأ بإبقائه تلك السفن لا تشارك حملة الإنقاذ هذه خمسة أشهر في شندي دون أن تقوم بأي عمل من شأنه أن يساعد في تخفيف حدة الحصار المضروب حول المدينة . بل أن هذه البواخر كانت معطلة تماما طوال مدة بقائها هناك ، إذ أن غوردون قد أمر

العبد بعدم المبادرة بالهجوم خوفا من أن نقضى عليهم قوات الأنصار التي تفوق عليهم عدديا ، وكان من الممكن أن تواصل تلك البواخر نشاطها في الدفاع عن المدينة خاصة وأن الخرطوم كانت نمر بأخرج فرائها ، إذ شهد شهر سبتمبر و صوب تجمعت إصافية للأنصار ، وتضاعفت الإشتباكات بصور لم يسبق لها مثيل .

عجز غوردون بعد ذلك لتاريخ عن التصدي لتعالن لقوات المهدي ، ناهيك عن مبادرتها بالهجوم ، إلى درجة أنه اضطر لإخلاء حلفاوية . ولم يتمكن أيضا من إيفاد أى حملات لسيار لتحصون على مواد غذائية ، إذ كانت آخرها تلك التي قام بها نصحي باشا بنهاية سبتمبر .

لم ندم فترة الهدوء الذي أعقب تراجع قوات أبي فرجة طويلا . فسرعان ما استدعى المهدي قائله عبد الرحمن النجومي من جبل الداور ليقود حملة إلى الخرطوم في ١٨ شعبان ١٣٠١ - (١٣ يونيو ١٨٨٤) (١) وغادر النجومي الوحد في غرة شعبان ١٣٠١ هـ (٢ يونيو ١٨٨٤) على رأس جيش يقارب الستين ألفا ، وقد اجتمعت معه قوات عبد الله ود نور التي قدرت بالعشرين ألفا (٢) . تسلحت غالبية المحاربين بالحرب والسيوف ، إلا أنه كانت هناك قوة من الجهادية تبلغ عشرة آلاف رجل مسلحين بالبنادق ، بالإضافة إلى قوة مماثلة من لحيلة . وكانت معهم أيضا أربع مدافع جبلية ، وأربع مدافع كروب ، وصاروخ واحد ، وسار مع هذه القوة مجموعة من الأمراء ، بينهم حسن النجومي ، وعبد القادر ود مدرع - شيخ قبيلة الحسانات ، وعبد الله سالم بن حاج عبد الله .

(١) المهدي إلى عبد الرحمن النجومي وسعدان أبو عحة وموسى الخلو فيوضات ج ٣/ ١٩٣
(٢) عبد الله ود نور من قبيلة التركيين ، أعلن انضمامه للمهدي في أولي من حين الدعوة . شارك في حصار عدة مواقع في كردوس بما فيها باردة والذيبور ، قتر في إحدى معارك حصار الخرطوم قبل حوالي شهرين من سقوط المدينة فعين برهيم أبر بكر مكانه . رأبو سليم مسمومات عن تاريخ مدينة الخرطوم .

وما أن وصل الهجوم إلى صواحي الخرطوم حتى شرع في توزيع المنشورات على الأهلى يحثهم فيها على القيام لمساندة لقوات المحاصرة فاجتمعت فيه أعداد هائلة .

عسكر الهجومى مع جزء من قواته فى قرية القوز ليقابل طابية الكلاكلة حيث يوجد أكبر قدر من الجند والعدة والعتاد الحرسى . وقد وجه لشيخ عبد القادر أبراهيم لإقامة معسكره فى منطقة تواجه طابية المسلمية فى حين تمركزت قوات عبد الله ود الور وعبد الحليم مساعد فى منطقة برى المعروفة بحساسيتها ، إذ منها يمكن السيطرة على الملاحة فى النيل الأزرق وشل حركة بوخر غوردون فى ذلك الاتجاه .

وكان المهدي يزود قذاته بتعليمات من الرهد ، فبعث بوجه شيخ فضلو ود أحمد الذى كان مقيما فى شجرة محبوبث لينضم مع عبد الله ود حباره إلى لشيخ العبد ود بسدر لتعزيز الجهة الشرقية ، إذ أنها تمثل المدخل الرئيسى لأية قوات قادمة من الخارج . وهذا السبب بعث هم فيما بعد بقوة إضافية بقيادة أبى بكر ود عامر .

خرن الهجومى المواد انغلائية فى الجريف تحت حراسة حاج خالد لعمراوى ، ثم شيد حامية وضع عليها كلا من شريف سليمان لعبد ، وأحمد البيل حمد . وعمر الحليفة محمد سور الذهب ، فجعلوا رجالهم فى حالة تأهب لإرسال أية نجدة قد تطلبها برى .

وشيد الهجومى أيضا جملة طوابى فى مقابل طوابى الخرطوم حتى يتمكن أنصاره من إرسال قذائفهم عند ظهور أى من رجال لحامية خارج بواباتهم . وداوم المهدي على إرسال أفواج من المحاربين بعصبة منتظمة ، كما بهم من إحدى رسائله . وفيها يشير على الهجومى بتوزيع القوات الموفدة على طول خط النار مع وضع كل راية فى موقع إستراتيجى (١) وعند مقتل

(١) المهدي إلى عبد الرحمن الهجومى ٨ ربيع أو ١٢٠٢ (٢٦ ديسمبر ١٨٨٤) فيوضات ١٧٨/٥ .

عبد الله ود النور إنتقل النجومى إلى معسكر برى بناء على تعليمات المهدي
فى حين حل أبو قرجة مكانه فى مقبل طيبة الكلاكلة .

المرحلة الختامية للحصار :

وبوصول فوج المهدي إلى مشارف المدينة فى ٢٣ أكتوبر ١٨٨٤ وصل
موقف الحصار إلى ذروته المتوقعة ، فقد بدأت المسيرة من الرهد فى
٢٢ أغسطس . ولعن ضخامة حجمها قد اضطرها إلى اتخاذ ثلاثة طرق منفصلة
إلى الخرطوم ، فصار المهدي والخلفاء فى صريق الطيارة ، شركيله ، شات ،
السويم ، واتخذ رعاة الإبل الطريق الشمالى مروراً بخور سو ، هلبة ، والفرعة
انخضراء ، أما الطريق الجنوبى فكان يامسب البقارة سبة لوفرة المياه على طول
إمتداده . ووصف أحد شهود العيان هذه المسيرة بقوله « بحال قيام المهدي
من الرهد إلى الخرطوم بالحبوش الجرداء التى ليس لها نظير قامت الدنيا
بأثرها وتوجهنا مسافرين كأننا قرعة على البحر لا نعرف أولنا من آخرنا » .

وقد رت القوات التى جاءت فى ركاب المهدي بحوالى ٢٠٠٠ ٢٠٠
شخص ، وقد شملت هذه بالاضافة إلى المحاربين كثيرا من زعماء القبائل
الذين سارعوا باعلان الولاء للمهدي قبل مغادرة الرهد ، وانضموا اليه مع
عائلاتهم ، ولعل الهدف من النزول فى القرى التى تقع على طول الطريق
لم يكن للاستجمام وحده ، بل حذب أعداد إضافية من الأهالى لتسير فى معية
المهدي إلى الخرطوم .

ومن الطريق بعث المهدي برسالة إلى قواته المحاصرة للمدينة يدعوهم
إلى تشديد قبضتهم عليها وبعث لهم أن إمامهم قد أصبح وشيك الوقوع ،
كن الموقف فى المنطقة يهدد بالانفجار ، إذ أن الاتجاه العام لكل فريق قد تحدد
بصفة نهائية ، ولم يكن أى منهما يقبل التنازل عنه قيد أنملة . وكشفت الرسائل
المتبادلة أن فريق المهدي لا يقل حلا سوى التسليم المطلق ، وإلا فلا مناص من
الحرب . فكتب الشيخ عبد القادر إبراهيم : ... ان ذات الإمام الشريف

حضرت بثات ومعه من الجيوش ما لا يحصى عدداً وعن قريب حضر
بجيوشه لئلا فوجب علينا إعلامكم بذلك فلعل وعسى أن تقبلوا وتركو
كلام المفسدين وتسلموا أمركم لهذا الإمام عليه السلام لأنه لا شك أنه هو
المهدي المنتظر عليه السلام، وأن جميع الدول يصير هلاكها على يده، ولأنه
مؤيد ومنصور بقسرة الله .. وهذا ما نصحناكم به إن أراد الله لكم ولأهل
البلد قبوله، وأعلموا يا سعادة الغوردون إننا نخاضنا حصرة الإمام المهدي في
حقكم ووردت بفادته بما يوجب سروركم وتأمينكم إن حصل منكم له
الانقياد أو التسليم (١) .

ويكرر الشيخ عبد القادر ذات الدعوة في خطاب آخر ويطلب من
غوردون إعتد هذه الفرصة لتأمين سلامته وسلامة المسلمين، وإلا فإن الأنصار
إن يترددوا بعد ذلك في اقتحام أسوار المدينة « فهم في غاية التصميم وقوة
العزم وكل منهم يغزو ويروح راضياً بالموت » (٢) . إلا أن غوردون كشف
في رده على الشيخ عبد القادر أنه لن يسلم لهم، بل هو على استعداد لمواجهة
عسكرياً، إذ يقول « زيادة على ما قوينا به استحكام الخرطوم من انغام وسلوك
إننا شارعين في أعصاب دنزلة أرضية بواسطة الأجرء الكهريائية » (٣) .

وبعث عبد الرحمن النجومي أيضاً خطاباً لغوردون يكرر فيه ما ورد في
خطاب الشيخ عبد القادر ويقول « فإن اتعت وسلمت الأمر لله ورسوله فزت
بأجرك وأجر جميع من معك » (٤) فبجاء رد غوردون ليقنعهم بـ « لا مجال
لحل القضية سدنياً، فهو لن يعترف بالمهدي، ولن يستسلم له. فأيقن النجومي
عندئذ أنه لم يعد هناك طريق سوى الحرب، ومن ثم بدأ يدعو غوردون إليها
بقوله « وأعلم أن المهدي عليه السلام ما قدمنا إلا لمحاربته ومدافعتك وتوطئة

(١) عبد القادر إبراهيم إلى غوردون بتاريخ ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق أ.

(٢) عبد القادر إبراهيم إلى غوردون بتاريخ ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ب.

(٣) غوردون إلى عبد القادر إبراهيم ٣٠ ذو القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ب.

(٤) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور إلى غوردون بتاريخ ٢١ ذو القعدة ١٣٠١

(١٣ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج .

لجيشه ولسيادته . وما دام أنت والى من دونتين عظيم كما ذكرت وحصرت
لنسوية أحوال السودان فلا تجد فرصة لهجج قصصك وما مولك الا فى هذين
اليومين قبل حضور الجيش وإستكماله فإليك ان تأخرت أنت ومن معك
بداخل القفرة الى أن تم وصول الجيوش وحل الركاب الشريف بهذا الطرف
وأنتم تحت انتظار لا تكليز فقد حاب قصدكم وأمنكم فالأولى أن تجمع
كافة حزبك ورجالك وتخرج لمقابلتنا ومقاتلتنا خارج لإستحكامه » (١) .

وبالاحظ أن غوردون دعم رفضه المبدئى للتسلم ما ال بتحت
المعارك الواسعة النطاق التى يمكن أن تنزل ضربة قاضية بقوته . فهو يريد
أن يصمد أطول وقت حتى يصل حمة الإنقاذ . ولا بأس فى هذا الاثناء من
بذل محاولة أخيره عليها نصح فى إقناع قادة الأنصار بنبذ أمر القتال . فعرض
على النجومى وأبو فرجة فكرة «لا عراف» هما سبطانين على الغرب اذا ما عادت
الأمور الى ما كانت عليه قبل الثورة (٢) ، لا أب هذه المصعب لم تغر الأميران
فقابلا عرض غوردون باستحقاق ظهر . ثم جئمت آخر رسائلهم القضية .
فلا دعوة لتسليم بعد ذلك ولا قبول ما « فيبعد هذا لم يكن بيننا وبينكم مكانه
أو مخاطبة إلا الحرب » (٣) .

وقد عكست مكاتبات المهدي التى بعث بها لغوردون نفس الاتجاه
الذى حملته رسائل فادته . وإما لتسليم أو الحرب ، فى حين أكد غوردون
رفضه للحل الأول وصراره على الصمود ، والبقاء من بعد للأقوى .

ونقد كتب المهدي فى أول رسالة بعث بها لغوردون بعد وصوله
لمشرع التميمه بالقرب من أم درمان قائلا « فإن انبت إلى الله تعالى وأسلمت

(١) عبد الرحمن النجومى وعبد الله النور إلى غوردون باشا ٢ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د .

(٢) غوردون إلى شيخ عبد الرحمن النجومى ، ٢ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د .

(٣) عبد الرحمن النجومى وعبد الله النور إلى غوردون ٢ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ه .

وسمعت الأمر لله ورسوله وصدقتم بمهديتنا أرسل محاطبة ملك ومن معك جميعا اليانا بعد وصح السلاح وروع لمحاربة لمرسل لكم من يؤمكم ، وإن لم تفعلوا ذلك فأذنوا لخرب من لله ورسوله » (١) ثم كرر المهدي هذا النداء في كل خطباته التي نعت بها من ديم أبى سعد طوال الثلاثة أشهر التي سبقت مهاجمته لمدينة . ويبدو أن المهدي كان يأمل أن تنشر هذه الخطابات وتتم له السيطرة على الخوصوم دون العجز إلى الحرب ، إذ كان يعتقد ألا فائدة من الاقتتال اذا كان بالامكان اتباع طريق الحق سميما (٢) .

ثم كتب المهدي رسالة لأهالي الخراطوم يبدو أنها الأخيرة ، عرض عليهم ، غتنام هذه الفرصة للنجاة بذرواسهم ، ويلومهم على انتظار النجدة من الإنكليز . فقال « نعرفكم أن الله تعالى غنى عن العباد يهدي من يشاء إلى طريق الرشاد ويضل من يشاء ، ومن يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا وقد طال ما تكررت منا للنصائح وأردنا بجاهة عباد لله ورسوله لطريق الله فاذب الله من أراد الله سعده وحالف من خذله الله فاصمه وأعشى بصره فلا أدري ما الداعي إلى عدم الانقياد أو لله شركاء يستشيرهم فيمن يكون مهديا أم له منارح في إرادته كلا بن هو القادر الفاعل لما يشاء فيجب على كل ذي بصيرة الوقوف معه على حد الأدب ومن المعلوم أنى عند دال إلى الله ، فمن تبعني فقد حاز السعادة الكبرى ، ومن خافني سيقفه الله عذاب الخرى .. وقد طالما ذكرتكم بالله ورغبتمكم فيما عنده وحذرتكم من وعيده فإلى متى الغفلة والتسوية وإلى متى مبرزة مولاكم بالعبادة . ألم يأت لكم أن تميل قلوبكم إلى ما ينفعكم في آخرتكم ويجب لكم الحبر ويصرف عنكم لشر والضير ، أو توغبون الجسدة والخرج عند الإنكليز وتصرفون نظركم عن خالقكم الذي بيده أموركم وقومكم وهو أقوى

(١) المهدي إلى غوردون ٢ محرم ١٣٠٢ (٢٢ أكتوبر ١٨٨٤) ملحق ٥

(٢) المهدي إلى محمد الطيب البشير بعد ٤ جمادى الأولى ١٣٠١ (٣ مارس ١٨٨٤) . فيوضات

لعزيز فما الانكليز وغيرهم أضعاف مضاعفة بشيء في حجب قدرة الله التي يعجز عن وصف كمها كل لبيب ونجيب . وما القوت الا من عند الله القريب المجيب : (١) .

يقل أحيانا إن المهدي لم يبدأ في مخاضة عوردون عند وصوله إلى مشرع القيعه إلا بعد نهاية محرم (١٩ نوفمبر) ذلك لأنه كان يتجنب الحرب في ذلك الشهر . ويصور هنا القول المهدي كأنما كان يسعى إلى الحرب ويبادر بالعنف . إلا أن الوثائق ثبت غير هذا . فرغم أن المهدي قد أعلن صراحة إسعادده لخصوص غمار الحرب إلا أنه بذل جهدا كبيرا ليغري عوردون بالتسليم ، وكانت استجابة الأخير لرفض التصريح . ومن ثم فلم يعد خافيا على أحد بعد ذلك أن الحرب هي السبيل الوحيد

وضع عوردون الفرقة المصرية لأولى المكوبة من ثلاثمائة وعشرين جنديا تحت قيادة يوسف أفندي عفت في أول حط الدفاع من الجهة الغربية . ومن هذه عشر فرق من الباشبوزق الشايقية والمتطوعين تحت قيادة عثمان بك حشمت . ثم الفرقة المصرية الثانية بقيادة فرج بك علي وأبراهيم بك صالح . وكانت تسيطر على المنطقة الممتدة حتى بوابة الكلاكلة . وقد وضع هذا الجزء من حط الدفاع تحت قيادة حسن بك هسوي . وإلى الشرق من بوابة الكلاكلة وضع عوردون ثلاث فرق من الباشبوزق الأتراك والشايقية . ثم الفرقة السودانية الأولى تحت قيادة علي أفندي صقر . ثم تسع فرق أخرى من الباشبوزق بقيادة سرور بك بخيت . وإلى هؤلاء الفرقة السودانية الثانية بقيادة محمد أفندي عثمان ، ثم فرقان من الباشبوزق ، والفرقة السودانية الثالثة بقيادة أحمد أفندي السوكي . وقد كان هذا الجزء تحت قيادة بخيت بك بطراكي .

وانتد عوردون جملة احتياطات دوعية في أقصى الجزء الغربي من خط انذار ذلك لأن انخفاض النيل قد أدى إلى ظهور جزيرة صغيرة بين طابية

(١) المهدي إلى كتبة أهل الخرطوم . إشارات ب ص ٢٢٥ - ٦ .

لمقرن وأم درمان . ولم تغب عن ذهن غوردون إمكانية إحطال تلك الجزيرة بواسطة الأنصار ، فبعث لثوه بمائة جندي لحرسها . إلا أن استمرار إنخفاض النيل أدى إلى إتساع تلك الرقعة حتى بلغ طولها حوالي ١٥٠٠ متراً فشرع الجند في حفر الخنادق وتشييد لأسوار حتى تمكنوا من تغطيه حوالي ١٠٠٠ متر . ويبدو أن حالة الإرهاق التي وقع فيها جند لم تمكنهم من إتمام الخمسمائة متر المتبقية . فظل ذلك الجزء ثغرة في خط الدفاع . ولقد دهور الموقف من الناحية الشمالية أيضاً ، إذ أن غوردون اضطر لإخلاء الحملات عند إرساله بواخر إلى شدي فما كان من الشيخ العبيد إلا أن تقدم لإحلالها وبدلاً أنصاره يرسلون فدائهم بصورة منتظمة على المدينة .

صق المهدي حال وصوله خطته نهائية في توزيع قواه حول المدينة . فعسكر محمد عثمان أبي فرجة في الجنوب الغربي بمحاذاة النيل الأبيض ، في حين حاصر فضل لمولى بك طابية أم درمان ، وعسكر حمدان أبو عنجة بين الطابية والنهر ، وأرسل غوردون ثلاث بواخر لتصد هجوم أبي عنجة عن طابية أم درمان حيث نشبت معركة بين الفريقين كان تفوق الأنصار فيها عددياً هو السبب المباشر في انهيار الهزيمة بقوة الحكومة ، فأغرقوا إحدى السفن وهي «الحسينية» ، قرب جزيرة شيخ أبو زيد ، وجمعت الاثنتان في الرجوع إلى الخرطوم تحت وابل من الرصاص ، استمر لراشق بالنيران حتى تم تسليم حامية أم درمان ، فكان لهذا أثر مباشر على موقف الخرطوم ، إذ اجتمعت قوات المهدي بأسرها حول المدينة ، وظلت ترسل فوائدها ليلاً ونهاراً على الجند والباخرة على حد سواء ورغم هذا صمدت للخرطوم قرابة الثلاثة أسابيع ويبدو أن الأنباء التي وصلت إلى المهدي عن قرب وصول حملة لإتقاذ جعته يجعل بالهجوم . كما وضح ، من ناحية أخرى ، أن لا أمل البتة في السيطرة على المدينة سلمياً . ولكن هذه القوة الآتية من الخارج ربما تدعم حامية الخرطوم لدرجة لا تمكن الأنصار من إحراز النصر السريع الذي توقعوه . فمن الأفضل إذن شن هجوم شامل قبل وصولها . وتمكن المهدي من

للإمام بعد صبيح نقطة دفاع غوردون من بعض الجود الماربن ، فسم أن لقوات النظامية تقوم بحماية النقاط القوية ، في حين تركت الثغرات تحت حراسة الأهال والضعفاء . ولهذا فقد بدأ الهجوم في صبيحة الاثنين ٩ ربيع ثنى ١٣٠٢ هـ (٢٦ يناير ١٨٨٥) بالتر كيز على أكثر المناطق ضعفا ، تلك التي في أقصى الغرب ، وسرعان ما هوجىء رجال حامية الخرطوم بالأنصار وهم يضربونهم من الخلف . فلم تكن هناك مقاومة تذكر بل ، أن أغلبهم وضع السلاح دون أن يطلق قذيفة . لم يكن بإمكان رجال الحكومة أن يردوا هجوما يشنه ما يفارب المائة ألف محارب ، بالإضافة إلى هذا فقد أوقدهم الارهاق الجسدى الذى تعرضوا له من جراء المعاناة التي حلت المدينة كل لياقة تمكهم من خوض معركة متكافئة .

أما حملة الإنقاذ فقد كان تاريخ وصولها إلى القبة يوم ٢٠ يناير . ولعل ذاك القول الذى يردده بعض المؤرخين بأن الحملة لو سارعت طلائعها إلى الخرطوم يوم وصولها القبة لتمكنت من تغيير محرى التاريخ هو مجرد تصور . فماذا كان يمكن أن تفعل حفنة من الجند على ظهر « لبوردين » و « نى الحوين » أمام تلك الجحافل ؟ . ولعل القول بأن وصول المطلاع كان سيضع رجال الحامية إلى الصمود لأنه يشير بقرب وصول حملة الإنقاذ هو الآخر بعيد عن الواقع ، إذ أن رجال الحامية كانوا في حاجة إلى من يحارب فى صفوفهم لا إى من يرفع من روحهم المعنوية .

الخاتمة

سقوط الخرطوم في أيدي الأنصار ، في السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٨٥ ، وضعت النهاية العمية مهمة التي أوكل أمر تنفيذها لغوردون . فبعد انقضاء رهاء العشرة أشهر في المدينة ، وضح تماما أن تعليماته التي تلقاها في كس من لندن ولقاهرة ما زالت حيا على ورق . وفي المكان الأول ، لم يتمكن من إخلاء أي من الجنود والمدنيين من رعايا الامبراطورية العثمانية الذين كانوا يرغبون في العودة إلى مصر . كل ما تم في هذا المجال هو ترحيل قرابة الألف شخص يشكلون في معظمهم عائلات الضباط والجنود الذين هلكوا مع هكس باشا في شيكان . ولم يعد نشاطه إزاء حماية الخرطوم في هذا الصدد سوى نقل فرقتين من الجنود المصريين إلى أم درمان تأهباً لرحيل ، إلا أن تزايد جموع الأنصار حول المدينة قد إصطره لالغاء المخططة ، أو على الأقل تأجيلها . فعاد بهم مرة أخرى إلى الخرطوم حيث قوا فيها حتى سقوطها . لم يتمكن غوردون من عمل شيء أيضا فيما يتعلق بالحاميات الأخرى التي كان من المقرر أن يشملها قرار الإخلاء . فقد تأكد له أن الوضع في منطقة الخرطوم وفي المراكز التي تقم فيها تلك الحاميات لا يسمح بسحب أي منها ، فقيت في مكانها تسمى بمكانياتها لتشتيت شمل الأنصار من حوها . فسقط منها من غارت قواه وفي بعضها يدافع عن نفسه لوقت لاحق لسقوط العاصمة .

أما الشق الآخر من تعليمات غوردون ، ذلك الذي يتعلق بالجانب السياسي ، فلم يكن نصيبه من النجاح أكثر من الشق الأول . فقد فشلت محاولاته في إبقاء السودان تحت النفوذ التركي المصري ولو صوريا . وتأكدت أول مرة هذا الممثل عند سقوطه بوبر بعد حوالي ثلاثة أشهر من تاريخ تعيين مجلس الوجهاء الوطنيين الذين نصبهم غوردون ليحفظوا سلطة الخديوى . أما بالنسبة للخرطوم فرغم أنه شخصيا ظل يسيطر على الموقف

حوال مدة بقائه ، لا أنه حاول تطبيق خطة بربر بتعيين مجلس من الأعيان يحتل دعيا الإمبراطورية العثمانية أغلب مقاعده ، ولم تنق محاولته لأغراء ذوي النفوذ من الأهالي بالسلطة صدى في نفوس هؤلاء من ثم عادر عبد القادر إبراهيم قاضي الكلاكلة الخرطوم هائيا رغم تبعه بعضوية ذلك المجلس . ولم يتمكن عوص الكريم أبو من من قبول منصب مدير الخرطوم الذي عرضه غوردون عليه متعللا بخطورة السفر وسط منطقة فقدت لحكومة السيطرة عليها تماما . ولعله أثر مراقبة الوصح عن بعد خاصة وأن قبيله كانت تتأرجح في موقفها بين المريقين المتنازعين .

لم تثمر ، إذن ، محاولات غوردون في الوصول إلى حل وسط يتمثل في سحب لسلطة التركيبة الفعلية وإبقاء نفوذ صوري بسنده جهاز حكومي ينفذ للمهدي بالمرصاد ، ولم يكن الوضع في الواقع يحتمل حلا وسطا ، وكانت الثورة قد انتطعت جميع المقاصد القبية ، وأكد المهدي سيطرته التامة على أجزاء كبيرة من البلاد ، فانسح الناس بساندته بحماس منقطع النظير . وأندو استعدادهم للتضحية بأرواحهم وأموالهم . كانت أرواؤهم أمامهم واضحة لا غموض فيها ولا سس ، فهم يسعون للسيطرة على الخرطوم كجزء من مخطط يستهدف القطر بأكمله ، بالاضافة إلى هذا فقد توافرت لهم العوامل التي تساعد في إستكمال هذا النجاح . توافر لهم العنصر البشري المسلح بأسلحة تقليدية ، وتوافرت لهم أيضا كميات من الأسلحة الحديثة والأموال والعباد الحربي ، ولم تفقر حامية الخرطوم إلى كل هذا فحسب ، بل افتقرت في المكان الأول إلى روح ابتداره التي تدفع الجيود إلى خوض معارك صد لأنصر بحماس حقيقي . فقد تاه اهدف من تلك الحرب بأسة لهم وسط صباب كثيف . فهل يحاربون من أجل ترميخ أقدام لحكومة المصرية التي أعربت عن ردها في البلاد ، سيما ؟ أم من أجل الحكومة البريطانية ؟ أم من أجل غوردون ؟ كان بالطبع ثمة جيود بين أفراد لحامية لا تنقصهم لشجاعة والاقدام ، ولكنهم كرهوا انفرط في أرواحهم من أجل

قضية غامضة أهدافها وغير محددة معالمها .

كان لا بد أن تكتمل سيطرة الأنصار على البلاد بعد سقوط الخرطوم فتشمل المراكز التي لم ترل تحت قبضة حدود السلطات الحكومية ، وكانت كملا في حالة حصار بواسطة عامل المهدي مصطفى مهدي وأعوانه ، فكتب مديرها أحمد عفت إلى السلطات المصرية طالب النجدة ، إلا أنه لم يكن في الامكان الاستجابة له بعد سقوط الخرطوم ، فقد انتزع المهدي من أيديهم السلطة التي كانت تخول لهم حق التدخل في البلاد . وقد خشي حكام مصر أن تفسر أي إشارة بوصول حدود إلى السودان على أساس أنها محاولة للتصدي عسكريا للأنصار ، الأمر الذي سيعرض حدود مصر الجنوبية على الأقل للخطر . إزاء هذا الوضع لم يكن أمام مدير كملا سوى الرضوخ لبدء التسليم الذي وجهه له عامل المهدي ، فتم هذا في شعبان ١٣٠٢ (مايو ١٨٨٥) .

أما حومة مسار فقد ظلت حيصة خنادقها لفترة لاحقة لسقوط الخرطوم حتى أرسل المهدي محمد عبدالكريم ، فتم له الاستيلاء على الموقع في حمادى آخر ١٣٠٢ هـ (مارس ١٨٨٥) .

ومن ثم فطن المهدي إلى ضرورة تأمين منطقة شمال الخرطوم المتاخمة لحدود مصر والتي يمتد عبرها أسهل الطرق البرية والبحرية التي تربط بين البلدين فأوكل لعبد الرحمن النجومي مهمة تعقب الحملة الانكليزية ، مسار إلى الميمنة وبقي فيها يتسقط أخبار الحملة ، وفي يونيو من نفس العام قررت حكومة جلاد ستون إخلاء دنقلا ، فأمر المهدي محمد بخير بالتوجه إلى إحتلالها . فوقع في قبضتهم بقمة سائفة .

نظم المهدي أيضا حملة بقيادة حمدان أبي عنجة إستهدفت بعض قبائل حبال النوبة وجبال تغلى التي تمردت على سلطته .

تم تبلغ إنتصارات الأنصار ذروتها إذن في السادس والعشرين من يناير كما يتبادر للذهن لأول وهلة ، بل تم لهم هذا بعد خمسة أشهر من ذلك

التاريخ . ففي ذلك الحين لم يسيطروا على انخرطوم فحسب ، بل آمن لهم
مستوطنها إمكانية الاستيلاء على كل المراكز التي كانت لم تزال تحت سيطرة
الحاميات ، وقد انقلب الانكليز على أعقابهم عائدون من حيث أتوا . وبدأ
المهدي يتطوع إلى بسط نفوذه وسيطرته على مناطق خارج حدود البلاد .
وعاد مرة أخرى إلى ممارسة إستراتيجية الاعلامية التي درج عليها في نشر
الدعوة عن طريق المنشورات العامة والرسائل الخاصة ، فكتب خطاباً إلى
الخدوي وأخبره إلى أهالي مصر ورود دعائه بالوثائق . فأخبره ينجون
بلاد العرب من مشرقها إلى مغربها في محاولة سخر ج الدعوة إلى نطاق
يشمل العالم الإسلامي بأكمله .

إخراج إلكتروني / ابوبكر خيرى

المصادر

مصادر أولية :

(١) : مخطوطات در الوثائق الميكرية ، الخرطوم .

Board of Officers headed by Muhammad Nushi Pasha,
The Life of Gordon Pasha in Khartoum.
Ramadan 1303.
Egyptian Intelligence Class I, Box 3/20

ابراهيم الورديني ،

تقرير عن حصار الخرطوم وسقوطه
٢٠ أغسطس ١٨٨٧

Egyptian Intelligence, Class I, Box 10/52

عبد الرحمن النجومي .

محفوظ النجومي .

Mahdia Class 8/Box 4.

محمد خالد زقل ،

Mahdia Class 8/ Box 4.

مجموعة زقل

أفراد من لجنود والمدنيين ،

تقرير وفادات عن حصار الخرطوم وسار

Egyptian Intelligence Class I Box 8/54.

أبو سليم ، م . أ ،

معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم

(غير مصنفه وغير مرقمة)

دو. ثر رسمية ،

A Handbook of Khartoum Province

(غير مصنف وغير مرقم)

Leverson, J.,

Insurrection of the False Prophet

Egyptian Intelligence Class I, Box 8/3

Col. Fraser,

Report on the Relief of Khartoum 30.4.1884.

Egyptian Intelligence, Class I Box 8/4

مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية — جامعة د ر ام

نسخة العوام للخاص و لعام

Box. 98/4 ٢٠ رمضان ١٣٠٩

إسماعيل بن عبد القادر ،

سعادة المستهدى فى سيرة الإمام المهدي (إسماعيل بن عبد القادر)

Box 99/6

عوض الكريم على المسمى ،

لتبويضات الوهبية لصاحب الخلافة المصطفية محمد المهدي المنتظر

Box 98/5

Part, M W., 'A Rough Outline of the History of Gordon Notes
Box 424/10

Tarttelin, B., 'The Gordon Currency Notes' Box 424/10
Box 424, 10

Hill, R., 'Gordon's Steamers'
(unclassified)

Public Records Office, London

Official Papers Egypt FO 78

Cromer's Papers 633.

Granville's Papers G/D 29.

British Museum

Gordon, C.G.,

The Journals of Gordon at Khartoum 34473-9

Gladstone Papers, Add. MSS.

Hansard Parliamentary Debates. 1884.

State Papers Vol.42. (Egypt No. 1,5,6,12).

قسم السودان ، مكتبة جامعة الخرطوم

محمد نصحي بشا .

جورنال الحوادث

(غير مصنف وغير مرقم)

عثمان دقنة ،

دفتر وقائع عثمان دقنة ، ف .

مكتبات خاصة :

ابراهيم ابورديبي ،

تقرير عن حصار الخرطوم وسقوطها

٢٠ أغسطس ١٨٨٧

(بروغسور ب. م. هولت)

يوسف مبخائيل ،

تاريخ حياتي

١٩٣٤ر١٢١٥

(بروغسور ب. م. هولت)

ب : مطبوعات

محمد أحمد المهدي :

— منشورات الإمام المهدي ، الجزء الأول ، ديسمبر ١٩٦٤ ، الطبعة الثالثة

— منشورات الإمام المهدي ، الجزء الثاني ، يوليو ١٩٦٤ ، الطبعة الثالثة

— منشورات الإمام المهدي ، الجزء الثالث - الأحكام والآداب ، يوليو ١٩٦٤

الطبعة الأولى

نعم شقير ،

جغرافية وتاريخ السودان

دار الثقافة بيروت ١٩٦٧

ابراهيم فوزي ،

السودان بين يدي غوردون وكيتشر

المؤيد ، القاهرة ١٣١٩ هـ

بابكر بيري ،

تاريخ حياتي

محمد عيد ابراهيم ،

النداء في دفع الافتراء ، المقطم ، ١٩٤٦ .

Cuzzi, G.,

15 Years Prisoner of the False Prophet (English, Translation 1967).

Hake E. *The Journals of Gordon at Khartoum*, London 1885.

Ohrawlder, J., *Ten Years Captivity in the Mahdist Camp*, 1883-1892, London 1892.

Slatin, *Fire and Sword in the Sudan* London, 2nd Ed 1896.

المصادر الثانوية

Allen, *Gordon and the Sudan*, Macmillan and Co , London (1931)

Cromer, Earl of, *Modern Egypt*, Macmillan and Co., London (1908)

Dictionary of National Biographies, Oxford, (1900).

Elton, L., *General Gordon*,

Gaiskell, A., *The Gezira, A Story of Development in the Sudan*, London, 1958).

Hill, R. , *Egypt n the Sudan*, Oxford University Press, (1958)

Hill, *Sudan Transport*, Oxford University Press, (1966)

Hill, *A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan*, Clarendon Press, Oxford, (1951)

Holt, P M., *The Mahdist State in the Sudan 1881-1898*, Oxford University Press, 1958

Sh.beika, M., *British Poucy n the Sudan 1882-1902* Oxford Un.ver-sity Press, (1952).

Wingate, F. R., *Mahdiism and the Egyptian Sudan*, Macmillan and Co., London (1891).

اشيخ أحمد كاتب لشونة :

تاريخ ملوك السودان : تحقيق م . شبيكة.

الخرطوم (١٩٤٧)

سليمان كشه — تأسيس مدينة الخرطوم

الخرطوم (١٩٦٦ م)

The London Times

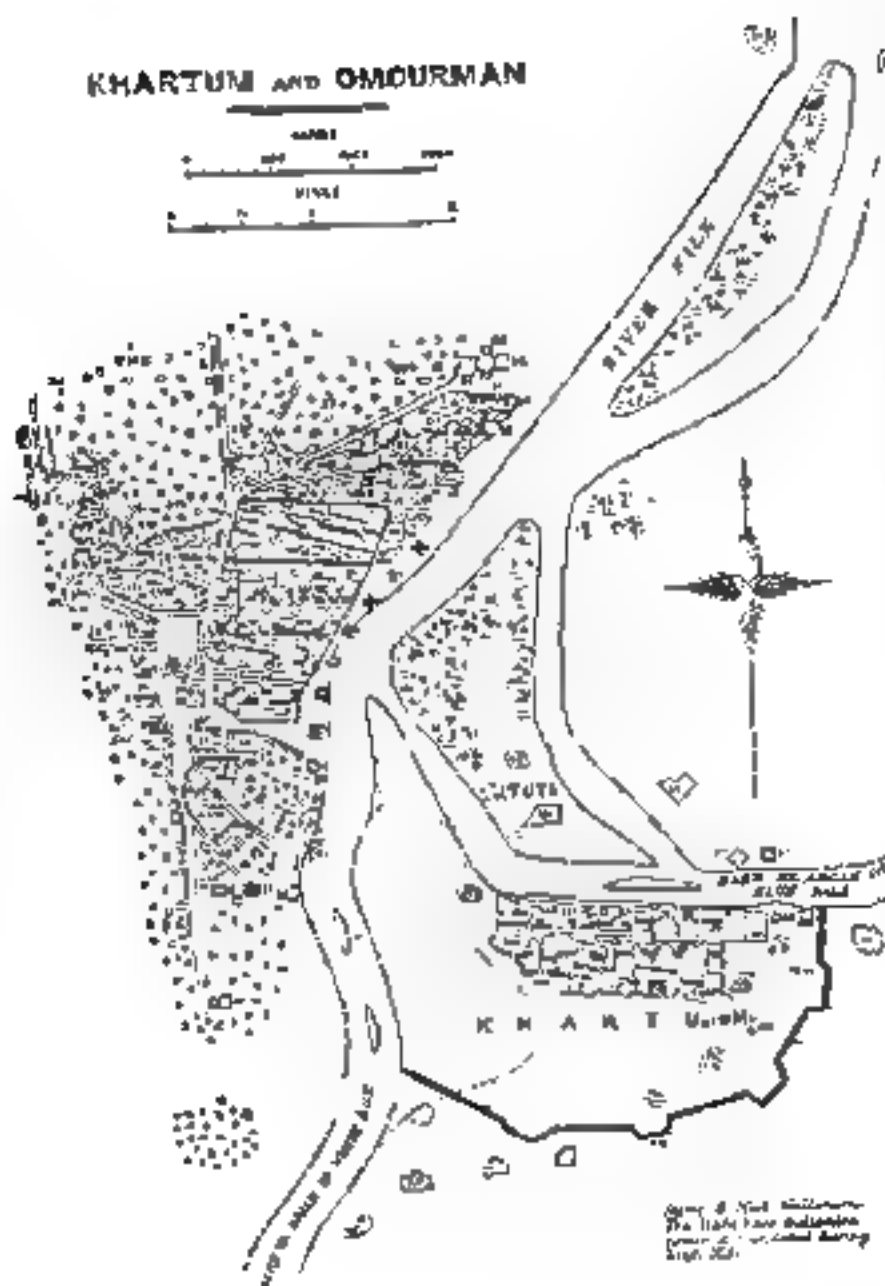
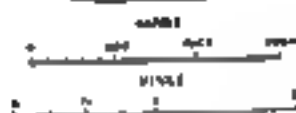
The Royal Engineers Journal

Sudan Notes and Records

Bulletin of School of Oriental and African Studies

إخراج إلكتروني / أبو بكر خيرى

KHARTUM AND OMDURMAN



Copy of Map of Khartoum
The Nile River
The Nile River
The Nile River
The Nile River

OMDURMAN.

1. The Nile River
2. The Nile River
3. The Nile River
4. The Nile River
5. The Nile River
6. The Nile River
7. The Nile River
8. The Nile River
9. The Nile River
10. The Nile River
11. The Nile River
12. The Nile River
13. The Nile River
14. The Nile River
15. The Nile River
16. The Nile River
17. The Nile River
18. The Nile River
19. The Nile River
20. The Nile River
21. The Nile River
22. The Nile River
23. The Nile River
24. The Nile River
25. The Nile River
26. The Nile River
27. The Nile River
28. The Nile River
29. The Nile River
30. The Nile River
31. The Nile River
32. The Nile River
33. The Nile River
34. The Nile River
35. The Nile River
36. The Nile River
37. The Nile River
38. The Nile River
39. The Nile River
40. The Nile River
41. The Nile River
42. The Nile River
43. The Nile River
44. The Nile River
45. The Nile River
46. The Nile River
47. The Nile River
48. The Nile River
49. The Nile River
50. The Nile River
51. The Nile River
52. The Nile River
53. The Nile River
54. The Nile River
55. The Nile River
56. The Nile River
57. The Nile River
58. The Nile River
59. The Nile River
60. The Nile River
61. The Nile River
62. The Nile River
63. The Nile River
64. The Nile River
65. The Nile River
66. The Nile River
67. The Nile River
68. The Nile River
69. The Nile River
70. The Nile River
71. The Nile River
72. The Nile River
73. The Nile River
74. The Nile River
75. The Nile River
76. The Nile River
77. The Nile River
78. The Nile River
79. The Nile River
80. The Nile River
81. The Nile River
82. The Nile River
83. The Nile River
84. The Nile River
85. The Nile River
86. The Nile River
87. The Nile River
88. The Nile River
89. The Nile River
90. The Nile River
91. The Nile River
92. The Nile River
93. The Nile River
94. The Nile River
95. The Nile River
96. The Nile River
97. The Nile River
98. The Nile River
99. The Nile River
100. The Nile River

101. The Nile River
102. The Nile River
103. The Nile River
104. The Nile River
105. The Nile River
106. The Nile River
107. The Nile River
108. The Nile River
109. The Nile River
110. The Nile River
111. The Nile River
112. The Nile River
113. The Nile River
114. The Nile River
115. The Nile River
116. The Nile River
117. The Nile River
118. The Nile River
119. The Nile River
120. The Nile River
121. The Nile River
122. The Nile River
123. The Nile River
124. The Nile River
125. The Nile River
126. The Nile River
127. The Nile River
128. The Nile River
129. The Nile River
130. The Nile River
131. The Nile River
132. The Nile River
133. The Nile River
134. The Nile River
135. The Nile River
136. The Nile River
137. The Nile River
138. The Nile River
139. The Nile River
140. The Nile River
141. The Nile River
142. The Nile River
143. The Nile River
144. The Nile River
145. The Nile River
146. The Nile River
147. The Nile River
148. The Nile River
149. The Nile River
150. The Nile River
151. The Nile River
152. The Nile River
153. The Nile River
154. The Nile River
155. The Nile River
156. The Nile River
157. The Nile River
158. The Nile River
159. The Nile River
160. The Nile River
161. The Nile River
162. The Nile River
163. The Nile River
164. The Nile River
165. The Nile River
166. The Nile River
167. The Nile River
168. The Nile River
169. The Nile River
170. The Nile River
171. The Nile River
172. The Nile River
173. The Nile River
174. The Nile River
175. The Nile River
176. The Nile River
177. The Nile River
178. The Nile River
179. The Nile River
180. The Nile River
181. The Nile River
182. The Nile River
183. The Nile River
184. The Nile River
185. The Nile River
186. The Nile River
187. The Nile River
188. The Nile River
189. The Nile River
190. The Nile River
191. The Nile River
192. The Nile River
193. The Nile River
194. The Nile River
195. The Nile River
196. The Nile River
197. The Nile River
198. The Nile River
199. The Nile River
200. The Nile River

THE NILE RIVER.

1. The Nile River
2. The Nile River

OMDURMAN.

1. Omdurman
2. Omdurman
3. Omdurman
4. Omdurman
5. Omdurman
6. Omdurman
7. Omdurman
8. Omdurman
9. Omdurman
10. Omdurman
11. Omdurman
12. Omdurman
13. Omdurman
14. Omdurman
15. Omdurman
16. Omdurman
17. Omdurman
18. Omdurman
19. Omdurman
20. Omdurman
21. Omdurman
22. Omdurman
23. Omdurman
24. Omdurman
25. Omdurman
26. Omdurman
27. Omdurman
28. Omdurman
29. Omdurman
30. Omdurman
31. Omdurman
32. Omdurman
33. Omdurman
34. Omdurman
35. Omdurman
36. Omdurman
37. Omdurman
38. Omdurman
39. Omdurman
40. Omdurman
41. Omdurman
42. Omdurman
43. Omdurman
44. Omdurman
45. Omdurman
46. Omdurman
47. Omdurman
48. Omdurman
49. Omdurman
50. Omdurman
51. Omdurman
52. Omdurman
53. Omdurman
54. Omdurman
55. Omdurman
56. Omdurman
57. Omdurman
58. Omdurman
59. Omdurman
60. Omdurman
61. Omdurman
62. Omdurman
63. Omdurman
64. Omdurman
65. Omdurman
66. Omdurman
67. Omdurman
68. Omdurman
69. Omdurman
70. Omdurman
71. Omdurman
72. Omdurman
73. Omdurman
74. Omdurman
75. Omdurman
76. Omdurman
77. Omdurman
78. Omdurman
79. Omdurman
80. Omdurman
81. Omdurman
82. Omdurman
83. Omdurman
84. Omdurman
85. Omdurman
86. Omdurman
87. Omdurman
88. Omdurman
89. Omdurman
90. Omdurman
91. Omdurman
92. Omdurman
93. Omdurman
94. Omdurman
95. Omdurman
96. Omdurman
97. Omdurman
98. Omdurman
99. Omdurman
100. Omdurman

[illegible][illegible]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعلنا من عباده المخلصين

و بعد من عید به احمد الصلحی ناصر الدین علیه السلام و با سعادت الامام ابو حفص فاضل سبک
تبعاً لفظه او در حالت و کرامت الصلحی و سایر احوال و بعد از آن در سب

[illegible]

جامعة الخرطوم

مطبوعات دار التأليف والترجمة والنشر

الكتب العربية التي صدرت

المؤلف	الكتاب
الاستاذ معاوية محمد نور	١٦» دراسات في الأدب والنقد
الاستاذ معاوية محمد نور	٢٥» قصص وخواطر (الجزء الثاني)
د. محمد إبراهيم أبو سليم	٣١» الحركة الفكرية في المهديّة
د. علي أحمد سليمان	٤٤» الفرائث في السودان
د. سيد محمد أحمد المهدي	٥٥» معجم المصطلحات القانونية
د. عثمان حسن سيد	٦٥» اجرامات تحرير الاقتصاد السوداني
د. عبد الرحمن لطيف علي طه	
الاستاذ موسى المبارك	٧٥» تاريخ دارفور السياسي
الاستاذ مصطفى سيد	٨٥» البحر القديم « شعر »
الاستاذ جمال محمد أحمد	٩٥» سأل فو حمر « قصص »
الاستاذ علي الملك	١٠٥» نماذج من الأدب الزنجي
لجنة الدراسات الاقتصادية	١١٥» تأميم المصارف في السودان
بنك السودان	
د. عون الشريف قاسم	١٢٥» دبلوماسية محمد
د. محمد إبراهيم الحمدلو	١٣٥» الصهيونية وعداء السامية
د. يوسف بشارة	١٤٥» كوبا الجزيرة التي احببت
د. يوسف فضل حسن	١٥٥» طبقات ود ضيف الله « تحقيق »
الاستاذ إبراهيم اسحق	١٦٥» أهمال اقليم والبلدة
الاستاذ محبوب محمد صالح	١٧٥» الصحافة السودانية في نصف قرن
الاستاذان: صلاح أحمد إبراهيم وعلي الملك	١٨٥» الأرض الآثمة « مترجمة »
د. محمد إبراهيم الشوش	١٩٥» الشعر الحديث في السودان
الاستاذ قاسم عثمان نور	٢٠٥» مصادر الدراسات السودانية
د. نوكل أحمد أمين	٢١٥» بمانخي « مترجمة »
د. سيد محمد أحمد المهدي	٢٢٥» الجريمة والمقريات
الاستاذ محمد محمد علي	٢٣٥» غلال شارد

٢٤١ « دراسات سودانية

د. عبد المجيد هادي

٢٥٠ « خواطر طيب

د. محمد سليمان شاهين

٢٧٠، ٢٦٠ « الفكر الاسلامي والفلسفات

د. عبد القادر محمود

المعارضة (جزءان)

٣١٠، ٣٢٨ « افق وشفق « ٤ اجزاء

الشاعر توفيق صالح جبريل

« تحقيق »

د. محمد ابراهيم ابراهيم ومحمد صالح حسن

٣٢٢ « نحو الله

محمد احمد محبوب

٣٣٥ « القصة الحديثة في السودان

الاستاذ مختار عجوبة

٣٤٥ « نماذج من القصة القصيرة في السودان

الاستاذ مختار عجوبة

٣٥٥ « مبادئ الكونيات

الاستاذ الامين محمد احمد كهور

٣٦٥ « صحو للكلمات المنسية

التور عثمان ابكر

٣٧٥ « مسائل في الابداع

الاستاذ جمال عبد الملك (ابن غليون)

٣٨٥ « اطفالنا غناؤهم وصحتهم

دكتور حافظ الشاذلي

٣٩٥ « حصار وسقوط الخرطوم

موسومة ميرفت حمزة

٤٠٥ « ادب رادية

دكتور محمد ابراهيم الشوش

٤١٥ « التربية من اجل الاعتماد على النفس ترجمة

الاستاذ على النصري حمزة

٤٢٥ « اتجاهات وميول اهللاب

د. السامي عبد الله يدوب د. عزيز حنا دلوود

٤٣٥ « محمد علي في السودان

دكتور حسن احمد ابراهيم

دوريات عربية :-

مجلة كلية الآداب

كتب تصدر قريباً :

١٥ « نداء المسافة « شعر »

نيراب الشريف

٢٥ « العودة الى سائر

محمد عبد الحي

٣٥ « تصدع وقصص اخرى

الدكتورون في مسابقة المجلس القومي للآداب والفنون

٤٥ « مقدمة في الرياضيات الحديثة

الاستاذ عبدالله صالح حامد

٥٥ « الرحيل في الليل

الاستاذ عبد الرحيم ابو ذكري

٦٥ « غربة الروح

الاستاذ ابراهيم افارولو

